

الدكتور عُصْمَر فروخ

كتاب

كتاب

كتاب

دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان



مَكْتَبَةُ لِسَانِ الْعَرْبِ



كتاب الدين شوقي

www.lisanarb.com

سِيِّدُ الْعَرَبِ

تأليف

مُحَمَّد فَرِيزُ

دُوَّلَتُورُ في المَكَسَّةِ

عُضُوٌ بِجَمِيعِ اللَّكَنِيَّةِ فِي الْقَاهِرَةِ

عُضُوٌ بِجَمِيعِ الْعَالَمِيَّةِ الْمَرْبِيَّةِ فِي دَمْشِقِ

عُضُوٌ بِجَمِيعِ الْجَهُوْثِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بُومَبَايِ

عُضُوٌ بِجَمِيعِ الْعَالَمِيَّةِ الْمَرْبِيَّةِ

الشاد
حَارِ الْكِتَابِ الْغَرِيبِ
مِيَهُوت - قَبَّات

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتاب العربي
بيروت

عام ١٤٠١ - ١٩٨١ م

فهرس الفصول

| |
|--|
| مقدمة : عبقرية اللغة العربية ٧ |
| الثقافة اللغوية والعقلية اللغوية ١٥ |
| المطالعة في كتب العلم وفي القاموس ٢٣ |
| المدارك القديمة في اللغة ٣٥ |
| من مدارك القاموس : ٥٧ |
| - ألفاظ النكاح ٥٧ |
| - صيغ فرادى طوال ٥٩ |
| - أسماء الشعراء ٦٢ |
| - الألفاظ الفلكية ٦٥ |
| الجيم البدوية (وتقليلها في الألفاظ العربية) ٨٧ |
| مراحل القياس في تاريخ اللغة العربية ١٠٣ |
| كلمة عرب ١٢٣ |
| - تحذّرها وتطوّرها ثم استقرارها القومي ١٢٣ |
| الأمثال معالم للحضارة ١٢٩ |
| النجمون في شعر ابن المعتز ١٣٩ |

| | |
|--|------------|
| لام التعريف في القاموس الإسباني وملحوظات أخرى | ١٥٧ |
| الغزل في الشعر العربي وما استحبّه العرب من مظاهر الجمال في المرأة | ١٧٩ |
| - الغزل قليل في الجاهلية | ١٨١ |
| - لا جديد في الغزل الأموي | ١٩٢ |
| - الجديد في الغزل العباسي | ٢٠١ |
| - الرقة والكنایة في الغزل العباسي | ٢١٧ |
| - التقليد في الغزل والنسيب | ٢٢٣ |
| جانب العلم في دراسة الأدب والفلسفة | ٢٥٥ |
| الترجمة أو نقل الكلام من لغة إلى لغة | ٢٨١ |
| الفهرس الهجائي | ٣٠٧ |

جُنْدَرَة

هذا الكتاب مجموع بحوث متصلة كانت في الأصل بحوثاً متفرقةً أقيمت في مجمع اللغة العربية في القاهرة أو في اجتماعاتٍ مختلفةٍ أو نُشرَ بعضُها في مجلةٍ وبعضُها الآخرُ في الجرائد .

ولهذه البحوث المنشورة هنا سلسلةٌ واحدٌ يجمعُها على نظامٍ معينٍ : اللغةُ العربيةُ من اللفظةِ الواحدةِ إلى المدرك العقلي في اللغة العربية نفسها ثم إلى نقل المدارك من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ثم مقدرةُ اللغة العربية على القيام بجميع وجوه التعبير في جميع ميادين الحياة .

اللغة العربية أقدمُ اللغات التي ما زالت تتمتع بخاصائصها من ألفاظ وتركيبٍ وصرفٍ ونحوٍ وأدبٍ وخيالٍ مع الاستطاعة في التعبير عن مداركِ العلم المختلفة . لا شكَّ في أن اللغة اليونانية واللغة العبرية واللغة السنسكريتية واللغة اللاتينية قد بدأ تدوينُها كُلُّها قبل اللغة العربية بقرونٍ كثيرة . ولا يزالُ في الحياة إلى اليوم لغةً يونانية

ولغة عربية ولغة سنسكريتية ، ولكن هذه اللغات فقدت كثيراً من ألفاظها ومن قواعد الصرف وال نحو فيها إلى حد أصَّبحَ عنده اليوم غير ما كانت عليه بالأمس . إن اليونانيَّ اليوم لا يتكلَّم لغة هوميروس أو لغة أفلاطون وأرسطو . وإن اللغة اللاتينية ما زالت حيَّة في عدد من العِظات الدينية فقط ، ولم يبق لها صلة بالحياة . ولكن اللغة العربية اليوم لا تزال لغة القرآن الكريم ولغة الشعر الجاهلي في صُرُفِها ونحوها وتشابهِها واستعارتها . ولا ريب في أن عدداً من ألفاظ اللغة العربية قد أصبحَ غَرِيباً وخرجَ من الدوران على الألسُن وعلى الأقلام ، لأن المدارك التي تُعبِّر عنها تلك الألفاظ قد خَرَجَ من نطاق الحياة الاجتماعية . ومثل ذلك نرى في جميع لغاتِ العالم بين عَصْرٍ وعصر .

اللغة العربية (لغة مُضَرَّ أو عرب الشَّمال في نَجْد) هي - عند التساهل الكبير - إحدى اللغات الأعرا比َّة التي يُقال لها خطأ : « اللغات الساميَّة »^(١) . إنها ، بهذا النَّظر ، أخت اللغات البابلية والكنعانية والأرامية وابنة عمَّ اللغة الحبشيَّة . وإذا نحن نَظَرنا في تمام القاموس العربي وفي كمال الصرف والنحو ، وَجَبَ أن نَعُدُّ اللغة العربية أمَّا للغات الأعرا比َّة جَمِيعَهَا ، إلا أنْ يرى أهل الاختصاص في هذا الميدان رأياً آخر .

(١) كان علماء اللغة يزعمون أن لغات البشر مقسمة ثلاثة أقسام : سامية وحامية وبافيثية ، نسبة إلى أولاد نوح الثلاثة سام وحام وبافيث . هذا مدرك خاطئ ، فلا يجوز أن ينشأ ثلاثة إخوة في بيت واحد ثم يتكلمون ثلاثة لغات . والصواب أن نسمى نحن اللغات العربية والحميرية والعبرية والأرامية والبابلية وأخواتها « اللغات الأعرا比َّة » لأنها كلها نشأت في شبه جزيرة العرب .

وكل لغة تأخذ من كل لغة أخرى احتكَت بها .

إن القاموس العربي الحاضر ليس قاموساً للألفاظ العربية على الحَصْر ، ولكنه قاموس لهذه الألفاظ العربية على الحَصْر وللألفاظ التي انتقلت إلى اللغة العربية انتقالاً يسيراً هادئاً من تلك اللغات الأعربية : من الحِمْرِيَّة^(١) والأرامية والعبرية - إذا شئت - ومن غيرها حينما ظلَّ الاحتكاك قوياً بين المتكلمين بتلك اللغات . وإن جانباً كبيراً مما يقال له « لغات العرب أو غريب الألفاظ » يجب أن يُرجع إلى هذا الاحتكاك بين اللغة العربية وأخواتها في الأدوار المختلفة من تاريخنا اللغوِيِّ . وعِندي أنَّ اجتماع مدارك مختلفة في الجذور الداخلة في القاموس العربيِّ اليوم يجب أن يُرجع إلى هذا الروافد التي صبَّتْ من الأنهرِ الأعرابية في النهرِ العربيِّ . ومثل ذلك يجب أن تكونَ حال « الأضداد » (الكلمة الواحدة التي تجمع معنىَينِ كُلُّ واحدٍ منها مُناقضٌ للآخر ، مثل الجُنُون (بمعنى : الأبيض والأسود) وظنَّ (بمعنى : تخيل واعتقد) والجَلْيل (بمعنى : العظيم والحقير) . ولم يُتعَلَّم لي بعدُ متسعٌ من الوقت لأدرسَ هذه الألفاظ التي تجمع المدارك المختلفة أو المدارك المتناقضة معاً .

وكذلك أخذت اللغة العربية من اللغات غير الأعرابية : من الفارسية واليونانية واللاتينية وتمثَّلت الكلمات المأخوذة منها إلى حدٍ ضاع عنده التفريق بين اللفظ العربيِّ واللفظ الأجنبيِّ . إن لفظة

(١) اللغة الحميرية (بكسر الحاء وسكون الميم) لغة أهل اليمن قبل الإسلام . واللغة الحبشية أخت لها .

درْهم (من اليونانية أو من الفارسية) ودينار (من اللاتينية) وغيرَهما قد دخلت في نسيج اللغة العربية وتصرَّفت تصرُّفَ اللفظ العربي الأصيل : دينار - دنانير - تدَنِر - مدَنِر الخ .

ثم إنَّ اللغة العربية أعطَت اللغات الأجنبية ألفاظاً وآداباً وعلوماً كثيرةً جدًا . إنَّ الكلماتِ العربية في اللغات الإسلامية : في الفارسية والتُركية والأردية والملاوية والسنغالية يجب أن تكون أكثر من أن تُحصى . وكذلك نجدُ الكلماتِ العربية في الإسبانية والبرتغالية ثم في الألمانية والإيطالية وإنكليزية والفرنسية ليست قليلة أيضًا .

والبحوث في هذا الكتاب من سنواتٍ مختلفةٍ متقاربةٍ أو متباعدة . إنَّ أحدَ بُحوثِ هذا الكتاب يرجع إلى عام ١٩٧٩ . أمَّا أقدمُ البحوثِ فيه فمن عام ١٩٣١ . ولعلَّ لهذا البحثِ القديم قيمةٌ خاصةً . في ذلك الحين ، في عام ١٩٣١ ، كنت أنا في الخامسة والعشرين من العمر ، وكنت أعلم في المراحل الابتدائية وفي المرحلة التكميلية ، لأنَّ المرحلة الثانوية ، في مدارسِ المقاصِدِ الخيرية الإسلامية ، لم تكن قد تمتَّ بعد . واتفق ، في ذلك الحين أنَّ كان المستشرق عبد الرحمن نيكل^(١) في بيروت فتداولنا ألفاظَ الغزل - وخصوصاً فيما يتعلق بالكلنكيات (وهي ألفاظ عامةً تُطلق على المحبوب لستر اسمه الحقيقي أو للتحبُّب إليه

(١) أ. ر. نيكل (ولد ١٨٨٥ وتوفي منذ بضع عشرة سنة) من بوهيمية (تشيكوسلوفاكية) ، اختار الجنسية الأميركيَّة . كثير المعرفة باللغات يحسن استعمال عشرين منها على الأقل . اهتمامه الأول باللغات الرومانية التي شعبت من اللغة اللاتينية . من أنصار النظرية العربية في نشأة الأدب الأوروبي الحديثة .

والتدليل له) . وكان من رأي المستشرق نيكيل أن هذه الألفاظ قد انتقلت من الأدب العربي إلى الشعر البروفسالي (الفرنسي القديم) . فرغب إلى في أنْ أُمضِيَ في البحث في هذه الألفاظ في الشعر العربي .

بدأت قراءة عددٍ من مصادرِ الشعر ومجامِيعه ثُمَّ نشرت سلسلةً مقالاتٍ في جريدة «الأحرار»^(١) ، في الأسابيع الأخيرة من عام ١٩٣١ والأسابيع الأولى من عام ١٩٣٢ . ولا ريب في أنَّ إعداد هذه المقالات بدأ منذ مطلع العام ١٩٣١ أو منذ أواخرِ العام ١٩٣٠ ، لأنَّ استعراض كتابِ الأغاني وجَمْهُرَةً أشعارِ العرب وحماسة أبي تمام ومحاراتِ البارودي وغيرها بالإضافة إلى عددٍ غيرٍ قليل من دواوينِ الشعر لا يمكن أنْ يَتَمَّ في أيامٍ قليلة .

وكانت النتيجة ما توقعه المستشرق نيكيل : أنَّ هذه الكنایات في الشعر العربي قد انتقلت بمعانِيها وبملابساتها إلى الشعر البروفسالي .

وأتفق أنَّ كان المستشرق نيكيل يُعَدُّ ديوانَ ابنِ قُزمانَ الزَّجالِ الأندلسي للطبع (بالحرف اللاتيني) فكتب في مقدمة ذلك الديوان هذه الكلمة التالية^(٢) :

(١) الأحرار : جريدة يومية صدرت في بيروت عام ١٩٢٢ . بدأت أكتب فيها منذ عام ١٩٢٦ (و كنت لا أزال طالباً في جامعة بيروت الأمريكية) . تقلب عليها مالكون كثيرون منهم جران التوبني وخليل كسب وسعيد صباحة .

El Cancionero Aben Guzmán, por A.R. NYKL, Madrid 1932, PP. XL (٢)

Durante mi estancia en Beyrouth recomandé al joven poeta y profesor de literatura àrabe en la **Kulliyat** al - Maqâsid al - islâmiya, Omar Farûh, la investigación de estos varios problemas, cuyo resultado dio a luz en una serie de artículos insertos en el periódico **al-Ahrâr**. conocido ya en la época antiislámica, el uso de los nombres fingidos kizose general en la poésia durante el período **abbasi** y es frecuentísimo en Abû Nuwâs.

وفيما يلي هذا المقطع باللغة العربية :

في أثناء إقامتي في بيروت اقتربت على الشاعر الشاب وأستاذ الأدب في كلية المقاصد الإسلامية أن يبحث في هذه المشاكل المختلفة . وقد ظهرت نتائج بحثه هذا في عدد من المقالات التي نُشرت في جريدة «الأحرار»^(١) . لقد كانت تلك الكتابات معروفةً منذ عصر ما قبل الإسلام ثم استمر استخدامها إلى العصر العباسي ، وكثيراً ما نجدها أيضاً في شعر أبي نواس .

* * *

وبعد مدة طويلة أصدر الدكتور أحمد محمد الحوفي كتابه «الغزل في العصر الجاهلي» (١٩٦١ : تاريخ مقدمته للكتاب) - وهو كتاب جيد - ولكنَّه مخالف لعنوانه ، فالدكتور الحوفي تناول الغزل والنسيب معاً . وكثيراً ما يأتي بشواهد على الجمال الجاهلي

(١) ظهرت هذه المقالات من ٥ / ١٢ / ١٩٣١ إلى ٢٠ / ٢ / ١٩٣٢ .

من شعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ففي الصفحات ٨٧ إلى ٩٣ نجد شواهد (على الجمال الجاهلي) مأخوذاً من شعر الموارد بن المنقد العذوي (الجاهلي) ومن شعر عمر بن أبي ربيعة والفرزدق (الأمويين) وابن ذرید (العباسي) . ومثل ذلك كثير عندـه . ثم وصل إلى ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ = ١٠٦٣ م) وإلى شوقي (ت ١٩٢٧) ، وألدوس (?) هكسلي أيضاً (راجع مثلاً ، ص ١٨٦ - ٢٨٨) .

* * *

هذا ولا يزال للغة العربية وجوه من العبرية يحتاج كل وجه منها إلى كتاب خاص بذلك .

في ثامن المحرم ١٤٠١ .
١٦ / ١١ / ١٩٨٠ .

ع . ف .

الثقافة اللغوية واللغة الثقافية

في الناس أفراد قليلون امتازوا بثقافة لغوية فعَرَفُوا أوجه اشتغال الألفاظ وحَدِّقوا تركيب الكلماتِ ورُزِقُوا ذوقاً أدبياً . إنهم يحسنون وضع اللفظ على المعنى وضعاً مُحْكماً ثم يسوقون المعنى في الجملة سُوقاً بارعاً . وانك إذا قرأت ما يكتب هؤلاء أدركت أنهم ذوو رأي راجح وعبرية فياضة ، تكثر عندهم المعاني المألوفة والغريبة كما تكثر عندهم الآراء النظرية والعملية . فإذا وقف أحدهم ليتكلم أو أخذ القلم ليكتب ، فتدفقت المعاني على لسانه ، أسعفته ثقافته اللغوية وأخذت تفصل له الكلماتِ والتركيب على قدر المعاني والأفكار ، بسرعة ودقة وبوضوح وسهولة . ولا غُرُور فإنَّ الوضوح في التفكير يُتَجَّعَّلُ منه ووضوح في التعبير ، ذلك لأنَّ اللغة وسيلة إلى التعبير عن الفكر كما أن الخطوط والألوان واسطة إلى إبراز خيال المصور . ورب خطين بسيطين يرسمهما

* مقال نشر في مجلة « الرائد » (الكويت) في عدد ذي القعدة ١٣٧١ (حزيران / يونيو ١٩٥٢) .

المصور البارع على القرطاس فإذا هما صورة رائعة يعجز عن مثلاها
المصور العادي الذي يزحم صدر قרטاسه بالخطوط ، ثم يملأ ما
بين خطوطه بالألوان . وأنا إذا أحببت أن أعرض عليك جانبا من
تلك الصور الفاتنة التي رسمت بالكلمات اليسيرة أنشدتك قول
الشاعر الجاهلي البدوي الصعلوك تأبّط شرّاً حيث يقول :

سَدَدْ خِلَالَكْ مِنْ مَالٍ تَجَمَّعَهُ حَتَّى تَلَاقِي الَّذِي كُلُّ أَمْرِي لَاقِ .
لَقَرَعَنْ عَلَيَّ السَّنَّ مِنْ نَدِمٍ إِذَا تَذَكَّرْتُ يَوْمًا بَعْضَ أَخْلَاقِي .

أو قول الشاعر الجاهلي عمرو بن الأهتم :

وَكُلُّ كَرِيمٍ يَتَقَيَّ الدَّمَ بِالْقَرْي وَلِلْخَيْرِ بَيْنَ الصَّالِحِينَ طَرِيقٌ .
لَعْمَرُكَ مَا ضَاقَتْ بَلَادُ بَاهْلَهَا ، وَلَكَنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقٌ .

غير أن ثمة عدداً وفيراً من البشر لا يملكون هذه الثقافة
اللغوية التي تمكنتهم من التعبير الصحيح عن الآراء الصحيحة ، بل
هم قد اكتسبوا من بيئتهم أو من مجرب تربيتهم « عقلية » لغوية
فامتلأت ذاكرتهم بمفرداتٍ وتعودت ألسنتهم تراكيب معروفةٍ فهم
يلوكونها في كل مرة أرادوا أن يقولوا أو يكتبوا كلمة ، فإذا جهدهم
في ذلك كله يدور على الألفاظ والتركيب ، وإذا اللغة عندهم
ليست وسيلةً إلى التعبير عن التفكير ، بل مبارأة في طول النفس
وجلده على الإعادة والتكرار . هؤلاء إذا بدأوا موضوعاً شغّلتهم
التركيب عن الفكرة التي يُراد منهم أن يعالجوها فجعلوا يخطئون
بكلامهم في كل وادٍ ويتقللون من موضوع إلى موضوع انسياقاً مع
الألفاظ التي تخطر ببالهم وتعلقاً بالتركيب التي تتشابه في ظاهرها
أمام عقولهم . ويظمن هؤلاء عادة إلى الألفاظ والتركيب إذ

يعتقدون أنهم إذا أرْضُوا بها أنفسهم فقد اقنعوا بها غيرهم .

وعندي أن هذه « العقلية » اللغوية تظل محتملة ما دام صاحبها في نطاق الإنتاج الأدبي الخالص يُنظم البيت والبيتين للتفكيره ويشر السطر والسطرين - في مجرى المقال الطويل - للترويج عن نفس السامع أو القارئ . ثم إن المكتبة العربية تستطيع أن تحتمل عدداً من الدواوين والرسائل التي تجري هذا المجرى كالمقامات المتأخرة التي ألفها أصحابها تقليداً لبديع الزمان وللحريري ، أو كالدواوين التي يزعم أصحابها أنها شعر وليس فيها سوى ألفاظ مرصوفة وجمل مصفوفة من غير صلة معقولة بينها كلها . ولا غُرَّ فإن دور « العقلية اللغوية » في أدب كل أمة هو دور المرض في تاريخ ذلك الأدب .

غير أن هذه العقلية اللغوية تصبح غير محتملة إذا انتقلت إلى الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية ، وذلك حينما تصبح الجملة اللغوية البارعة مقاييس اجتماعية أو عقلية . إن هناك جملأ لغوية تفصيل بين الشرق والغرب كما يفصل المحيط الأطلسي بين أفريقية وأميركا . إن اعتقادنا بالجملة المسجوعة : « ليس في الإمكان أبدع مما كان » هو الذي تركنا إلى اليوم حيث كنا منذ ألف عام . لقد أصبح الغرب يطير ب معدل ألف كيلومتر في الساعة بينما نحن لا نزال ندب على الأرض بعجلات تجرها ذوات الأربع . وإن تصديقنا بأن العجلة - في كل شيء - من الشيطان هو الذي جعلنا نقبل الهدنة الأولى والثانية في فلسطين . ثم إن تأخرنا في جميع ميادين النشاط العالمي راجع إلى أننا نفرح بالكلام العذب الجميل

فنحارب عدُونا بالبلاغات المسجوعة ونُحلّ مشاكلنا الاجتماعية بالتصريحات المنمقة . فإذا نحن قلنا مثلاً . « إن حالة اللاجئين تفتت الأكباد » اعتقדنا أنها أنصفتنا اللاجئين وأننا قد انقدناهم مما هم فيه . وهنالك اليوم في لبنان وحده خمسون جريدة يقرأها ملبيون شخص وليس فيها إلا شكوى من حالة البلاد ، ثم أنك لا تجد مع هذه الشكوى درهماً واحداً من العمل الصالح في سبيل الاصلاح والرقي . إن مهمة الصحافي العربي تنتهي مع توقيعه المقال الافتتاحي ومهمة القارئ العربي تنتهي مع قراءة هذا المقال أو مع قراءة عنوانه فقط . ولقد مر منذ الانتداب على البلاد العربية إلى اليوم جيل كامل من الدهر نشأت فيه دول ذات قيمة دولية يحسب لها حساب في ميزان العالم السياسي منها يوغوسلافية وايرلنديه وأندونيسية والهند وباكستان ومنها إسرائيل ، ومع ذلك فإن الصلات بين سوريا ولبنان - والمسافة بين عاصمتيهما مائة كيلومتر من الطرق المترعرجة لا تزال تتراجع منذ سنين ، ذلك لأنَّ نفراً من سكان الدولتين يشمئزون من كلمة « المقاطعة الاقتصادية » بينما النفر الآخرون يخافون من كلمة « الوحدة الاقتصادية » . وبينما ترانا نحن نتعلق بالخلاف اللغوي بين مدلول هاتين الكلمتين نجد الدوائر السياسية والاقتصادية في العالم تعامل البلدين وما حولهما أيضاً معاملة واحدة ، فمشروع الدفاع عن الشرق الأوسط والنقطة الرابعة والتاليين وشركات الطيران وشركات النقل ومكاتب التوريد والتصدير كلُّها تنظر إلى بلادنا بغير العين التي نظر بها نحن . نحن ننظر إلى سوريا ولبنان والأردن والعراق ومصر على أنها مدلولات لغوية تحاجز في رقعة الشرق الأوسط كما تحاجز أسماؤها في

القاموس وفي دائرة المعارف ، بينما الغربيون ينظرون إليها على أنها مدلولات جغرافية لا فواصل بينها - وإن اختلفت ألوانها علىocard - أكثر مما بين المقاطعات المتعددة في الولايات المتحدة مثلاً . ومع ذلك فمن ذا الذي ينكر أن مشاريعنا الاقتصادية الصحيحة ليست في أيديهم هم !

وفي حياتنا الفكرية تسيطر علينا اللغة سيطرة مخيفة . إن كلمة فلسفة لا تزال في أذهاننا تعني شيئاً مبهماً . إنها باب مرصود تجثم وراءه الأسرار والمغيبات والأحاجي التي لا يُدرى ما هي . مع أن الفلسفة - كما يقول ابن رشد - ليست شيئاً أكثر من النظر في الموجودات لمعرفة أسباب وجودها . إن عمل الفلسفة تيسير للأمور التي عقّدها العامة وأشباه العامة بما أضافوا إليها من القصص والخرافة ثم توضيح للمعقولات التي سترها الجهل والاستغلال بألف ستار وستار .

وفي الفلسفة أيضاً ترانا نعتمد الألفاظ . ففلان عند بعض النقاد فيلسوف لأنّه طبع ديوان شعر فيه عدد من المعاني المبهمة الغامضة التي لم يَدِر الناقد المحب لها وجهاً فنعتها بأنها « أفكار عميقه » . ونطالع نحن هذا الديوان فلا نجد فيه من العمق إلا كلمة « عميقه » . ثم نحن لا نجد في هذا الديوان شيئاً من الشعر ، ذلك لأن طبيعة الشعر تناقض التعقيد وتخالف تطلب المعاني التي لا تنتش على الشاعر من تلقاء نفسها .

أمام هذا كله ترانا نحتاج في الشرق إلى شيء من التفكير المادي ، إلى النظر في الأمور التي حولنا نراها ونحسها ، إلى

الأخذ بالحقائق والاضراب عن الخيال المريض والأوهام المتناففة . ولقد ثبت الآن ، وراء كل ريب مما نشره رجال السياسة وال الحرب من العرب واليهود والأجانب على السواء ، أننا حاربنا اليهود في فلسطين بالبلاغات فقط ، وأن البلاغ الذي قال أن الفريق العربي الفلاني قد أصبح على بعد آثني عشرَ ميلًا من تل أبيب لم يكن يعني أكثر من أن هذا الفريق قد تراجع خمسة أميال ، لأن التقسيم الذي كانت هيئة الأمم قد فرضته وضع حدود المنطقة العربية على سبعة أميال من تل أبيب . وكذلك لما نشرت الصحف أن الجلسة التي عقدتها جامعة الدول العربية في التاريخ الفلاني قد أرْفَضَتْ والوفود العربية متفقة فيما بينها اتفاقاً تاماً على انتهاج خطة حكيمه تكفل للعرب تحقيق أهدافهم الموحدة وشدَّ أواصر الأخوة السُّمْحة ونيل الأمانى الوطنية والقومية لا تعنى أكثر من أن المجتمعين كانوا على أشد الخلاف فيما بينهم حتى أنهم لم يستطعوا أن ينشروا على الرأى العام العربي ما حدث فطلعوا علينا بذلك البيان المنمق الذى لا يعني شيئاً على الإطلاق . ويكتفى أن تعودوا اليوم إلى تلك البلاغات الطنانة ثم تنظروا إلى الحالة التي استقرت فيها فلسطين اليوم .

وأنا أريد من العرب ألا يخافوا من «كلمة» التفكير المادى . أنا لا أعني بالتفكير المادى ما يعني به نفر من المتأدبين من الجشع والتکالب على متاع الحياة الدنيا . وإنما أعني ما عناه الفلاسفة من أن للأمور المادية التي تحدث في عالمنا أسباباً مادية . إن استنباط البترول من باطن الأرض يحتاج إلى جهد مادى . وليس من الممكن أن يطفو البترول على وجه الأرض ثم يسير عبر الصحراء

بالأمني والطلسمات . وكذلك رفع المستوى الاجتماعي يحتاج إلى أناس يضربون في أرض الوطن ويبذلون مالاً ووقتاً لوضع أساس الإصلاح ثم يتبعهون هذه الأساس يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر وعاماً بعد عام حتى يصلوا إلى ما يصبوون إليه . وإن المرء ليعجب أشد العجب من الفرق بين الفلاح الساذج الذي يتمنى محسولاً ثميناً فيعتني بأشجاره في الشتاء والربيع والصيف حتى تؤتي أكلها في الخريف ، وذلك السياسي المثقف الذي يريد لأمته الرقي ولكنه يجلس في كرسيه الوثير ثم يتمنى بذلك الرقي ثميناً . وهل يجوز لنا بعد هذا أن نستغرب إذا رأينا إرادة الفلاح الساذج تتحقق كل عام بينما إرادة هذا السياسي لم تتحقق قط ؟

ونحن في الشرق لا نخشى من طغيان المادة في معناها الصحيح . إن الروح قد انطلقت من الشرق ، بل إن الشرق هو الذي اخترع الروح ثم نشرها في أقطار العالم . فإذا سار الشرق على سياسة مادية صحيحة فلا يمكن أن يصل إلى ما وصل إليه الغرب . إن الغرب كان أرضاً مادية من قبل ، فلما اتّخذ المادة الجديدة غلَبَ على أمره ونسى الروح مرة واحدة . إننا نحن في الشرق قد ولدنا وولدت الروح معنا ، فإذا ملنا اليوم إلى المادة لم نعدْ أن تتواءزَ الروح والمادة في حياتنا .

نحن اليوم في الشرق على مفترق طريق ، ولا يعلم إلا الله ما يتظரنا في ثنایا حرب عالمية ثالثة . لقد مرت بنا حربان عالميتان لم تستفد منها شيئاً لأننا لم نستعد لهما شيء . لقد كنا دائماً نعتمد حسن النية عند خصومنا . وفي الواقع أننا لم نكن لنستطيع أكثر من

ذلك ، ما داموا هم يحضرُون إلى المؤتمرات ووراءهم طيارات ودبابات وبحضر نحن في سيارات من صنعهم هم . وكان أحدهم يقف ليقول نعم أو لا فقط ثم يشير من طرف خفي إلى ما أعدد من قوة وعلم ، بينما نقوم نحن فتبارى في الخطب ونتغنى بالروابط ونستجدي الحقوق ونملأ الجو فلسفة روحية جوفاء .

أيها العرب : ها أمامكم طريقان : طريق تسيرون فيه أنتم إلى الوراء ، وطريق يسير فيه خصومكم إلى الأمام . فعليكم أن تختاروا أيَّ الطريقين شئتم : سيراً قهقري إلى الأبد ، أو سيراً منذ اليوم إلى الأمام . آخِزُموهُ أمركم ولا تنتظروا ، فإنَّ الدهر وخصومكم لا ينتظران . أما إذا كنتم لا تريدون أن تأخذوا بالاتجاه المادي في حياتكم كلها فلا تكتفوا منها بالناحية اللغوية فقط ولا تخدعوا أنفسكم بالألفاظ . ثم لا تظنوا أن أحداً يمكن أن يتقدم ما دام متشبثًا بمكانه جامداً في تفكيره مستكيناً إلى المصائب التي تنزل به . ولقد خلق الله تعالى فينا إرادة غايتها أن ننقل بها أنفسنا من حال إلى ما هو خير منها . فلتحترم هذه الإرادة فينا ولتننفر بها نحن العرب من سوء ما نحن فيه ولنعلم أن الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم .

اللُّطْفُ الْعَظِيمُ فِي الْكِتَابِ الْعَالِمِ وَفِي الْقَامُوسِ

« إنني أعجب من الذي يقرأ كتاباً
ليفهم مدلولَ كلمةٍ واحدةٍ أو
يطلع على فكرة صغيرةٍ ، ثمَّ هو
لا يقرأ كلمةً واحدةً ليفهمَ فحوى كتابٍ كبيرٍ ! ».

حينما يسمع بعض الناس كلمة « مطالعة » ، فأول ما يتadar إلى ذهنه « قراءة الكتب الخفيفة » كالروايات الغرامية والقصص البوليسية وكتب المغامرات الغريبة ووصف الاجتماعات العادمة والشئون الشخصية للأفراد المعروفين في البيئة الاجتماعية أو للأفراد الذين قفزت أسماؤهم حديثاً إلى صفحات الجرائد ، وخصوصاً ما كان له صلة بحياة البشر المكتومة . وقلما خطر لنفري من الناس أن يطالعوا في كتب العلم أو كتب البحوث المثقفة . ولعل من غير المنتظر عند نفر من الناس أن يسمعوا أن القاموس من كتب المطالعة ! ولكن القاموس ، في الواقع ، من الكتب المفيدة الطريقة التي تصلح للمطالعة صلحاً كبيراً ، فإن كلَّ كلمة في

القاموس تُقصَّ قصَّةً طريقةً أو تُسْرُدُ تاريخاً طويلاً أو تُكْشِفُ عن رحلة ذهنية جميلة .

والمطالعة عند عامة الناس إدمان كالتدخين مثلاً :

من هؤلاء من لا يستطيع أن ينام إلا إذاقرأ شيئاً قبل النوم ؛ ومن هؤلاء نفر انقطع كل سبب بينهم وبين القراءة (قبل النوم وبعد النوم) ، ومنهم من يقرأ إذا وجد كتاباً أو مجلة أو جريدة مع صديق له فيقرأ حيناً غير معين من الوقت على سبيل الاستعارة .

عرفت أنساً كثيرين لا يطأطعون ، فالمطالعة ليست جزءاً معييناً في حياتهم . من هؤلاء نفر يشترون الكتب ويجلدونها ولكن لا يقرأون فيها . ومنهم من يجمع مكتبةً من الكتب النفيسة ويصنع لها خزائن من الخشب الجميل ، فإذا زاره أشخاص زياره طويلة أو قصيرة حرص على أن يطوف بهم في هذه المكتبة وعلى أن يسمى لهم عدداً من الكتب التي فيها وعلى أن يذكر لهم أثمانها ، ولكنه لا يكاد يعرف شيئاً مما في داخلها . وكنت مرّة عند تاجر فاراني كومة من الجرائد والمجلات لا تزال في لفائفها : إنه يدفع بدلات الاشتراك فيها ، وإن أعدادها تصل إليه بانتظام ، ولكنه لا يقرأها - لضيق الوقت .

وألف فنان أعرفه كتاباً قيماً جداً وأهدى نسخة منه إلى وجيه كبير من الذين أشرفوا على مشروع من أعظم المشروعات التعليمية . وبعد مدة طويلة التقى الفنان المؤلف بالوجيه المشرف على مشروع التعليم وسأله : « كيف وجدت الكتاب ؟ » فما كان

جواب ذلك الوجيه إلا أن قال : « وهل عندنا نحن وقت
للقراءة ! ». .

وهنالك طبقة أخرى من الناس فيما يتعلق بالمطالعة :

أعرف نفراً من الناس أكاد أجزمُ بأن أحدهم لم يشتري في حياته جريدةً أو مجلةً ، ولم يَعْرِفْ في حياته غير الكتب المدرسية . ثم إنَّه لم يحتفظ بكتبه المدرسية . هؤلاء إذا اتفق لهم أن رأوا جريدةً أو مجلةً في يد أحد استعاروها منه أو شاركوه في مطالعتها . وأعرف معلمين يدرسون مادةً في كتابٍ مقرر فلا يشترون الكتاب : إنَّهم إما أن يحصلوا عليه بطريقة من الطرق أو أن يستعيروه من مكتبة المدرسة أو من مكتبة عامة ، فإذا انتهى العام المدرسي ردوا ذلك الكتاب إلى تلك المكتبة التي استعاروه منها . وكفى الله المؤمنين القتال (دفع ثمن الكتاب) .

ومن أعظم ما يُثير الدهشة (أو مما يثير دهشةً عظيمة ، على الأصح) أولئك الذين يقرأون كتب القصص الدُّورية - التي تصدر حلقاتٌ من سلاسلٍ مرَّةً في كل شهرٍ أو مرَّةً في كل أسبوع . سألت يوماً صديقاً لي عنده شبةٌ دارٌ للنشر تُصدرُ مثل هذه السلاسل :

- كيف تجد في كل أسبوع موضوعاً جديداً ؟

قال :

- ليس هنالك موضوعاتٌ جديدة : هنالك خمسةٌ موضوعاتٌ أو ستةٌ أبدلُ مقدماتها وأسماءَ أصحابها وعناوين فصولها ، مرَّةً بعد مرَّة ، ثم أدفعها إلى المطبعة بأسماءٍ جديدة .

فقلت له مازحاً :

- لعل هذا أيسر ما تصنعه !

فقال لي جاداً :

لا ! في بعض الأحيان يُدركني مطلع الشهر أو مطلع الأسبوع ولا أجد وقتاً لذلك الشيء الذي تَعْدَه أنتَ يسيراً ، فأتناول نسخة من قصّة قديمةٍ فأنزع غلافها ثم أطلب من الرسام أن يُعدّ لها غلافاً جديداً . وتنزل القصّة القديمة كثيراً أو قليلاً إلى الأسواق بغلاف جديدٍ وبعنوان جديد .

ولعل القارئ يستغرب هذا الذي روته في الأسطر السابقة . ولكن استغرابه يزول إذا علم أن أناساً كثيرين يرجعون من تلقاء أنفسهم إلى القصص التي كانوا قد قرأوها في وقت سابق فيعودون قراءتها مرةً أو أكثر من مرةً . بل هنالك أعجبُ من هذا . إنَّ الذين يستمعون في المقاهي إلى قصّة عنتر عاماً بعد عام كثيرون جداً . وكثيراً ما يعيد الحكواتي كلام الليلة السابقة - مع الاعتذار الظاهر بأن نفراً لم يكونوا موجودين في الليلة السابقة ، وقد رجوه أن يعيد ما قاله بالأمس - فيُصغي الجميع ، أولئك الذين لم يكونوا بالأمس وأولئك الذين كانوا بالأمس ، إلى الحكاية المُعادة بشوقٍ واحدٍ واستغراق واحد .

وسألت أحدَ الذين كانوا يطالعون كثيراً : لماذا تقرأ هذه الكتب التي لا قيمة لها ثم لا تهتم بكتاب ذي قيمة ؟ فقال : أنا رجلُ كثير الأعمال ، ومن أعمالي ما يشغل البال . وكلَّ الذي أريده

من القراءة أنْ أَرْوَح عن نفسي . إنَّ المهمَّ عندي أنْ أقطعَ الوقتَ
الفارغ بأشياءٍ تُبعِّدني عن جُوْ عملي الشاغل .

في هذا القول شيءٌ من فلسفة المطالعة ، فالمطالع يقرأ عادةً
أشياءٍ بعيدةً عن خطَّ عمله الأساسيَّ .

غير أنَّ الفرقَ الصحيحَ بين القراءة والمطالعة ، في واقعِ
الأمر وحقيقته ، قليلٌ جدًا . إنَّ العالمَ والمُؤلَّفَ والباحثَ لا
يكادون يقرأون كتاباً إلَّا ابتعاه الفائدة ، وقلماً قرأ أحدهم كتاباً
أو مجلَّة طلباً لتزْجِيَّةِ الوقت أو حبَا بالتسليمة . وكذلك الرجلُ العاميَّ
أو الذي لا تقومُ حياته على الجانبِ الثقافيِّ من النشاط الإنسانيِّ لا
يكاد يقرأ شيئاً إلَّا ابتعاه التسلية وطلباً للغريبِ من القول وللخياليِّ
من الأعمال أو حبَا بما يألفه ويُحبُّ تكرارَ القولِ فيه .

ولكنَّ ثمةَ شيئاً من الفرق بين القراءة وبين المطالعة نجده
دائماً في الجانبِ العمليِّ من حياتنا : حينما يقرأ الإنسانُ أشياءً
تتعلقُ بعمله الأساسيِّ فهو يقرأ بقصدٍ واهتمامٍ لأنَّه يقرأ للاستفادة ،
ومطالعته جزءٌ من عمله الأساسيِّ . ولكنَّ حينما يقرأ أشياءً لا تتعلقُ
بعمله الأساسيِّ فهو يقرأها اتفاقاً وھوَنَا لأنَّه لا يتغيَّرُ من وراءِ تلكِ
القراءةِ أمراً معييناً . والقراءةُ على هذا الشكل ليست جزءاً من عمله
الأساسيِّ ، بل ليست جزءاً من عمله على الإطلاق .

في كثيرٍ من الأحيان يدخلُ على نفسي المللُ من تصحيحِ
الأوراق ومن إعدادِ المحاضرات ومن التأليف وكتابة المقالات في
الأدب والفلسفة والتاريخ ، فأتى إلى رفَّ من رفوف المكتبة عليه
عددٌ من كتبِ العلمِ الرياضيِّ والطبيعيِّ فأتناولُ من فوقه كتاباً في

الجبر أو الكيمياء مثلاً وأبدأ بقراءته فأقضى ساعةً أو ساعتين أقرأ في ذلك الكتاب كما يقرأ غيري قصة بوليسية أو روايةً عن روميو وجولييت ، ذلك لأنني أعتقد أن المطالعة ، مهما تكن جانبية ، يجب أن يكون القصد منها شيئاً من الفائدة والتشفيف .

وقد اتفق ، في عام ١٩٦٣ ، أن دخل على نفسي شيء من مثل ذلك الممل ، وكان قد اتفق أيضاً أن قرأت كتاباً صغيراً في الفلك فوجدته طريفاً وممتعةً معاً . ومع أن مؤلف هذا الكتاب قد قصد التوجّه بكتابه إلى جمهورة القراء ، فإنه - على عادة كثرين من المؤلفين أصحاب الاختصاص - كان ينسى أحياناً جمهورة القراء الذين يهتمون بالموضوعات الوصفية التي تداعب الخيال وحده ، ثم يدخل في شيء من تفاصيل البراهين والحساب . وخطر لي أن أنقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية فاستأذنت المؤلف والناشر في ذلك فإذاً لي بعد شروط وفِيتُ لهما بها . ثم أني وفِيتُ ذلك الكتاب حقَّةً من العناية - قدر المستطاع - بال نقاط العلمية وبالصطلاحات الفنية .

نقلت هذا الكتاب وأنا في المصيف ، في بلدة مرتفعة جافة الهواء صافية السماء ، فكنت كلما نقلت شيئاً من الكتاب رفعت في الليالي بصرى إلى السماء أحاول أن أرى فيها موقع النجوم وحركاتها وألوانها وهياكل مجموعاتها أو عناقيدها . لقد تخيل الإنسان منذ أقدم الأزمنة نجوماً تشاهد في رأي العين متقدلةً معاً من مكان إلى مكان في أنحاء السماء ، بين ساعةٍ وساعةٍ من الليل ، وبين ليلة وليلة من ليالي الفصول ، وبين فصل وفصل من فصول

العام . لقد تراءأت تلك العناقيد من النجوم لعين الإنسان القديم على صور الحيوانات من الوحش والطير ، كالأسد والنسر والسمكة وعلى صور الأشياء كالميزان والدلـو . ومع أن معظم النجوم التي تبدو كذلك إنما هي نجوم متفرقة في طبقات السماء مختلفة الخصائص مستقلة بعضها عن بعض ، فإنـا لا نزال ننظر إليها على أنها أفرادٌ من أسرٍ معينة تحرـك حركـات جـماعـية وتسـلـك سـلوـكاً واحدـاً . ولكنـ العلم ، معـ الأـسـف ، لا يـسـتـطـعـ أنـ يـحـلـ مكانـ الـخـرـافـةـ منـ عـقـولـ النـاسـ !

ثم انتهيت من نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية فكأنـي اكتسبـتـ نـشاـطاً جـديـداً وجـلـوتـ عنـ خـاطـري صـدـاً كانـ قد رـسـبـ فيـهـ مـعـ الأـيـامـ مـعـ مـعـانـاةـ الأـدـبـ وـالـفـلـسـفـةـ وـالـتـارـيخـ .

* * *

وإذا كانت مطالعاتي في كتب العلوم الطبيعية والرياضيات مطالعات آنية متقطعة ، فإن مطالعاتي في القاموس مطالعات دائمة مستمرة . فكثيراً ما أذهب إلى القاموس لأرى صيغة من جذر أو معنى لصيغة فاستمر في القراءة مقدار صفحة أو أكثر . وفي أحيان كثيرة أتناول قاموساً من رف القواميس - قاموساً عربياً أو غير عربي - فأقرأ فيه . ويحدث عند قراءتي للقاموس غير العربي مثل ما يحدث في قراءتي للقاموس العربي : معانٍ تبعـُدـ فيـ الاستـعـمالـ عـمـاـ نـأـلـفـهـ كثيراً أو قليلاً ، ثم فوائدٌ تاريخية وثقافية واجتماعية تكشفها الكلمة بعد الكلمة . إن القراءة في القاموس لا تسـرـدـ لنا تاريخ الكلمات فحسب ، بل تـكـشـفـ لناـ أيـضاًـ عنـ منـحـىـ التـفـكـيرـ فيـ الـأـمـةـ التي

نتكلّم باللسان الذي نقرأ في قاموسه . وفي القاموس كلمات قد تقصّ علينا تاريخاً لا تقصّه كتب التاريخ :

يرى نفر من الذين يُعانون الكتابة في تاريخ الأدب العربي أنَّ المتّبِّي كان ابنَ رجُلٍ فقيرٍ يَسْقِي الماء في الكوفة ، ثمَّ يَبْيَنُون على ذلك صفحاتٍ من الخيال الجامِع ، ذلك لأنَّهم يَرَوْن - فيما يَرَوْن من أخبار الأدب - أنَّ والدَ المتّبِّي كان يُدعى عبدان السِّقاء ، مع أنَّ هؤلاء يكونون قد ذكروا في مطلعِ مقالاتهم أنَّ المتّبِّي هو أحمد بنُ الحسين ، ومع ذلك فهم يقبلون روایة مضعوفة أو موضوعة بأنَّ والدَ المتّبِّي اسمُه عبدان ! ولو أنَّ المتّبِّي كان ابنَ سقاء أو ابنَ نجَارٍ أو ابنَ حَذَاء أو مجھولَ النسبِ مرّةً واحدة ، لما استحقَ ذلك من هؤلاء الكاتبين مثلَ تلك المناقشة أو المحاورة ، فإنَّ العبرية ليست وقفاً على الأنساب - وإنْ كان للأنساب في بعض الأحيان أثرٌ من الوراثة في العبرية - . وبعدُ ، فلماذا يكونُ السقاء والنَّجار والحداء غيرَ سامي المقام عندَ الناس إذا هو استطاعَ أنْ يُنشئَ ابنَه تنشئةً صالحة أو أنْ يجعلَ منه شاعراً كالمتّبِّي ؟

وكنت مرّةً أطالعُ في القاموس المُحيط للفيروزابادي - وهذا التفصيل في اسم القاموس للذين لا يحبون الرجوع إلى القواميس - فمررتُ عَرَضاً بهذه الكلمات (١ : ٣٢٠ ، رأس الصفحة) : « وعبدان السِّقاء » « لقب والدِ أحمد بنِ الحُسين المتّبِّي » .

أنا لا أريدُ أنْ أبنيَ على هذه الجملة صرُواحًا كتلك التي بناها غيري على جملة « يَسْقِي الماء في الكوفة » ، ولكنني أريدُ أنْ أقول إنَّ هذه الجملة في القاموس تفسّح مجالاً لتقريرِ أمر يرى فيه بعضُ

الدارسين مشكلة . ثم إننا إذا رجعنا إلى فلسفة المطالعة في القاموس عرَفنا من هذه الجملة أن والد المتبنّى كان طويلاً دقيق الساقين وليس في ذلك دليلٌ على فقر أو غنىٍ ولا على دناءة أصلٍ أو رفعة نسب ، ولكن فيها وصفاً جسِيًّاً لوالد المتبنّى لو أثنا بحثنا عنه في كتب التاريخ وكتب التراجم لما وجدهناه . ثم أليس من فضل المطالعة في القاموس أن حلَّتْ لنا مُشكلاً ثائرةً بزيادةٍ نُقطةٍ تحت الكلمة !

* * *

ونحن نقولُ اليوم آنسةٌ ونعني : « فتاةٌ صغيرة السن مهذبةٌ مصونة » ، والذي في القاموس خلاف ذلك . في القاموس (٢ : ١٩٨) : « جاريةٌ آنسةٌ طيبة النفس والأنس ». (والأنس هو السماح بالمعابثة دون الزواج) . وبيتُ عترةٍ واضح المعنى : دارٌ لأنسٍ غضيضٍ طرُفُها طُوع العناق لذيدةٌ المتبسِم . ومثل ذلك - وأوضح منه أيضاً - يردُ عند عبيد بن الأبرص وعنده غيره من شعراء الجاهلية . ولا تزالُ اللُّغة العاميَّة في العراق تحفظ في قولهم « نتونس » معنىًّا غير عفيف .

وفي جذر « قصر » معانٍ مختلفةٌ يجمع القاموس بعضها إلى بعض . والأصح أنْ توزع هذه المعاني بين جذورٍ مختلفةٍ (تقارب في اللفظ) . فمن المعاني المنطوية في الجذر « ق ص ر » : القصرُ ضد الطول (مادياً ومعنىًّا) ، وهذا معنىًّا عربيًّا . ثم هنالك القصر ، أي تحويرُ الثياب (تبييضها) باستعمال موادٍ كيماويةٍ تجعلُ اللون (في النسيج خاصةً) أبيضَ ناصعاً (وهو عربيًّا أيضاً) . ثم هنالك القصر ، وهو بناءٌ كبيرٌ من حجارة (كالقلعة) ، وهو بهذا المعنى من

اللاتينية *castra* انتقل إلى العربية منذ الجاهلية . والكلام على تطور الكلمة قصرٌ في اللغة العربية يحتاج إلى مقالٍ مستقلٍ^(١) .

والدين في القاموس هو العادة . كذلك كان المعنى القديم والشاهد على ذلك قول الشاعر - وكان إذا غضب من امرأته أدار لها وضيئه (والوضيئ في الأصل *حزام* ، ثم مكان ربط *الحزام* ، ثم جانب الإنسان) :

تقول إذا أدرت لها وضيئي : أهذا دينه أبداً ودينني !
(أهذا عادي وعادته : كلما غضب مني أشباح عني بوجهه ؟) . ولا يزال أهل حوران إذا استغربوا أمراً أو أردوا معرفة كُنه سألوا : شو دينو (ما دينه ؟ ما هو ، ما سلوكه ؟) .

والدين أيضاً هو الحكم والقضاء ، ولكن لا يفهم بهذا المعنى إلا في قولنا : « يوم الدين » (الآخرة) . وبيت الدين (مكان المحكمة) بلدة في لبنان ورثت اسمها من التاريخ القديم .

وأما الدين بمعنى الاعتقاد والتبعُّد على الحاضر فمعنى إسلامي جاء في القرآن الكريم .

والكتاب (معنى الورق المكتوب *المجلد*) معنى إسلامي أيضاً جاء في القرآن الكريم . أما كلمة « كتاب » في الجاهلية فكانت مصدراً بمعنى « الكتابة » . وأما الورقة المكتوبة فكان اسمها في الجاهلية « صحفة » . وصحفية المتلمس مشهورة : زعموا أن

(١) راجع « الحضارة الإنسانية وقسط العرب فيها » للمؤلف (عام ١٩٧٨) ص ٨ - ١٠ : (عام ١٩٨٠) .

عَمْرٌ وَبْنَ هِنْدَ مَلِكَ الْحِيرَةَ كَتَبَ لِطَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ وَخَالِهِ الْمُتَلَمِّسِ إِلَى
الْمُكَعِّبِ عَامِلِهِ عَلَى الْبَحْرَيْنِ وَأَوْهَمُهُمَا أَنَّ فِي الصَّحِيفَةِ أَمْرًا لَهُمَا بِجَائِزَةِ ،
بَيْنَا هُوَ قَدْ أَمْرَ فِيهِمَا عَامِلُهُ بِقَتْلِهِمَا . وَكَانَ الْكِتَابُ يُسَمَّى زَبُورًا
(وَالْجَمْعُ مِنْهُ : زَبُورٌ بِضَمْتَيْنِ) . وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْكَلْمَةُ فِي الْقُرْآنِ
الْكَرِيمِ : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزَّبُورِ » (أَيْ مُوْجَدٌ فِي كِتَابٍ ،
مُسَجَّلٌ عَلَيْهِمْ) ، كَمَا وَرَدَتْ فِي مَعْلَقَةِ لَبَنِيْدِ . وَكَذَلِكَ وَرَدَتْ كَلِمَةُ
كِتَابٍ « مَصْدِرًا » فِي كِتَابِ الْبَخَلَاءِ لِلْجَاحِظِ عَنْدَ رَوَايَةِ قِصَّةِ أَبِي
جَعْفَرِ الطَّرْسُوْسِيِّ الَّذِي زَارَ قَوْمًا فَأَكْرَمُوهُ وَوَضَعُوا فِي لِحَيْتِهِ وَشَارِبِيهِ
غَالِيَةً (عَطْرًا) . فَحَكَّتْهُ شَفَّةُ الْعُلِيَا فَمَدَ إِصْبَعَهُ إِلَى باطْنِ شَفَّتِهِ
وَحَكَّهَا مِنَ الدَّاخِلِ خَافَةً أَنْ تَأْخُذَ إِصْبَعَهُ شَيْئًا مِنَ الْغَالِيَةِ إِذَا هُوَ حَكَّ
شَفَّتَهُ مِنَ الْخَارِجِ . وَيُعْلَقُ الْجَاحِظُ عَلَى هَذِهِ الْقِصَّةِ بِقَوْلِهِ : « وَهَذَا
وَشَبِهُهُ إِنَّمَا يَطِيبُ جِدًا إِذَا رَأَيْتَ الْحَكَايَةَ بِعَيْنِكَ ، لَأَنَّ الْكِتَابَ لَا
يُصُورُ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَأْتِي لَكَ عَلَى كُنْهِهِ وَعَلَى حَدُودِهِ وَحَقَائِقِهِ » .

وَفِي الْمَغْرِبِ يَقُولُونَ الْيَوْمَ : « سَانِيَةٌ » لِلْجَنِينَةِ أَوْ لِلْحَدِيقَةِ أَوْ
لِلْمَكَانِ الْمَزْرُوعِ الَّذِي يُسْقَى بِمَاءٍ يَسْتَخْرُجُ مِنْ باطْنِ الْأَرْضِ .
وَالسَّانِيَةُ فِي الأُصْلِ النَّاقَةُ الَّتِي تُدِيرُ النَّاعُورَةَ لِإِخْرَاجِ المَاءِ أَوِ الْغَرْبُ
(الْدَّلْوُ) الَّذِي تُسْقِى الْزَّرْوَعَ بِهِ . ثُمَّ نُقلَ اسْمُ « السَّانِيَةِ » إِلَى الْبَئْرِ
الَّتِي تُسْقِى الْجَنِينَةَ مِنْهَا ثُمَّ إِلَى الْجَنِينَةِ نَفْسِهَا .

وَالْوَاقِعُ أَنَّ كُلَّ كَلْمَةٍ فِي الْقَامُوسِ تَقْصُصُ قِصَّةً طَوِيلَةً أَوْ قَصِيرَةً
وَتَصْوِرُ حَضَارَةً وَتَرْسِيمًّا صُورَةً اِجْتِمَاعِيَّةً أَوْ ذَهْنِيَّةً .

وَمُعْظَمُ النَّاسِ إِذَا حَيَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَالُوا : صَبَّاحُ الْخَيْرِ أَوْ
مَسَاءُ الْخَيْرِ ! وَالرَّدُّ عَلَى هَذِهِ التَّحْيَةِ هُوَ : صَبَّاحُ النُّورِ - مَسَاءُ النُّورِ .

وهذه التحية هي التحية الم蛟سة . يعتقد المjosوس بقوتين : الخير والشرّ يمثلهما النور والظلمة . وللمjosوس إله للخير أو النور وإله للشرّ أو الظلمة ، وهما يتنازعان السيطرة على العالم . فكان من المعقول أن يُحيي بعض المjosوس بعضاً بقولهم : صباح الخير - صباح النور ! ومع أن الإسلام قد أمر بأن تأخذ تحية الإسلام « السلام عليكم » مكان كل تحية أخرى ، فلا يزال العرب في معظمهم - من المسلمين ومن غير المسلمين - يتداولون التحية بقولهم : صباح الخير - صباح النور ! لو أحب أحدنا أن يتناول كل كلمة ويقصّ تاريخها لما انتهى أبداً . فلا بدّ من الاكتفاء بما تقدّم .

إن القراءة في القاموس مفيدة جدّاً ثم هي طريقة أيضاً . ولكن الناس العاديين لم يألفوا ذلك . ولعل الناشرين إذا طبعوا القاموس أجزاء صغيرة - كقصبة عنترة مثلاً - وجعلوا هذه الأجزاء الصغيرة أغلفة مزينة بصورة ملونة ، تهافت جمهور الناس على مطالعتها . ألا ترى الناس إذا كتبنا لهم عن « ترك الثار في القرى » حديثاً يستغرق ثلاثة دقائق أو أربعًا لم يقرأوا هذا الحديث ولا مالوا إلى سماعه من الإذاعة . فإذا نحن جعلنا هذا الحديث نفسه في تمثيلية وجعلنا تلك التمثيلية حلقاتٍ تُذاع خمسين مرّة ، في كل مرّة نصف ساعة ، واظبوا على الاستماع إليها وانتظروا موعد هذه التمثيلية من اليوم إلى اليوم ومن الأسبوع إلى الأسبوع - وعطلوا في سبيل ذلك أعمالهم - وأضفوا إلى جميع حلقاتها بسوق زائد واهتمام بالغ ؟

لقد قلت إنهم يُصغون إلى التمثيلية ، ولم أقل إنهم يستفعون بها أو يُدرِكون الغاية منها .

المدارك القديمية في اللغة

شُفِّفَ الباحثون والإخباريون على السواء بالكلام على اللغة التي تكلّمها الإنسان الأول ، وإذا نحن أحبّينا أن تكون أكثرَ تواضعاً وأحسنَ شعوراً بعجزنا عن الخوض في هذا الموضوع الواسع ، فَصَرْنَا محاوِلَتَنا على أن نتلمس عدداً من الألفاظ القديمة التي كان الإنسان القديم يُنْطِق بها . ولكنْ بما أن الإنسان قد بدأ يخرج في التعبير عن مقاصده من الأصوات المُبْهَمَة إلى الأصوات الفصيحة منذ خمسٍ مائة ألف عام - ثم لم يبدأ بتدوين تلك الألفاظ إلا من نحو خمسة آلاف عام أو تزيد قليلاً - فلا سبيلَ اليوم إلى معرفة اللغة التي كانت أداءً التعبير الجامعه لذلك الإنسان الأول ، إن صحَّ شيءٌ من هذا ، ولا إلى معرفة الجماعة البشرية الحاضرة التي تتكلم لغة هي أقربُ اللغات إلى لغة الإنسان الأول . وبما أنني الآن لست بسبيلِ الفَصْلِ في المشكلة الناشبة بين القائلين برَدَ اللغات البشرية إلى أصلٍ واحدٍ ، والقائلين برَدَها إلى أصولٍ تختلف باختلاف منازلِ

* بحث ألقى في مجمع اللغة العربية (القاهرة) في ثامن ذي القعدة من سنة ١٣٨٥ (٢٨/٢/١٩٦٦ م).

الجماعات التي بدأت بالنطق **مُستَقِلاً** بعضاً عن بعض ، فسألتني بالكلام على عددٍ من الألفاظ التي يمكن أن تكون قديةً في تاريخ اللغة ، من غير إصرارٍ على أن تكون تلك الألفاظ جزءاً من اللغة الأولى للإنسان .

لابد لنا ، في سبيل الوصول إلى شيءٍ من الحق في هذه القضية ، من اعتماد أساسٍ هو اتصال التطور في النطق الإنساني منذ الإنسان الأول إلى اليوم ، إذ لا يجوز أن يكون ثمة جماعات بشرية قد نسيت لغاتها في يومٍ ما ثم بدأت تتكلم لغاتٍ أخرى في اليوم التالي . فلا مفرّ إذن من الافتراض افتراضًا يشبه الجزم : إن كل جماعةٍ بشرية حاضرة قد ورثت لغتها عن المتكلم الأول من البشر وراثةً متصلةً مرفوعةً أو وراثةً متخلخلةً مقطوعةً ، إذ يتفق أن تنتقل جماعةٌ صغيرة إلى موطنٍ جديدٍ فتتّخذ لغةً ذلك الموطن الجديد .

هذا الأساس المعقول - أي اتصال التطور في النطق الإنساني يحل مشكلة العصبية اللغوية . وهي اعتقادٌ كل أمّة أن لغتها هي اللغة الأصلية التي تكلّمتها البشر ، قال بذلك العرب والعجم ، ثم قالت به شعوبٌ حديثةٌ في تاريخ الحضارة الإنسانية . فإذا نحن أقرّنا لكل أمّة بشيءٍ من اتصال النطق اللغوي باللغة القديمة أو اللغات القديمة كثيراً أو قليلاً ، لم يبق لنا معدى عن القبول بأنّ في كل لغة حاضرة بقايا من لغة الإنسان الأول أو من اللغة القديمة على الأقل . فهل من سبيل إلى هذه البقايا أو إلى معرفة جانبٍ منها ؟

وإذا لم يقبل نفّر من أن تكون الشواؤ في اللغة ، في الألفاظ المجردة وفي الصيغ المشتقة بقايا من لغة الإنسان القديمة ،

فلعلهم يقبلون أن يكون جانبٌ من تلك الألفاظ الشاذة أقدم في تاريخ التطور اللغوي من الألفاظ الجارية على القواعد الحاضرة . فالصيغة الباقية في الفعل المتصل بالضمير المتحرك « مددتُ » مثلاً أقدم من الصيغة المجردة « مدّ » بالإدغام . فالعربي إذن يجب أن يكون قد قال مَدَّ فلان يده قبل أن قال مدّ فلان يده ، لأنَّ « مَدَّ » جارية على المنهاج العام للفعل الثلاثي ، بينما مدّ قد خضعت لصناعة وتأمل ليسا من طبيعة الفطرة . وكذلك يجب أن يكون العربي قد قال الجُمل الفعلية : « نَوْمَ فلان وَثَوَرَ فلان وَسَيَرَ فلان وَخَوْفَ (بكسر الواو) فلان » قبل أن قال : « نَامَ فلان وَثَارَ فلان وَسَارَ فلان وَخَافَ فلان » . فالإعلال والإبدال والإدغام التي يجعلها علماء اللغة أبواباً من الصرف وقواعد في فقه اللغة ليست في حقيقتها سوى تسمياتٍ متأخرةٍ لأنواع من بقايا اللغة القديمة أحالتها الموسيقى اللفظية عن النطق السابق بها إلى النطق الحاضر على مِنْوَالٍ مُعَيَّنٍ أو على مِنْوَالٍ غَيْرِ معينٍ . فإذا كان على هذا الشاذ أمثلة كثيرة ، كما نرى في بار ودار ونام أو في عَدْ ومرّ وقلّ ، كان الإعلال فيه والإبدال والإدغام على منهجٍ مُعَيَّنٍ . أما إذا كانت الشواهد على ذلك الشاذ قليلة أو نادرةً يبقى ذلك الشاذ شاذًا من غير أن يفتح له علماء اللغة باباً في كتب الصرف والنحو ، ولكنهم يُعدّون هذا الشاذ صحيحاً . من ذلك مثلاً أنهم قالوا : لم يأتِ في الجمع المُكَسَّر شيءٌ على وزن أفعُل (بضم العين) مُعْتَلًا ولا صحيحًا ، إلا الأعمُم (بضم العين) جمع العم وهو أخوه الأب (تاج ٨ : ٤٠٩ ، السطر الأخير) . ومثل ذلك قول الراجز : « الحمد لله العلي الأجل » (تاج ٧ : ٢٦١) ، مكان الأجل . فإذا نحن قيلنا

أن تكون لفظة أعمّ جمعاً لعَمْ خطأ سُمع من فردٍ من العرب فإن لفظة «الأجلل» يجب أن تمثل طوراً سابقاً في النطق العربي على «أجل». فالعربي يحب أن يكون قد قال : الأحِبُ والأجَدُ والأمَرُ والأجَلُ والأقلُ قبل أن قال الأحِبُ والأجَدُ والأمَرُ والأجلُ والأقلُ ، ولعله انتقل إلى قول «الأجل والأقل» بكثرة دَوَرَانِهما على الألسن من الحاجة إلى معناهما قبل أن انتقل إلى الأجد و الأمر ، فاللسان العربي العامي لا يزال يألف أجدد إلى جانب أجد أكثر من ألفته لصيغة أقلل .

من عادة علماء اللغة في مثل هذه البحوث أن يقتصرُوا ميدانَ نظرهم على الألفاظ ؛ ومنهم من يُضيق ميدانَ هذا النظر فيتناولُ الأصواتَ فقط . أما الألفاظ فلا تصلحُ أبداً ميداناً لمثل هذا النظر ، إذ ليس في الألفاظ التي نَعْرِفُها اليومَ ما يمكن أن يقوم الدليلُ على أنه الألفاظ الأولى للمعنى المقصودة . ليس لدينا اليومَ ألفاظاً لمعانٍ حقيقيٍ ، إن كل لفظ لدينا قد أصبح يدلُّ على معنىًّا مجازيًّا منذ زمنٍ سحيقٍ ، ثم تعددت الإشارةُ به في تاريخنا اللغوي الطويل إلى عددٍ من المعاني المجازية مما ذكرته القواميسُ ومما لم تذكره القواميس . فاعتُمادُ الألفاظِ إذن عند البحث في تاريخ الكلماتِ ليس أساساً صالحاً أبداً .

ومثل ذلك الأصوات ، فليس بين الأصوات والمعنى التي تدلُّ عليها تلك الأصوات صلةٌ طبيعيةٌ ولا صلةٌ عقليةٌ البتة ، فالألماني يقول شبایت Spät للذلة على التأثر ، بينما يأتي الألباني من أبناء البلقان بالصوت نفسه للبحث على السرعة .

والإنكليزي يأتي بالحرف *of* علامة على الإضافة بينما الهولندي قريب الإنكليزي الأدنى يعني بذلك الحرف عينه «أو». والعرب يقول «نور» للدلالة على المصدر الأصلي للضياء ، واللفظ نفسه في الألمانية معناه «فقط». واللفظ «وو» في الصينية يعني العدد خمسة ، أما في الإنكليزية فيدل على الحُزن . فالآصوات والألفاظ تكتسب دلالاتها في الواقع من قرائن اجتماعية تختلف باختلاف الجماعات البشرية وباختلاف حاجات تلك الجماعات ، ثم لا يثبت النطق بهذه الألفاظ على حالِ البتة .

من أجل ذلك كله أرى أنَّ اعتماد المدارك ، أي المقاصد الذهنية العامة ، أجدى وأصحُّ عند البحث في تطور اللغة وفي معرفة تقدُّم بعضِ الألفاظ على بعض في الزمن .

إن اللفظ يتبع المدرك ويأتي بعده ضرورة ، فالالأصل في اللغة المدرك الذهني ثم يأتي الإنسان بالصوت أو باللفظ الذي يعبر فيه عن ذلك المدرك . وجميع المدارك الذهنية اجتماعية نشأت من صلة الإنسان بما حوله ويمتن حوله . والإنسان لم يتكلم ، أي لم يأت بالألفاظ الفصيحة الدالة على مقاصده الفكريَّة ، إلا بعد أن شعر بالحاجة إلى التعبير عما كان يجول في نفسه تجاه كائن آخر مثله . والمفروض أن هذا الكائن كان في أول الأمر واحداً ، ولنفرض - على سبيل التخييل والتجربة - أن هذا الكائن الآخر الواحد كان المرأة . فإذا صَحَّ هذا الافتراض فالصوت الإنساني الأول يجب أن يكون «ت». هذا الصوت اكتسب في الملابسة الاجتماعية التي نشأت من التقاء شخصين متشاربين مدركاً أساسياً

واحداً اتصل به مدرَكٌ آخرٌ لازمٌ له ثم مدرَكٌ ثانٍ عارضٌ . فالمدرَكُ الأساسيُّ هو الخطابُ الذي خلَعَ على ذلك الصوتِ الأول دلالةً على الشخص المُخاطبِ ثم جعل منه ما يسميه علماء الصرف والنحو « ضمير المُخاطب ». أما المدرَكُ الآخرُ اللازمُ عن المدرَك الأساسيِّ الأول فهو الدلالةُ على العددِ « آثنينِ » لأن التثنية حال ملزمةٌ للخطاب . ثم يبرُرُ المدرَكُ العارضُ ، وهو الدلالةُ على الأنثى ، إذا قيلنا أنَّ الانفعالَ الأول كان في خطابِ الرجلِ للمرأة - مما هو مشاهدٌ في السلوك الاجتماعي والغريزي بين أفرادِ الإنساني وبين أفرادِ الحيوان الراقي .

إن التاء المهموسة التي يرسمها العربُ اليوم بثلاثِ نقطٍ من فوقها أو التاء الواضحة التي ترسمها بنقطتين من فوقها - والشكلُ الأولُ في ظني أسبقُ على الشكل الثاني في النشأة على لسان الإنسان - كان الصوتُ الأول في الاجتماع الإنساني دالاً على المدرَك الأساسيِّ من المدارك الثلاثة المتصلة في النشأة : أنت ، آثنينِ ، أنثى . ولعل هذا الصوت « ت » هو أقدمُ البقايا اللغوية في الكلام الإنساني ، ولعل نشأة هذا المداركِ الثلاثة كانت على الترتيبِ الذي ذكرتُ : أنت ، اثنينِ ، أنثى . هذا الصوتُ الذي تأرجحَ على لسان البشر بين اللُّيونة والصلابة والهمس والصفير المعتدل (ت ، ث ، ذ ، س) لا يزال الصوت الأساسيُّ الدال على المدرَكين الأولين : أنت ، اثنينِ ، في مُعظم اللغاتِ ، حتى في اللُّغاتِ التي لا تعي الذاكرةُ الإنسانية اليوم أنها اتصلتُ في يومٍ من الأيام . إن التاء هي الصوتُ الأساسي في ضمير المُخاطبِ في

اللغات الأعرابية* (أنت ، أت ، الخ) وفي اللاتينية وما يشتق منها (تو) وفي اليابانية أيضاً (أناتا) والروسية (تي) وفي الفارسية (تو) أما في اللغات الجرمانية فالأصل في ضمير الخطاب الدال ، في الألمانية والدنماركية والأسوغية والنروجية (دو) .

وكذلك الصوت «ت» (وفي العربية الفصحى «ث») هو الأساس في العدد «اثنين» . ومثل ذلك في اللغات الجرمانية : في الدنماركية والأسوغية والنروجية والهولندية والإإنكليزية (وفي الألمانية تجتمع التاء بحرف صغير هو الزاي أو السين (التاء المهموسة) ، وهذه التاء ملموحةً أيضاً في اليابانية : فتا (بسكون الفاء) . وأما في اليونانية واللاتينية وما اتصل بهما فالدال هي الصوت الأساسي في العدد اثنين .

ويحسن أن نلاحظ أن الصوت الأساسي في العدد «اثنين» في اللغات الجرمانية هو الذي يدل على المخاطب في اللغات المشتقة من اللاتينية ، بينما العكس صحيحً أيضاً ، أي أن الصوت الذي يدل على الخطاب في اللغات الجرمانية هو الذي يدل على الاثنين في اللغات الرومانية المتحدرة من اللاتينية . واللغة الفارسية كاللغات الجرمانية ، التاء فيها للخطاب والدال للعدد ، مع أن المفروض أن اللغة الفارسية أمُ اللغات الجرمانية واللاتينية أو من أمهاهات تلك اللغات على الأقل . فإذا جاز لي إبداء ملاحظة على هذه اللغات كما جرأت وأبديت عدداً من

* إن الاصطلاح «أعرابي» يجب أن يحل محل الاصطلاح الخاطئ «سامي» إن الشعوب التي سُمّوها خطأ «سامية» ليست وحدة لغوية ولا وحدة عرقية .

الملحوظات على اللغة العربية قُلتْ : إن جَدَّةَ اللِّغَةِ الْجِرْمَانِيَّةِ وجَدَّةُ اللِّغَةِ الْلَّاتِينِيَّةِ قدِ انفصلتا في زَمْنٍ متَقدِّمٍ جِدًا قَبْلَ أَنْ تَتَضَعَّ فِيهِمَا الدَّلَالَةُ عَلَى الْمُخَاطَبِ وَعَلَى الْعَدْدِ « اثْنَيْنِ » .

ولما اتَّفَقَ لِلإِنْسَانِ الْقَدِيمِ هَذَا الصَّوْتُ الرَّقِيقُ وَاضْحَاهُ أوْ مَهْمُوسًا أوْ قَاسِيًّا (تَ) لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْصِّلَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ فِي الْخُطَابِ ، ثُمَّ احْتَاجَ إِلَى التَّعْبِيرِ عَنْ شَعُورِهِ تجَاهَ الطَّبِيعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَبَهَّرُ بِعَظَمَتِهَا وَسُلْطَانَهَا فَيُرِي نَفْسَهُ عَاجِزًا مَسْلُوبَ الْقُوَى حِيَالَهَا ، كَانَ مِنَ الْمُمْتَنَرِ لِإِبْرَازِ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَدَرَكَيْنِ بِالْمُقَابَلَةِ أَنْ يَكُونَ الصَّوْتُ لِلتَّعْبِيرِ عَنْ مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ فَخَمًّا وَاضْحَاهًا فَكَانَ « الرَّاءُ » . إِنَّ فِي الصَّوْتِ « رَ » خَاصَّةً الْفَخَامَةَ وَالتَّكَرَارَ وَالْاسْتِمرَارَ ، فَلَمْ يَكُنْ مُسْتَعْبِدًا أَنْ يُعْبِرَ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ الْقَدِيمُ بِالصَّوْتِ « رَ » عَنْ مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ الْجَامِدَةِ وَالْحَيَّةِ فَتَكُونُ الْأَلْفَاظُ الدَّالَّةُ عَلَى تِلْكَ الْمَظَاهِرِ الطَّبِيعِيَّةِ ، وَفِي اللِّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُمْثَلَةُ لِلْلُّغَاتِ الْأَعْرَابِيَّةِ أَوْ مُمْثَلَةُ لِلْلُّغَاتِ الْأَعْرَابِيَّةِ مَا ثَبَّتَ فِيهَا الرَّاءُ . فَمِنَ الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ فِي اللِّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَلَى غَيْرِ تَصْنِيفٍ تَارِيْخِيٍّ ، وَعَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ فِي دَرَجَةِ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ : أَرْضُ ، تُرَابُ ، رَمْلُ ، حَجَرُ ، صَخْرُ ، بَرُّ ، بَحْرُ ، قَطْرُ ، (بَسْكُونُ الطَّاءِ : مَطَرُ ، أَوْ مَقَاطِعَةُ ، قِطْعَةُ مِنَ الْأَرْضِ) ، نَهْرُ ، بَئْرُ ، رَعْدُ ، بَرْقُ ، مَطَرُ ، بَرْدُ (بِفَتْحِ فَتْحِ) ، بَرْدُ (بِسْكُونِ الرَّاءِ) ، قَرَّ ، حَرَّ ، رَمْضَانُ ، رَمْضَانُ (الْحَرَّ) ، نَاجِرُ (الصِّيفِ) ، رَبِيعُ ، خَرِيفُ ، شَرْقُ ، غَربُ ، شَجَرُ ، وَرَقُ ، زَهْرُ ، ثَمَرُ ، بَزَرُ ، طَيْرُ ، الْخَ . وَإِذَا نَحْنُ آتَفَنَا إِلَى اللِّغَاتِ الْأَجْنبِيَّةِ وَجَدْنَا لِهَذِهِ الرَّاءِ أَيْضًا بُرُوزًا فِي الْأَلْفَاظِ الدَّالَّةِ عَلَى مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ . عَلَى أَنْ ثَمَّةَ مَظَاهِرًا أَصِيلَةً فِي الطَّبِيعَةِ لَا تُعْبِرُ عَنْهَا الْيَوْمَ

بكلمات فيها صوت الراء ، فَيُغلِّبُ على الظنَّ أنَّ الألفاظ التي دلتُ
على تلك المظاهر أولاً قد تبدَّلتْ في أثناء تاريخنا اللغويِّ بعوامل
مُخْتَلِفة .

وهنالك صِنفان من المدارك يجب أن يكونا قدِيمَيْن في تاريخ
اللُّغة الإنسانية : الألفاظ الجنسية والألفاظ الدالة على القرابات .
أما الألفاظ الجنسية الكثيرة في اللغة العربية فلا نستطيع اليوم أن
نُرتبُها ترتيباً تاريخياً بالإضافة إلى سائر الكلام ، وإنْ كنا على مثل
اليقين بأنها قديمة جداً . وكذلك لا نستطيع لها ترتيباً تاريخياً
إضافة بعضها إلى بعض ، وسبُب ذلك أنَّ الإنسان قد أرادَ منذ فجر
الحضارة الراقية أن يسترَّ حياته الجنسية فكان يُكثِّر التَّنَقُّل في الكلام
عليها من مجازٍ إلى مجازٍ ومن كِنايةٍ إلى كِنايةٍ حتى ضاعت علينا
معالمُ التاريخ في تلك المدارك الجنسية والألفاظ الدالة عليها .
وأحسبُ أنَّ هنالك لفظين قدِيمَيْن جداً أحدهما « زَيْن » بمعنى
« الآلة » ، ولعلَّه هو الذي أوحى إلى الكاتبين الأوليين بأن يرسموا
حرف الزاي (خَطَّاً مائلاً) في الأبجدية الأعرابية وبأن يرسموا الواحدَ
على ما نَأْلَفُ . ومع ذلك فالغالبُ أنَّ هذا الأسمَّ كِنايةً أيضاً . . . وأما
الكلمة الثانية المشهورة فليست عَرَبِيَّةً في الأغلب ولا أعرابية ، بل
دخيلةً من اللغة اليونانية من كَلِمَة دَالَّةٌ على الحُبِّ والجنس وعلى
إله الحب عند الإغريق ، وقد انتقلتْ هذه الكلمة إلى اللغات
الأوروبية لتُدَلِّلَ عند أهل تلك اللغات على « الغَزَلَ » في قولنا شعر
الغَزَلَ مثلاً .

أما ألفاظ القرابات فأكثرَ وضوحاً ، وخصوصاً في مَذْرَكِي

الأبّة والأمّة ، في هذا الباب من البحث . ففي لفظ «أب» دلائل كثيرة على مدرك الأبّة والالفاظ الدالة عليه قديمة جداً . من ذلك أن «أب» من الأسماء الخمسة ، أي بقية من العهد الذي كانت فيه علامات الإعراب أحرفٌ علةٌ مُلتصقة بالكلمة . ومن هذه الدلائل كثرة الصيغ التي لا يزالُ القاموسُ يحفظها في تراكيب النداء والدعاة . ففي النداء : يا أبـتـ (بكسر التاء ويفتحها) يا أبـتـاـهـ (بالهاء) ، يا أبـأـةـ (بالباء) ، يا أبـهـ (بسكون الهاء) ، ثم في الدعاء : لـابـ لكـ ، لا أـبـ لكـ ، لا أـبـاكـ ، لا أـبـكـ . ولا ريب في أن هذه صيغ مختلفة من عصور مختلفة أو من قبائل مختلفة ، ولكنها لا تكون من قبائل مختلفة حتى تكون من عصور مختلفة ، فكل قبيلة تنفصل من أصلِ الأمة تحفظ عادةً بطُور اللغة كما كان يوم انفصلتِ القبيلة من أصلها . ولعلَ «لـابـ لكـ» أقدمُ الصيغ لأن صوتَ الباء وحده قد عَبَرَ هنا عن مدركِ الأبّة (راجع تاجِ العروس ١٠ : ٥ ، السطر ١٧) ، وإن كان صاحبُ تاجِ العروس قد قال : وحذفوا الهمزة ، ولعلَ الأصوب أن يقال : ولما تدخلَ الهمزةُ عليها (بـعـدـ) .

ثم هنالك جمع «أب» على «أبون» جمعاً مذكراً سالماً وعلى «آباء» جمع تكسير ، وتأنثِكَ صيغتان من زَمَنَينِ مختلفين يبدو أن الجمع السالم فيهما أقدمُ الجمعين . وأخيراً تأتي المدارك المختلفة في الجذر الواحد ، ففي «أب» مداركُ من الرّضاع ، وشمُ العَزْر لـأنـثـاءـ ، والبُعولةـ (إنـ أـبـاـ المـرـأـةـ زـوـجـهـاـ) وذلك كله من الدلالة على القدم في الكلمات .

ومجازاتُ الأم أكثرُ من مجازاتِ الأب . فأمُ الشيءِ أصلُه ، والأمُ الوالدة أو الجدةُ وما فوقها في النسب . ومن صيغ الأمَ القديمة الأمَة . ولذلك جاء جمع الأم على أمَات وجمع الأمَة على أمَهات . أما تخصيصُ الأولى بالإنسان والثانية بالحيوان فتطورٌ متأخرٌ؛ ففي تاج العروس (٩ : ٣٧٦ ، السطر ١٩) ؛ « وقد جاءت الأمَهاتُ في ما لا يعقلُ ». والغالبُ أن الدعاء ويُلْمه ! أقدم صيغ الدُّعاء لأنَ الميم وحدها هنا هي التي تدلُّ على مدرك الأم بينما « ويُلْ » و« الهاء » كُلِمتان دخلتا على اللفظة المؤلفة من حرف واحد من طريق الإضافة . (ويحسن أن نذكر أن في مادة « أم » في القاموس كَلِماتٍ تسرَّبت إلى تلك المادة من جذور مُبَهِّمة قديمة قد نُسِيت خصائصُها) .

ومثل « أب » في الحكم أو أكثرُ أوجهها « أخ » فإن فيها دلالةً من طورِ أسبق لم يحصل إلينا مثيلها مع كلمة « أب » تلك الدلالة هي تأنيثُ الاسم المذكور « أخ » بالناء المبسوطة (أخت) ، وإن قال القاموس المحيط (٤ : ٢٩٨) إن الناء هنا ليست للتأنيث .

والكلام على أب وأخ يحملنا إلى بقية الأسماء الخمسة أو الأسماء الستة ثم إلى الكلمات التي يجب أن تكون تابعةً لها مثل عبد وفضلو . وقد ذكرنا من قبل أن هذه الألفاظ بقية من العهد الذي كانت فيه علاماتُ الإعراب أحرفٌ علية مُلْصقة بالكلمات . أما في « عمرو » فالواو تُكتب اليوم ولا تُلفظ . هذه الواو في « عمرو » ليست للتفريق الشكلي بين عمرو وعمر ، وإن ذكر القاموس أنها للتفريق بين الاسمين (تاج ٣ : ٤٢٣ ، السطر ٩) ؛ بل هي علامة الرفع القديمة ثبتت في الخط .

والمعقول أن تكون المدارك الأولى في اللغة مدارك عامة .
أما الخصائص (درجات المعنى في المدرك الواحد) فلا شك في أنها تطورٌ متأخر . إن تخيل الإنسان للقطع عاماً يجب أن يكون أقدم من تخيل الفروق بين أنواع القطع من التشريح (تعریض القطعة من اللحم حتى ترق فتراها تشف من الرقة) والحسْم (قطع العِرْق وكَبَه بالنار كيلا يسْيَل دُمُه) والقصْب (قطع القصاب للشاة عُضواً عضواً) والبْتَك (قطع الأذن) والبْتَر (قطع الذنب) والفصل (قطع الرقبة) . كل هذه المدارك المتقاربة في القطع يجب أن تكون متأخرة النشأة في خيال الإنسان عن مدارك القطع عاماً ، لأن التخصيص في أنواع القطع يأتي مع التفْنِ والتأنق ، وهذه كلُّها من توابع التطور في الحضارة .

ثم إن مُعْظَم هذه الألفاظ الدالة على أنواع القطع قد تكون قدية ، وقد يكون بعضها أقدم من اللفظ الذي جعلته لغتنا العصرية الفصيحة معنى عاماً : أي « قطع ». غير أنني أشير هنا إلى نشأة المدارك ولا أشير أبداً إلى الألفاظ التي اتفق أن أطلقت على تلك المدارك بعد أن نشأت ، سواءً كانت تلك الألفاظ ألفاظاً قدية أطلقت فيما بعد على مدارك حديثة أو ألفاظاً استجدّها النطق الإنساني لتلك المدارك . من أجل ذلك قلتُ في مطلع مقالتي إن النظر إلى الألفاظ لا يُجدي للفصل في تقدُّم بعض الكلمات على بعضٍ في تاريخ اللغة .

وهنالك نوع آخر من الكلمات العامة والخاصة .

من هذه الكلمات الجَوْن . والجُون في القاموس (٤) :

٢١١ ، راجع تاج العروس) لفظ يتعلّق باللون على غير تخصيص ، إذ يدل على النبات إذا بدأ يَحُولُ من الخُضرة إلى السَّواد ، كما يُدْلِّ على الأسود والأبيض فيكون بذلك من الأصداد (تاج ٩ : ١٦٧ ، السطر ٧) وعلى الأحمر الخالص وعلى المُشَرَّب بحُمرة . ولعل أقدم المدارك في لفظة « جُون » اغبرارُ الأشياء التي تُرى على بُعدٍ مُعيَنٍ في النور المحيط بها ، أي كل كثافة تُرى ظاهراً بالإضافة إلى ما حولها من البياض أو النور . ففي تاج العروس : الجن ما له غَبَشَةً أو وَرْدَةً (٩ : ١٦٨ ، السطر ١٩ ، راجع ٩ : ١٦٧ ، السطر ٣ من أسفل) ، وفي السطر الرابع من أسفل على الصفحة نفسها مثل على ذلك : « كلَّ بعيِّنْ جُونَ من بعيد ، وكل حمارٍ وحشِيٍّ جون من بعيد » .

إذا نحن انتقلنا إلى القاموس الآرامي وجدنا أن الكلمة « جون » ، بالجيم القديمة ، تقابلُ كلمة « لون » فحسبُ ، بينما الكلمة العربية تدل على معنىًّا أعمًّا وأكثر إبهاماً ، فهي من أجل ذلك أقدمُ في تاريخ المدارك اللغوية من الكلمة الآرامية . والعبرية لا تعرف من هذا الجذر إلا اسم المفعول « جوني » مصبوغ . وفي الكلدانية نجدُ من هذا الجذر صيغة ثلاثية متعددة في مقابل « صبغ : لون » .

ثم تكون لفظة « جون » العربية في لغتنا العربية نفسُها أقدم من الكلمة أبيض وكلمة أسود الدالتين على لونين مخصوصين ، وإن كان علمُ الفيزياء الحديث لا يُعدُّ الأبيض والأسود في الألوان .

ونأتي إلى اللفظين أسود وأبيض : إن المدرك الذهني

«أسود» يجب أن يكون ، في التعبير اللغوي على الأقل ، أقدم من المدرك أبيض لأنه أعم منه في الدلالة وأكثر منه إبهاما . ولا ريب عندنا في أن المنطق يقضي بأن يتمثل الذهن البشري اللون الأبيض قبل أن يميز منه ، وبالإضافة إليه ، لونا آخر . ولكن الذي أعنيه أن الإنسان العربي - فيما أحسب - قد احتاج إلى أن يعبر بالُّون عن اللون غير الأبيض قبل أن احتاج إلى التعبير عن اللون الأبيض نفسه . إن لفظ «أسود» ورث لفظ «جون» وخلفه في الدلالة والاستعمال خلافة تامة في المدرك الأساسي ، فالسوداد هو الشخص يُرى من بعيد (تاج العروس ٢ : ٣٨٥ ، السطر ٣) والعدد الكثير من الناس ، وجماعة النخل والشجر لخضرته واسوداده (تاج ٢ : ٣٨٦ السطر ٨ من أسفل) . أي لخضرة النخل والشجر واسودادهما إذا رأيا عن بُعد .

وإذا سُئل عن الأساس الذي قدمت به لفظ «جون» في العهد على لفظ «أسود» مع أنهما يدلان - فيما يدلان عليه - على مدركٍ أساسٍ واحدٍ ، أجبت بما يلي : لا يعقل أن يكون الإنسان القديم قد أوجَد لفظين اثنين لمعنى واحدٍ في زمنٍ واحدٍ . وبما أن اللفظين موجودان في القاموس فلا بد من أن يكون أحدهما أقدم من الآخر . وبما أن لفظ «جون» قد قل في الاستعمال في زمن متقدِّم أو كاد ، بينما استعمال لفظ «أسود» قد اتسع ، قدرت أن لفظ «جون» يجب أن يكون في الاستعمال اللغوي أقدم عهداً .

ويبدو أن العربي ظل يستعمل لفظ «أسود» للدلالة على

الشيء الكثيف مهما يكن لونه ، جَرِيًّا على الاستعمال الأول . فالأسودان في القاموس (تاج ٢ : ٣٨٦ ، السطر ٧ من أسفل ٣٨٧ السطر الأول) التمُّر واللبنُ أو الماءُ واللبنُ أو الماءُ والفَتَ . والفت (بالفتح) : ضرب من الْبَقْلِ يُختَبِرْ فِيؤَكِلُ . وفي القاموس المحيط (١ : ١٧١) : الفت . نبتٌ يُختَبِرْ حَبَّه في الجَدْبَ ، وشجَرُ الحنظل . وكذلك يُقال « الأسودُ » للأحمر (راجع تاج ٢ : ٣٨٦ ، السطر ٥ من أسفل) لأن اللون الذي نُسَمِّيه نحن اليوم « أحمر » قد قال له العرب الأولون « أبيض » ، أو هو من الأضداد (تاج ٢ : ٣٨٦ ، السطر ٢١) ، قال صاحب تاج العروس (٣ : ١٥٤ ، السطر ٢٢ وما بعده) : « إن العرب لا تقولُ أَبِيضاً لبياض اللون ، إنما الأَبِيضاً عندهم الطاهرُ النقيُّ ، فإذا أرادوا الأَبِيضاً قالوا : الأَحْمَرُ » ، والعرب تصفُ ألوانها بالسواد وألوان العجم بالحُمرة (تاج ٢ : ١٨ ، السطر الأول) ، ومنه في الحديث : يا حُمِيراء - وخذُوا نصفَ دينكم عن هذه الْحُمِيراء ، يعني البيضاء - أي عائشة رَضِيَ الله عنها (تاج ٣ : ١٥٤ ، السطر ٢٤) .

ومن الكلمات العامة والخاصة لفظ « جَلَلٌ » وهو الأمرُ العظيمُ والصغيرُ ، من الأضداد (تاج ٧ : ٢٥٩ ، السطر ٧ من أسفل) . ويبدو لي أن هذه الكلمة ، تمثل صيغةً من الألفاظ كان يُنطقُ بها بالجيم القديمة ، ثم آنحلتْ فيها تلك الجيمُ القديمة حرفين : الجيمَ المُعطشة التي تُنْطَقُ نحنُ بها اليوم في الحواضر ، ثم القافَ مفخمةً أو مُرفقةً (كاما) فكلمة « جَلَلٌ » التي ثبَتَتْ فيها الجيم معطشةً (جليل) قد احتفظتْ بالمعنى الدالٌّ على العِظم والكثرة حقيقةً ومجازاً ومادياً ومعنوياً . أما التي أصبحتْ جيمُها

القديمة البدوية قافاً (قليل ، كليل) أو كافاً فقد اختصت بالقلة والصغر . والغالب على معاني الصيغ المشتقة من هذا الجذر في اللغات الأعرابية العظم والثقل والحجم الكبير والجلال . وعلى هذا يكون مدرك الكثرة والثقل في الجذر « جل » أقدم من مدرك القلة والصغر .

وفي هذا الصنف من الكلمات العامة والخاصة « هلك » ، في القاموس : « هلك » من باب ضرب (يضرِّب) ومنع (يمْنَعُ) وعلم (يعلَمُ) . ونحن نرى في هذا الفعل في اللغات الأعرابية مدركاً أساسياً واحداً هو الذهاب ثم مدركاً فرعياً هو السير أو المشي . ويبدو أن هذا الفعل قد استعمل في العبرية مجازاً بمعنى الغيبة عن النظر وبمعنى تفرق السحاب ، ثم مجازاً من مجاز بمعنى الهلاك . ومجازات هذا الفعل في الآرامية أيضاً متسعة .

وانتقل هذا الفعل إلى العربية يحمل المعنى المجازي (الموت) ولكنه حمل معه اضطراب عين الفعل . إذا كان معنى هذا الفعل « هلك » ذهب ، سار ، مضى ، فالأقرب إلى أن يكون من باب ضرب يضرِّب ، وإذا نحن أخذنا في النظر إلى حرف الهاء وأنها حرف حلق (مع أنها جاءت في أول الفعل) فيمكن أن نتسائل ونقبل أن يكون هذا الفعل من باب منع يمْنَع . ولكن ما الوجه في قول القاموس إن هذا الفعل من باب علم يعلَم أيضاً ؟

لما انتقل هذا الفعل إلى اللغة العربية انتقل إليها من المجاز (بمعنى هلك : مات) ، ولكنه حمل معه الحركة الأصلية لعين الفعل بمعنى ذهب فكان من باب ضرب يضرِّب ، وعليه في التزيل

الكريم : « لِيَهْلَكَ مِنْ هَلْكَ عَنْ بَيْتَنَا » (٨ : ٤١ ، سورة الأنفال). غير أنَّ العربيَّ القديم تناول هذا الفعل من باب ضرب يضرِّب . ومع الأيام غمضت روایة هذا الفعل في الذاكرة العربية فأخذت جماعاتٌ تفتح عين الفعل (لَمْ هَلَكْ) في الماضي والمضارع لمكان الهاء ، وهي حرفٌ حلقيٌّ يقتضي أحياناً فتح عين الفعل (مع أنَّ الهاء في « هَلَكَ » جاءت متطرفة أولاً) . وعلى ذلك أصبح هذا الفعل من باب منع يمنع أيضاً . ثم نظرت جماعة أخرى في معنى الفعل (الانتقال من حالٍ إلى حال) ، وهذا يقتضي جرِّياً على القاعدة العامة أن تكون عين الفعل مكسورةً في الماضي مفتوحةً في المضارع ، ففعلت تلك الجماعة ذلك فأصبح هذا الفعل من باب عَلِمَ يَعْلَمُ أيضاً . وجاء جماعو اللغة فوجدوا أحوازاً العين الثلاث مرويَّةً فوضعوها في القاموس . غير أنَّ الرواية الأوسع والأثبت كانت الرواية التي عليها التنزيل (هَلَكَ يَهْلَكَ من باب ضرب يضرِّب) . من أجل ذلك قال صاحبُ تاج العروس (٧ : ١٩٤ ، السطر ١٠ وما بعده) : وقيل (أي في مجيء « هَلَكَ » من باب منع وعَلِمَ) غلطٌ !

ثم خضع هذا الفعل « هَلَكَ » لتطور آخر . إن « هَلَكَ » في الأعرابية القديمة لازمٌ ومتعدٌ ، قال (القاموس) : هَلَكَ بمعنى سار وبمعنى سير (بالتضعيف للتعددية) . ولذلك قال العربيُّ الأول ، لما أخذَ هذا الفعل عن إخوانه الأعرابيين : هَلَكَ الرجل (بمعنى مات) وهَلَكَني الرجل (بمعنى أتعبني ، أماتني ، قتلتني) . وفي تاج العروس (٧ : ١٩٤ ، السطر ١٠ من أسفل) عن رُؤبة بن العجاج يُقال : هَلَكَني بمعنى أهلَكَني ، ولا يزالُ العوامُ إلى اليوم

يقولون كذلك . ويبدو أن الذائقة العربية حرصت على آخر اراد القاعدة فأبانت للفعل اللازم صيغة فعل (هَلَكَ الرجل) ونقلت المعنى المتعدي إلى صيغة أفعل مزيداً بالهمزة (أهْلَكَ الله الطالمين) .

بعدئذ خضع هذا الفعل لتطور ثالث : كان معنى الفعل « هَلَكَ » في كلام العربي القديم « مات » ، ثم أصبح معناه « مات بِيَتَة سَيِّئَة » ، جاء في تاج العروس (٧ : ١٩٤) ، السطر ١٠ وما بعده ثم السطر ٢٤ وما بعده) : هَلَكَ : مات ، واحتضانه بِيَتَة السوء عُرِفَ طارئ لا يعتد به بدليل ما لا يُحصى من الآيات والأحاديث . ولطروع هذا العُرف قال الشهاب في شرح الشفاء : إنه يُمنع إطلاقه (أي استعمال الفعل « هَلَكَ » بمعنى مات) في حق الأنبياء عليهم السلام : ولا يعتد بأصل اللغة القديمة .

أما الأسس التي اتخذتها في تقديم بعض المدارك اللغوية والألفاظ الدالة عليها على بعض فائب أن أجمعها موجزة في ما يلي :

- ١ - اتصال التطور اللغوي في النطق كثيراً أو قليلاً ، فكل لغة محاكية اليوم أو مكتوبة تتصل بلغة قديمة ضاعت اليوم .
- ٢ - لا نعرف اليوم اللغة التي تكلمتها الإنسان الأول ، ولكننا نستطيع أن نعرف أن بعض المعاني كان أقدم من بعض في خيال الإنسان القديم ، وأن بعض الألفاظ كان أقدم من بعض على لسان الإنسان القديم .

٣ - يُتَّسِّعُ مِمَّا تَقْدِمُ أَنْ فِي كُلِّ لُغَةِ الْيَوْمِ بَقِيَّةً مِنِ الْلُّغَةِ الْقَدِيمَةِ أَوِ الْلُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ لِلْبَشَرِ .

٤ - إِنَّ مَا نُسَمِّيهِ الْيَوْمِ شَوَادًّا فِي الْلُّغَةِ إِنَّمَا هُوَ بَقَائِيَا مِنِ الْلُّغَةِ الْقَدِيمَةِ ، وَهَذِهِ الَّتِي نُسَمِّيهَا شَوَادًّا أَقْدَمُ عَهْدًا مِنَ الْأَلْفَاظِ الْجَارِيَّةِ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْحَاضِرَةِ .

٥ - الإِعْلَالُ وَالْإِبْدَالُ وَالْإِدْغَامُ وَالتَّضَعِيفُ أَحْوَالٌ طَارِئَةٌ عَلَى الْلُّسَانِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَقَدْ كَانَ الصِّيَغُ الَّتِي نُسَمِّيهَا الْيَوْمَ مُعْتَلَةً وَمُضْعَفَةً تَجْرِي مَجْرِي صِيَغِ الْأَفْعَالِ السَّالِمَةِ ، فَإِنَّ صِيَغًا مُثْلًا : مَدَّ ، أَجْلَلَ ، سَيَرَ ، أَقْدَمُ عَهْدًا مِنَ الصِّيَغِ الَّتِي نَسْتَعْمِلُهَا الْيَوْمَ : مَدَ ، أَجْلَلَ ، سَارَ .

٦ - إِنَّ آعْتِمَادَ الصُّورَةِ الْذَّهَنِيَّةِ فِي تَارِيخِ الْكَلِمَاتِ أَجْدَى مِنْ آعْتِمَادِ الْأَلْفَاظِ وَالْأَصْوَاتِ .

٧ - إِنَّ تَعْدُدَ الْمَدَارِكِ الْمُتَبَاينَةِ أَوِ الْمُتَفَاوِتَةِ فِي الْجِذْرِ الْوَاحِدِ دَلِيلٌ عَلَى قَدْمِ ذَلِكِ الْجِذْرِ .

٨ - عُمُومُ الْمَعْنَى وَإِبْهَامُهُ دَلِيلٌ عَلَى قَدْمِ الْلَّفْظِ الدَّالِّ عَلَيْهِ . أَمَّا الْخَصَائِصُ فِي الْلُّغَةِ فَهِيَ مِنْ طُورِ مَتَأْخِرٍ مُتَعَلِّقٍ بِتَطْوُرِ حَاجَاتِ الْإِنْسَانِ وَبِتَأْثِيقِهِ فِي التَّعْبِيرِ عَمَّا كَانَ فِي خَيَالِهِ .

٩ - يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَكْثَرُ الصِّيَغِ اخْتَصَارًا أَقْدَمُهَا عَهْدًا . وَالصِّيَغُ الطَّوِيلَةُ : تَنَزَّهُ ، اسْتَقْدَمُ ، اخْضُوضُرُ ، يَجِبُ أَنْ تَكُونَ قَدْ زَادَتْ فِيهَا الْأَحْرُفُ فِيمَا بَعْدُ حِينَما بَدَأَ الْعَرَبِيُّ (أَوِ الْأَعْرَابِيُّ) يَتوَسَّعُ فِي أَسْبَابِ الْحَضَارَةِ وَفِي التَّعْبِيرِ عَنِ أَسْبَابِ الْحَضَارَةِ . وَلَا

شك في أن العربي قد لجأ إلى النحو فطالب بذلك الكلمات القديمة على لسانه في مثل «تلاشى» ومثل «تمسكن» وتمسّك وتمتنع . ولا ريب في أن تنازع اللغويين في تأرجح «وتمرّجح» وأمثالهما إنما هو خلاف في تعليل نشأة هذه الألفاظ .

١٠ - يبدو أن جميع الكلمات العربية كانت مثل الأسماء الخمسة تُعرَب بالحروف . أما الأسماء الخمسة أو الأسماء السبعة وما يلحق بها فهي بقايا من طور إعراب الكلمات بالأحرف . وإن لفظة مثل «فمَوْيِهِمَا» في قول الفرزدق : «هَمَا تَفَلَّا فِي فِيْ مِنْ فَمَوْيِهِمَا» تدلّ على الطور الذي بدأ فيه اللسان العربي يخرج بالأسماء من الإعراب بالحركات إلى الإعراب بالحروف . هذه اللفظة تدل على الطورين معاً . ثم إن هذه اللفظة قد تقصّ علينا تاريخاً جديداً : تدلّ على أن «فَمُو» كانت في عهد قريب للفرزدق لا تزال كلمة تتبع قاعدة الأسماء الخمسة .

١١ - إن خروج الكلمة من الاستعمال وحلول غيرها مكانها يدلّان على أن الكلمة التي خرجت أقدم عهداً ، إذ تدلان على أن المدرك الذهني المتعلق بهما قديم وأنه خرج من لفظ كثير العموم والإبهام إلى لفظ أكثر خصوصاً ووضحاً .

١٢ - إن الجذور التي تجمّع مدارك ذهنية مختلفة تدل على أحد شيئاً : إما أن تكون من طور كانت الكلمات فيه تدلّ على معانٍ عامة مُبهمة ، وإما أن معانيها احتاطت بمعانٍ لجذور قاربتها في اللفظ في أثناء التطور الذي خضع له النطق العربي أو النطق الأعرابي .

١٣ - لعل « التاء » قد بدأت علامه على التخاطب ثم على العدد آثنين ثم الى الأثنى ؛ ولعلها أقدم الألفاظ التي وصلت إلينا من اللغات الأعربية ومن اللغات الآرية . ويلي هذه التاء في القديم مُعظم الكلمات المتصلة بمظاهر الطبيعة ، والتي نجدُ في حروفها صوت « الراء » .

١٤ - إن الكلمات التي دلت على المدارك الجنسية يجب أن تكون قديمةً جداً ، غير أن التعبير عن المعاني الجنسية كان يجري دائمًا في مجازاتٍ تتبدل في أوقاتٍ متقاربة ، كلما شعر الإنسان أن المجاز الذي استعمله قد قارب أن يُصبح لفظاً حقيقياً دالاً دلالة واضحةً على ما يريد هو أن يتكلم عليه من طرفٍ خفيٍ . ويلحق بالألفاظ الجنسية الكلمات الدالة على القرابات . ولعل الكلمة « هنو » التي يجوز إعرابها بالحروف وبالحركات مُحضرمة تمثل دور الانتقال من طور إعراب الأسماء بالحروف إلى طور إعراب الأسماء بالحركات وتقوم دليلاً على أن جميع الأسماء في العربية الأولى كانت تُعرب بالحروف .

التعقيبات

الدكتور محمد مهدي علام : بقطع النظر عن رأي الأستاذ المحاضر في الكلمتين « عبده » و « عمرو » ، فإن كل ما جاء خلاف ذلك من آراءه الاجتهادية جدير بالنظر والدراسة ويفتح باباً في فقه اللغة . وكل ما أرجوه فوق شُكري له هو الإشارة التي أشار إليها وهي أن قدامى اللغويين كانوا مكتفين في ألفاظ الجنس بالكتابية

والنُّورِيَّةِ ويتجلّبون ذِكْرَهَا صَرَاحَةً . وقد تأدب الأستاذ المحاضر بتأديبهم فلم يذكر لنا شيئاً منها وجعلنا نفهم ما يرمِّزُ له بالتخمين والاستنتاج . وأقول إن استعمالنا لكلماتي «الألفاظ الجنسية» هو من باب الكنایة ويسير إلى المعانى الحديثة التي يستخدمها الكتاب المُحدثون .

الأستاذ محمد بهجة الأثري : نحن هنا في مجمع اللغة العربية وفي اجتماع علَمِيٍّ ، أرى أن لا حياة في أن يُسمَّى الأستاذ المحاضر الأشياء بأسمائها . إن كل كتب اللغة العربية تُدَلِّ على حيوية خاصة عند العرب ، فإذا أخذنا «القاموس المحيط» مثلاً ، فإننا لا نكاد نُمَرَّ بصفحة منه حتى نَجِدُ الكثيَّرَ من الألفاظ التي تجنبُ الأستاذ المحاضر ذِكْرَها . فلماذا يحرِّمُ علينا ذلك ؟ نحن في سبيل بحثٍ علميٍّ وهذه الألفاظ التي تَعَرَّضُ لها إنما نريدُ بها الاستنارة في البحث .

الدكتور محمد كامل حسين : قال المرحوم الأستاذ العقاد لا حياة في الأدب ، ويقول الأستاذ الآن لا حياة في اللغة ، فما الشيء الذي يَبْقِي الحياة فيه ؟ ورأيَي أنه لا ضرورة لِذِكْرِها .

عن بِرَادِ الْمُكَوِّلِ لِلْقَطْلُوْنِ

ما زِلتُ أعتقد أن القاموس العربي ليس قاموساً فحسب ، بل هو قاموسٌ ، أي قائمة للألفاظ اللغوية ، وموسعة تاريخية ، وصورة للحضارة ، وصحيفة للعلم ، وكتاب في علم النفس .
وكنتُ في أثناء قراءاتي المتكررة للقاموس - وأعني بالقاموس هنا « القاموس المحيط » للفيروزابادي^(۱) - أستغرب كثرة الألفاظ الجنسية ، حتى خُيلَ إلىَّ أنه لا تخلو مادة من مواد القاموس العربي من لفظ جنسي دالٌ على إِسْمٍ أو فَعْلٍ أو حَالٍ لِذلِكِ الجانِبِ من حياة البشر وحياة الحيوان .

كان قد لقت نظريُّ ورودُ جملة في كتاب « فقه اللغة للتعاليٰ »^(۲) هي : لعل أسماء النكاح تبلغ مائةَ كَلِمَةٍ عن ثُقَاتِ الأئمَّةِ ، بعضُها أصلٍ وبعضُها مُكْنِيٌّ » .

* ألقى هذا البحث في الجلسة الثالثة من الدورة السابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية (القاهرة) ، من ذي الحجّة إلى المحرّم ۱۳۹۰ - ۱۳۹۱ (فبراير / شباط - مارس / آذار ۱۹۷۱ م) .

(۱) الطبعة الثانية بالمطبعة الحسينية بمصر ، ۱۳۴۴ هـ .

(۲) مطبعة السعادة بمصر ۱۳۴۱ هـ - ۱۹۲۳ م ، ص ۱۸۰ .

وعددتُ أنا الألفاظ المتعلقة بهذا المدرك في القاموس فوجدتها تزيد على ألفٍ ومائتين ، منها في فعل الإنسان وحده - وفي الجزء الأول من القاموس فقط - سبعون لفظاً على الأقل .

وحاولت تعليلاً لهذه الكثرة فكان أول ما خطر بيالي أن يكون القاموس قد جمَع هذه الألفاظ الكثيرة من لهجات القبائل ، ولكن سرعان ما بان لي أنَّ الكثرة الغالبة من هذه الألفاظ من الفصيح المأثور وليس فيها شيءٌ من الغريب الذي تسمى به لهجات القبائل عادةً .

وكذلك لم يستقم التعليل الذي يمكن أن يرد هذه الألفاظ إلى أنَّ العرب كانوا يحبون هذه الألفاظ لذاتها .

وضمتْ جملة التعالبي إلى عددٍ من الجمل الواردة في القاموس في هذا الباب ، فبان لي أنَّ جانباً كبيراً جداً من هذه الألفاظ هو من باب الكنية ، ولم أستطع أن أهتمي إلى لفظ منها أصلٌ أصيلٌ ، أي دالٌ على حقيقة لا على مجازٍ .

والانتقال بالمعنى من الألفاظ الحقيقة إلى الألفاظ المجازية جانبٌ من جوانب العبرية العربية في اللغة ، فإن اللفظ الواحد إذا استمرَ مدةً طويلةً في الدوران على الألسنة والأسماع فقد تأثرَ البلاغيَ فقدَ قيمته الاجتماعية .

من أجل ذلك كان العربي ينتقل باللفظ من مجازٍ أصبح مأولاً ضعيف التأثير إلى مجازٍ جديدٍ أحسن وقعًا في النفس وأحسنَ أثراً فيها .

غير أن الذي حدث في الألفاظ الجنسية كان خلاف ذلك تماماً.

كان العربي يُكتنِي عن المدرك الجنسي بلفظ مألف عموماً قليلاً الدلالة على ما قصد به إلا بين المخاطبين ؛ فإذا اشتهر هذا اللفظ ودلّ على ما كان يُكتنِي عنه صراحةً أستحبّها العربي من الاستمرار في استعماله ، فانتقل إلى كناية جديدةٍ غامضةٍ على غير المخاطبين .

من أجل ذلك - فيما أظن - كثُرت الألفاظ الجنسية في القاموس العربي هذه الكثرة . ولم تكن هذه الألفاظ من الكناية عن ذلك المدرك الفاظاً عامّة في جميع الأحوال بين جميع قبائل العرب ، بل كان منها أحياناً ما هو لفاظٌ خاصة بأصناف أو جماعات . ولعل عدداً من هذه الألفاظ يرجع سُكُها إلى أفراد أو إلى نفرٍ قليلين في بيوتٍ مخصوصة ؛ فلقد سمعت أنا مراراً للمعنى الجنسي صيغًا كثيرةً مشتقةً من جذورٍ فصيحةٍ مألفة ، ثم لم أجده هذه الصيغ لهذه المعاني في القاموس .

* * *

ولفت نظرِي في القاموس أمر آخر : صيغٌ فرادى طوال . والصيغة الفرد هي الصيغة التي ليس لها في القاموس أخت من جذرها ، نحو اقْعُنْصَر : تقاصر إلى الأرض (٢: ١٢) ، والقَفْنْزَعَة : المرأة القصيرة جداً (٣: ٧٢) ، والدَّعْشُوقة : القصيرة (٣: ٢٣١) ، والجَزْوَلَق : القصیر (٣: ٢٢١) ، والقَنْدُویل : العظيم الرأس (٤: ٣٦) .

إن كلَّ صيغةٍ من هذه الصيغِ وأمثالها هي الصيغةُ الوحيدة الواردة من جذرها في القاموس . ثم إن هذه الصيغَ تَدُلُّ في الغالب على أقطارِ الجسم - جسم الإنسان في الأغلب - كالطول والقصر والضخامة .

وتُكْشِفُ لنا هذه الصيغُ الفُرادِي الطوالي جانبًا آخرًا من خصائص اللغة العربية .

إن المعروف عن اللغة العربية أنها - مثلَ أخواتها الأعرابيات وبخلافِ اللغاتِ الآرية - لغةٌ اشتراقٌ لا لغةٌ نَحْتٌ . غيرَ أنَّ عدداً من هذه الصيغِ نَحْتٌ لا شكَّ في ذلك .

إن لفظة « جَلْبَلَق » مثلاً ، هي كما في القاموس : « حكاية صوت بابٍ ضَحْمٍ في حال فتحه وإصافته ، جلن على حِدَةٍ وبَلَقَ على حِدَةٍ (٣ : ٢١٨) . ثم أننا نجد في القاموس « بلق » جذرًا مستقلًا معناه « فتح الباب كُلَّه أو (فتحه) فتحاً شديداً وأغلقه » ، وهو من الأضداد (٣ : ٢١٥) . وكذلك نجد في القاموس « جلن » جذرًا مستقلًا معناه : « حكاية صوت باب ذي مصراعين يُرَدَّ أحدهما فيقول : جلن ، ويُرَدَّ الآخر فيقول : بلق (٤ : ٢١٠) . ومثل ذلك « الحيثلوط » ، وهو شتمٌ اخترعه النساء ولم يُفسِّروه (أي لم يَعْرِفِ العلماء معناه) . وكأن معناه : (المرأة) الكذابة السلاحنة (وهو) مركبٌ من حلط وحثط أو ثلط (٢ : ٣٥٣) .

ثم إن هذه الكلمة « الحيثلوط » تنقلنا إلى مدركٍ ثالثٍ من خصائص اللغة : إلى ارتجالِ الألفاظ ، وليس في ذلك ما

يُستَغْرِبُ . أليس عَمَلْنَا نحنُ هنا* أن نرتجل الألفاظ لآلاتٍ وأدواتٍ
وموادٍ ومداركَ لم تختُرْ في بالِ أسلافنا أو لم تكن مُسَمِّياتُها من
بطاق عالِيهِم ؟

غير أنَّ عَمَلَنَا هنا يختلفُ من عملِهِمْ هناكَ : نحن نجتمعُ
ونفكِّر ونناقِشُ ثم نَصْعُ لِلَّفْظَ ؛ وكان أحدهُمْ يَنْفَعِلُ وحدهُ فيجري
على لسانِهِ لَفْظَ ، فَيُصْبِحُ هَذَا الْلَّفْظُ جُزءاً مِنْ تُرَاثِنَا اللُّغُويِّ نُضِيفُهُ
إِلَى القاموسَ .

ولقد وَرَدَ في شِعْرِ أمِيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْتِ - إِذَا كَانَ لَهُ شِعْرٌ وَصَلَّ
إِلَيْنَا - أَلْفاظٌ غَرِيبَةُ كَالشِّينِقُورُ مثلاً ، فجاءَ في القاموسِ : الشِّينِقُورُ ،
هَكَذَا جَاءَ في شِعْرِ أمِيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْتِ ، وَلَمْ يَفْسُرُوهُ « أَيُّ لَمْ
يَعْرِفُوا مَعْنَاهُ » .

وَأَنَا إِلَآنَ لَا يُهْمِنِي أمِيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْتِ وَلَا ذَلِكَ الَّذِي يُمْكِنُ
أَنْ يَكُونَ قَدْ وَضَعَ شِعْرًا عَلَى لِسَانِ أمِيَّةَ بْنِ أبي الصَّلْتِ . وَلَكِنْ
إِهْتِمَامِي يَدُورُ عَلَى أَنَّ عُلَمَاءَ الْلُّغَةِ قدْ أَوْلَوْا هَذَا الْلَّفْظَ وَأَمْثَالَهُ عِنْيَةً
فَقَبِيلُوهُ وَقَبِيلُوهُ فِي كُتُبِ الْلُّغَةِ وَوَضَعُوا بِذَلِكَ قَاعِدَةَ لِسَكِ الْأَلْفاظِ .
وَإِذَا كَنَا نَحْنُ إِلَى الْيَوْمِ لَا نَزَالُ نُجَادِلُ فِي هَذِهِ الْأَلْفاظِ التِّي قَبِيلُوهُ
عُلَمَاءُ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ - لَأَنَّهَا أَمْثَلَةٌ تَحْتَمِلُ الْجِدَالَ - فَإِنَّا عَادَةً لَا
نُجَادِلُ فِي الْقَاعِدَةِ الْمُوْضِوَعَةِ . ثُمَّ إِنْ مِنَ الْكَلِمَاتِ التِّي تَرْبِطُ بَيْنَ
هَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَالْأَمْثَلَةِ عَلَيْهَا مَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِمْ فِي القاموسِ (٣ :
٦٦) عَيْنَ الْقَوْمِ تَعْيِيغاً : عَيْنُوا عَنْ أَمْرٍ قَصَدُوهُ . وَفِي كِتَابِ التَّصْرِيفِ

* في مجمع اللغة العربية .

(والكلامُ لا يزالُ من القاموسِ المحيطِ) عايَيْتَ عيَّاً ، ولم يُفسِّرُوه . وقال الأخفشُ : لا نظيرٌ له سوى حاجيت وهاهيت .

* * *

ولفتَ نظرِي في القاموسِ وروُدُ أسماءِ الشعراءِ . والقاموسُ في الأصلِ فهرِسٌ يُفسِّرُ ألفاظَ اللغةِ ، وليسَ من المُتَنَظَّرِ أن يكونَ كتاباً في تاريخِ الأدبِ . ولو أنَّ القاموسَ يكتفي بإيرادِ القابِ الشعراءِ مثلَ قوله : طَرَفَةُ لَقْبُ طَرَفَةِ بْنِ العَبْدِ واسْمُه عَمْرُو (٣ : ١٦٧) ، والخليلُ لقبُ الْحُسْنِي بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الضَّحَاكِ الشاعِرِ (٣ : ١٩) ، والبيَاعُ لقبُ أَبِي الفَرْجِ عَبْدِ الْواحِدِ بْنِ نَصْرِ الْمَخْزُومِيِّ الشاعِرِ (٣ : ١٠٣) ، كما يُثبِّتُ نُعوتُ السيفِ ونُعوتُ الأسدِ لجائزَ أن يكونَ ذلكَ كُلُّهُ من نِطاقِ القاموسِ .

ولكنْ حينما نقرأ في القاموسِ في مادةِ أَنْ ف (٣ : ١١٩) : « وأنفُ الناقةِ لقبُ جَعْفَرِ بْنِ قُرَيْبٍ أبو بَطْنِي من سَعْدِ بْنِ زِيدِ بْنِ مَنَّا لأنَّ أباها نَحَرَ جَزَورًا فقسَمَ بينَ نِسَائِهِ ، فبعثَتْ جَعْفَرَ أُمَّهُ ، وقدَ قَسَمَ (أبو جعفر) الجَزَورَ ولمْ يَبْقَ إِلَّا رَأْسُهَا وعُنْقُهَا فقالَ (لهُ أبوه) شائِنُكَ بِهِ . فَادْخَلَ (جَعْفَرَ) يَدَهُ فِي أَنْفِهَا وَجَعَلَ يَجْرِهَ فَلَقِبَ بِهِ . وكانَ (بنو جعفر) يغضِّبونَ مِنْ (هذا اللقبِ) . فلما مَدَحُوكُمُ الْحُطَيْثَةُ بِقولِهِ :

« قَوْمٌ هُمُ الْأَنْفُ ، وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ ؛ وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنَبَ ! صارَ اللقبُ مَدْحَأً ». فإنَّ هذهِ المَعْارِفَ تُصْبِحُ تابعةً للتَّارِيخِ ولِلأَدَبِ وَتَخْرُجُ مِنْ نِطاقِ القاموسِ .

ونقرأ في القاموسِ (١ : ٣٢٠) : « وعِيدانُ السقاءِ بالكسرِ

والدُّ أَحْمَدَ بْنُ الْحُسْنِ الْمُتَنبِّي » ، كَمَا نَقَرَ فِيهِ (٣٦ : ٣) : « وَسَبْعِينَ قَرِيَّةً بِحَلَبَ كَانَتْ إِقْطَاعًا لِلْمُتَنبِّي مِنْ سِيفِ الدُّولَةِ » فَنَلَوْمُ الفِيرُوزَابَادِيَّ عَلَى هَذَا الْاسْتِطْرَادِ الَّذِي لَيْسَ مِنْ نِطَاقِ الْقَامُوسِ . وَلَكَنَّا - مِنْ جَانِبِ آخَرَ - نَشْكُرُهُ لَأَنَّهُ حَلَّ لَنَا إِحْدَى الْمَشَاكِلِ الصَّغِيرَةِ فِي حَيَاةِ الْمُتَنبِّيِّ .

إِنَّ نَفَرًا مِنَ الدَّارِسِينَ قَدْ أَضَاعُوا وَقْتًا كَثِيرًا فِي أَمْرٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَضَيِّعٍ وَقَتِّ كَثِيرٍ لِمَا اخْتَلَفُوا فِي مَكَانَةِ أُسْرَةِ الْمُتَنبِّيِّ .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْمُتَنبِّي كَانَ مِنْ أُسْرَةِ وَضِيَعَةٍ ، وَكَانَ أَبُوهُ سَقَاءً لِلْمَاءِ فِي الْكُوفَةِ ، وَكَانَ يُدْعَى عَبْدَانَ السِّقَاءَ^(١) . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْمُتَنبِّي كَانَ ابْنَ أُسْرَةِ شَرِيفَةٍ ، بَدْلِيلٌ مَا وَرَدَ فِي بَعْضِ شِعْرِهِ مِنَ الْفَخْرِ وَالْتَّمَدُّحِ .

وَقَدْ يَكُونُ الْمُتَنبِّي ابْنَ أُسْرَةٍ مَشْهُورَةٍ أَوْ مَغْمُورَةٍ ؛ وَالْأَصْلُ الْمَشْهُورُ أَوْ الْمَغْمُورُ رُبَّمَا أَثْرَ عَلَى حَيَاةِ الْأَدِيبِ وَرَبِّمَا لَمْ يَؤْثِرْ . غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يُهِمُّنِي هُنَا أَنْ قِرَاءَةَ الْقَامُوسِ وَاسْتِطْرَادُ صَاحِبِ الْقَامُوسِ قَدْ حَلَّا لَنَا مَشْكُلَةً . إِنَّ الَّذِي رَأَعَمَ أَنَّ الْمُتَنبِّي كَانَ ابْنَ رَجُلٍ يُسَمَّى عَبْدَانَ السِّقَاءَ ، كَانَ يَسْقِي الْمَاءَ فِي الْكُوفَةِ لَا سَنَدَ لَهُ . فَالْمُجْمَعُ عَلَيْهِ أَنَّ وَالَّدَ الْمُتَنبِّي اسْمُهُ الْحُسْنِ لَا عَبْدَانَ . ثُمَّ إِنْ جُمْلَةُ الْفِيرُوزَابَادِيَّ فِي قَامُوسِهِ تَذَكَّرُ أَمْرًا مَعْقُولاً ، هُوَ أَنَّ وَالَّدَ الْمُتَنبِّي كَانَ يُلْقَبُ بِعَيْدَانَ السِّقَاءِ - وَلَعَلَّ سَاقِيَّهُ كَانَتَا طَوِيلَتَيْنِ تُشَبَّهَانِ قَوَائِمَ حَمَالَةِ جَرَارِ الْمَاءِ . وَبِيدِو أَنْ كَلْمَتِي عَبْدَانَ السِّقَاءِ تَصْحِيفٌ لِكَلِمَتِي عَيْدَانَ السِّقَاءِ تَصْحِيفًا غَيْرَ مَقْصُودٍ أَوْ مَقْصُودًا .

(١) راجع ، فَوقَ ، ص ٢٨ - ٢٩ .

هاتان القصتان : قصّة جعفر بن قريعٍ أنف الناقة ، وقصة عيدان السِّقاء . يجب أن تنتهيَا بنا إلى حُكْمٍ .

في التاريخ نوعان من المصادر : المصادر المقصودة ؛ كالوثائق الرسمية والكتب المؤلفة في التاريخ ، ثم المصادر المساعدة كدواوين الشعر والقاميس والكتب التي لم تؤلَّف في التاريخ ولكن ورَدَ فيها إشارات تاريخية عَرَضاً . وعندِي أن الوثائق الرسمية والكتب المؤلفة في التاريخ تأليفاً مقصوداً قد يتسرَّب إليها الخطأ سهواً أو عَمْداً . وكثيراً ما تأتي الوثائق الرسمية والإحصاءات الدوليَّة أبعدَ ما يكون البعُدُ عن الحقيقة والواقع ، فقد رأينا المأمون مثلاً يمحو اسم عبد الملك بن مروانَ عن قبة الصخرة في القدس ، ثم يُثبتُ اسْمَهُ هو مكانَ اسم عبد الملك . ولكن الذي قام بهذا العمل للمأمون كان غَيْرَه جدأً - أو كان ذَكِيًّا جداً - فترك التاريخ « سنة اثنين وسبعين » ، بلا تبديلٍ (أما المأمونُ فكان بعد ذلك بِمائةٍ وخمسين سنة) .

أما أصحابُ المصادر المساعدة ، كالشُعراء وواعضي القواميس من القدماء فإنهم يستطردون أحياناً إلى إشارات تاريخية عَقوًأ ومن غير أن يكونوا خاضعين لأحوالٍ مُعيَنة . وإذا جاز أن يخضع الشاعر في بعضِ شعره لمثل تلك الأحوال ، فإنَّ واضع القاموس يكون أقلَّ خُصوصاً لها . من أجل ذلك كانت المصادر المساعدة - والقاميس منها - ذاتَ قيمةٍ كبيرةٍ في دراسة تاريخ الحضارة وفي دراسة التاريخ السياسي أحياناً .

* * *

ولفت نظري أيضاً - في أثناء مطالعاتي في القاموس - وفرة الألفاظ الفلكية .

الألفاظ الفلكية تتناول كلَّ ما في الجو المحيط بالأرض التي نعيش عليها وكلَّ ما يحدث في هذا الجو : ونحن نقسام ذلك كله قسمين اثنين :

قسمًا يتناول الآثار العلمية أو الأحوال الجوية عامة ، كالحرارة والبرودة والرياح والأمطار والصواعق والثلج وقوس قزح وما يشبه ذلك ، ثم قسمًا يتعلق بالقمر والشمس وبسائر الكواكب والنجوم . وقد صرفت النظر في هذا المقال عن ألفاظ القسم الأول واكتفيت بالكلام على القسم الثاني .

ثم إن القسم الثاني نفسه ينقسم بدوره قسمين :

قسمًا يتناول الأحوال التي تتصل بالأجرام السماوية كطلعها وغروبها وبالطُّفاوة حول الشمس والهالة حول القمر وبالخسوف والكسوف وبالقِرَانات ، فصرفت النظر عن هذه كُلُّها لأنَّ هذه الأحوال أحوالٌ عارضةٌ تتبدى للإنسان الواقف على أرضنا وليس في الحقيقة من أحوال الأجرام السماوية على الحصر .

وفي القسم الأخير جانب يتعلق بأسماء الأجرام السماوية .

وقد جعلت همّي هنا هذا الجانب وحده .

غير أنني أحببت أن أسرد أولاً أسماء الأجرام السماوية التي وردت في القاموس المحيط منسورة على الأحرف الهجائية قبل أن أنظر في شيء من خصائص تلك الأسماء .

- أبو عذرها : نجم إذا طلع اشتد الحر (٢ : ٨٦) .
- الأبيض : كوكب في حاشية المجرة (٢ : ٣٢٥) .
- الأتافيّ : كواكب بخيال القدر (٣ : ١١٦) - راجع القدر .
- الأحور ؛ كوكب ؛ المشتري (٢ : ١٥) .
- الأخذ : نجوم الأخذ .
- الأذحيّ : منزل القمر (٤ : ٣٢٧) .
- الأزهر : القمر (٢ : ٤٣) .
- الأسد : راجع الزُّبرة .
- الأشرات : راجع الشَّرَطان .
- الأزهران : القمران ، أي الشمس والقمر (٢ : ٤٣) .
- الأظفار : كواكب قدام النسر (٢ : ٨١) .
- أظفار الذئبين : كواكب صغار قدام الذئبين (١ : ٦٧) -
(راجع الذئبان) .
- الأعزل : أحد السماسكيين (٤ : ١٥) - راجع السمك .
- أعلاط الدراري : الكواكب التي لا أسماء لها (٢ : ٣٧٤) .
- أعناء السماء : نواحيها (٤ : ٣٦٧) .
- الأعيار : كواكب رُهْرُ في مجرى قدمي سُهيل (٢ : ٩٨) .
- أفراد النجوم : النجوم التي تطلع في آفاق السماء (١ : ٣٢٢) - راجع فرود النجوم .
- الإكليل : منزل للقمر أربعة نجوم مصطفة (٤ : ٤٦) .
- إلهة : الهلال ؛ الشمس (٤ : ٢٨٠) . وسميت
- الشمس إلهة من « لاه » : علا وارتفع (٤ : ٢٩٢) .

أم النجوم : المجرة (٤ : ٧٦) .
أناهيد : الزُّهرة (١ : ١٦١) .
أنف الأسد = راجع النثرة .
الأنهار : العوَاء والسماك لكثره مائهما (٢ : ١٥٠) .
باب السماء = شَرْج السماء .
الباقور : القمر (١ : ٣٦٨) .
البادر = البدر .
البدر : القمر الممتلىء (١ : ٣٦٩) .
البرج : أحد بروج السماء (١ : ١٧٨) .
البرجيس : النجم ؛ المشتري (٢ : ٢٠٠) .
يرقع ويُرْفع : اسم للسماء السابعة أو الرابعة أو الأولى (٣ : ٤) .

بطن الحمل = الْبُطِين .
البطين : منزل للقمر ثلاثة كواكب صغار كأنها أثافي ، وهو
بطن الحمل (٤ : ٢٠٢) .
البلد : منزل للقمر (١ : ٢٧٨) .
البلدة : رقعة من السماء لا كواكب فيها بين النائم وسعد
الذابح (١ : ٢٧٨) .

بُلْعُ : منزل للقمر وهو نجمان مستويان في المجرى أحدهما
خفى والأخر مُضيء ، يُسمى بالعاً كأنه بلع الآخر (٣ : ٧) .
بنات نَعْشِ الصغرى : سبعة كواكب أربعة منها نَعْشُ وثلاث
بنات (راجع ٢ : ٢٩٠) ، والأول من بنات نعش الصغرى الذي
هو آخرها قائد الثاني عنانق وإلى جانبه قائد صغير وثانية عنانق

(كذا) وإلى جانبه الصَّيْدُقُ وهو السُّهْيُ ، والثالث الحَوْرُ (١) :
٣٣١ .

بنات نعش الكبرى : سبعة كواكب أربعة منها نعش وثلاث
بنات (٢) : ٢٩٠ .

بُوح : اسم الشمس (١) : ٢١٦ .
التحايا : كواكب صغيرة حِذاء الهنعة (٤) : ٣٢٢ .
تَحْيَاة مفرد التحايا (راجع الهنعة ٣ : ١٠٠ ، السطر ٦ من
أسفل) .

الثَّيْنَ : بياض خفي في السماء يكون جسده في ستة بروج
وذنه في البرج السابع دقين أسود فيه التواء وهو ينتقل تنقل الكواكب
الجواري (٤) : ٢٠٥ .

التوأم : متزل للجوزاء (٤) : ٨٢ .
توائم النجوم : ما تشابك منها (٤) : ٨٢ .
التياسان : نجمان (٢) : ٢٠٣ .
التيماء : نجوم الجوزاء (٤) : ٨٥ .
الثاقب : المرتفع على النجوم ؛ رُحل (١) : ٤٢ .
الثريَا (تصغير ثروى) : النجم^(١) لكثره كواكب مع ضيق
المحل (٤) : ٣٠٨)- راجع العيوق والفرددود .
الثور : برج في السماء (١) : ٣٨٣ - ٣٨٤ .
الجاربة : الشمس (٤) : ٣١٢) - راجع الجواري .
الجهة : متزل القمر ، القمر (٤) : ٢٨٢ .

(١) النجم : الثريا ، أي أن الثريا تعرف باسم النجم .

الجَدْيُ : الدائِرُ مَعَ بَنَاتِ نَعْشٍ ؛ الَّذِي بِلَزْقِ الدَّلْوِ ، بَرْجٌ لَا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ (٤ : ٣١١) .

الجَرِباءُ : النَّاحِيَةُ الَّتِي يَدْوِرُ فِيهَا فَلَكُ الشَّمْسِ وَالْقَمْرُ ؛ السَّمَاءُ (١ : ٤٥) .

الجَوَارِيُ الْكُنْسُ : هِيَ الْخُنْسُ لَأَنَّهَا تَكْنِسُ فِي الْمَغِيبِ كَالظِّبَابِ فِي الْكُنْسِ (٢) ؛ أَوْ هِيَ كُلُّ الْجُومِ لَأَنَّهَا تَبَدُّلُ لِيَلًا وَتَخْفِي نَهَارًا (٢ : ٢٤٧) .

الجَوَازَاءُ : بَرْجٌ فِي السَّمَاءِ (٢ : ١٧٠) .

الجَوَانِيُّ - الْجَوَانِيُّ : الشَّمْسُ (٤ : ٢١١) .

حَاجِبُ الشَّمْسِ : نَاحِيَةٌ مِنْهَا (١ : ٥٢) .

الْحَاقُورَةُ : السَّمَاءُ الرَّابِعَةُ (٢ : ١٢) .

الْحَبَّاكُ (جَمِيعُهَا : حُبُّكُ وَحُبُّكُ) : طَرَائِقُ النَّجُومِ فِي السَّمَاءِ (٣ : ٢٩٧) .

حَضَارُ الْوَزْنِ : نَجْمَانٌ يَطْلُعُ عَلَى قَبْلِ سُهْلِيٍّ فَيَظْنَنُ النَّاظِرُ بِكُلِّ مِنْهُمَا أَنَّهُ سُهْلِيٌّ (٣ : ١٢٩) . وَيَقَالُ فِي حَضَارِ الْوَزْنِ إِنَّهُمَا نَجْمَانٌ مُحَلَّفَانِ ، لَأَنَّهُمَا يَطْلُعُانَ قَبْلَ سُهْلِيٍّ فَيُظْنَنُ بِكُلِّ مِنْهُمَا أَنَّهُ سُهْلِيٌّ وَيَحْلِفُ (إِنْسَانٌ أَنَّ ذَلِكَ النَّجْمَ هُوَ سُهْلِيٌّ وَيَحْلِفُ آخَرُ أَنَّهُ لَيْسَ بِهِ (٣ : ١٢٩ - ١٣٠) .

الْحَمَلُ : بَرْجٌ فِي السَّمَاءِ (٣ : ٣٦٢) .

الْحَوْتُ : بَرْجٌ فِي السَّمَاءِ (١ : ٤٦) .

الْحَوَّرُ : الْكَوْكَبُ الْثَالِثُ مِنْ بَنَاتِ نَعْشِ الصَّغِيرِيِّ (٢ : ١٥) . راجِعُ القَائِدِ .

(٢) الْكُنْسُ (بِضمِّ فَضْمٍ) جَمِيعُ كَنَاسٍ (بِالْكَسْرِ) : بَيْتُ الظَّبَيْةِ .

حُمَّةُ العَقْرَبِ - راجع الشولة .

الْحَيَّةُ : كواكب ما بين الفرقدين وبنات نعش (٤ :

(٣٢٢) .

الخَافِقَاتُ : أيام تناثرت فيها النجوم (٣ : ٢٢٨) .

الْخَيَاءُ : كواكب مستديرة (٤ : ٣٢٣) أي مصطفة على استدارة .

الْخَسَانُ : النجوم التي لا تغرب كالجדי والقطب وبنات نعش والفرقدين وشبهها (٢ : ٢١) .

الْخَضِيبُ : نجم (١ : ٦٢) .

الْخُنْسُ : الكواكب كلها ؛ الكواكب السيارة ؛ النجوم

الْخَمْسَةُ : زحل والمشتري والمريخ والزهرة وطارد ، وخنوتها أنها غريب (٢ : ٢١٢) .

الْدَبُّ : اسم الكبرى من بنات نعش ؛ وقيل الصغرى . فإن أريد الفصل بينهما قيل : الدب الأصغر والدب الأكبر (١ : ٦٥) .

الدَبَرَانُ : هو النظم (٤ : ١٨١) ؛ منزل للقمر (٢ : ٢٧) .

راجع المُجَدَّح .

الدُجْنُ : أقطار السماء (٤ : ٢٢٠) .

الدُرُّ : كوكب دري مضيء . (وثلث) (٢ : ٢٨) .

الدراري = راجع في «أعلاط الدراري» .

الدَرَّيُّ = الدرى (بكسر الدال أو ضمها وبتشديد الراء) .

راجع : كوكب دري (١ : ١٤) .

الدَرَهْرَهَةُ : الكوكبة الواقادة (٤ : ٢٨٣) .

الدَّلْوُ : برج في السماء (٤ : ٣٢٨) .
الذِئْبَانُ : كوكبان أبيضان بين العوائذ والفرقدين (١ : ٦٧) .

الذراع : منزل للقمر (٣ : ٢٣) .
ذراع الأسد = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٨ من أسفل) .

الذراع المقبوضة = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٨ من أسفل) .

ذُكَاءُ : الشمس (٤ : ٢٣٠) .

ذنب الفرس : نجم يشبهه^(١) (١ : ٦٩) .

الرئال : كواكب (٣ : ٣٨٠) .

الرُّبَعُ : غير مذكور في رب ع - راجع العوائذ .

الرُّجُمُ : النجوم التي يرمي بها .

الرِّدفُ : كوكب قريب من النسر الواقع (٣ : ١٤٣) .

الرِّدفُ : النجم الذي ينوء إلى المغرب إذا غرب رقيبه^(٢) (٣ : ١٤٣) ؛ النجم الناظر إلى النجم الطالع (٣ : ١٤٣) .

الرِّدفُ : نجم قريب من النُّسر الواقع (غير الرِّدف) (٣ : ١٤٣) .

الرِّشَاءُ : منزل للقمر (٤ : ٣٣٤) .

الرِّقَاءُ : السماء ، السماء السابعة (٣ : ٣١) .

(١) يشبهه : يشبه ذنب الفرس (لعله النجم المذنب) .

(٢) يكون الكوكب رقيباً إذا بدأ بظهوره في المشرق وكان ثمة في المغرب كوكب قد بدأ بالانحدار إلى المغيب .

الرَّقِيبُ : نَجْمٌ مِنْ نَجْوَمِ الْمَطَرِ يَرَاقِبُ نَجْمًا آخَرَ ؛ النَّجْمُ
الَّذِي يَطْلُعُ فِي الْمَشْرَقِ يَرَاقِبُ الْغَارِبَ .
وَمَنَازِلُ الْقَمَرِ كُلُّ مِنْهَا رَقِيبٌ لِصَاحِبِهِ (١ : ٧٥) .
رَمْحُ السِّيمَاكِ = رَاجِعُ السِّيمَاكِ الرَّامِعِ .
زُبَانِيَا الْعَقْرَبُ : قَرْنَاهَا ، وَكُوكَبُ نَيْرَانَ فِي قَرْنَيِّ الْعَقْرَبِ
(٤ : ٢٣١) .

الْزُّبْرَةُ : كَوْكَبٌ مِنَ الْمَنَازِلِ ، وَهُمَا (كَذَا) كَوْكَبُ نَيْرَانَ
بِكَاهِيلِيِّ الْأَسَدِ يَنْتَلِهِمَا الْقَمَرُ (٢ : ٣٧) .
رُحَّلُ : كَوْكَبٌ مِنَ الْخُنْسِ (٣ : ٣٨٨) .
الْزَّمَهَرِيرُ : الْقَمَرُ (٢ : ٤١) .
الْزُّهَرَةُ : نَجْمٌ مَعْرُوفٌ فِي السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ (٢ : ٤٣) .
الْزَوَّاَلُ : النَّجْوَمُ (٣ : ٣٩١) .
الْسَّابِحَاتُ : النَّجْوَمُ (١ : ٢٢٦) .
الْسَّاهُورُ : الْقَمَرُ (٢ : ٥٤) .
سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى : فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ (٢ : ٤٦) .
السِّرَاجُ : الشَّمْسُ (١ : ١٩٣) .
السَّرَّاطَانُ : بَرْجٌ فِي السَّمَاءِ (٢ : ٣٦٤) .
سَعْدٌ - سَعْدُ النَّجْوَمِ عَشَرَةً ، أَرْبَعَةً مِنْهَا مَنَازِلُ الْقَمَرِ (١ :
٣٠١) هِيَ :

- سَعْدُ الْأَخْبِيَّةِ .
- سَلْعُ بُلَعَ (رَاجِعُ بُلَعٍ) .
- سَعْدُ الذَّابِحِ : كَوْكَبُ نَيْرَانَ بَيْنَهُمَا قِيدٌ ذَرَاعٌ ، وَفِي نَحْرِ
أَحَدِهِمَا نَجْمٌ صَغِيرٌ لِقَرْبِهِ مِنْهُ ؛ كَأَنَّهُ يَذْبَحُهُ (١ : ٢٣٠) .

- سعد السعود :

ومنها ستة ليست من منازل القمر كل منها كوكبان بينهما في المنظر نحو ذراع (١ : ٣٠١) .

- سعد البارع .

- سعد البِهَام : من المنازل (٤ : ٨٢) ^(١) .

- سعد مَطْر .

- سعد ناشرة .

- سعد الْهُمَام .

السُّلَم : كواكب في أسفل العانة عن يمينها (٤ : ١٣٠) .

السِّيمَاك الأعزل : لا سلاح معه (٤ : ١٥) راجع الأعزل .

السِّيمَاك الرامح : نجم قدام الفكة يقدمه كوكب يقال له رمحه (١ : ٢٢٣) .

السما كان الأعزل والرامح : نجمان نيران أو هما رجلا الأسد (٣ : ٣٠٧) .

السَّمَكَة : برج في السماء (٣ : ٣٠٧) .

السُّنْبَلَة : برج في السماء (٣ : ٣٩٨) .

السِّينِمَار : القمر (٢ : ٥٣) .

السُّنْيَق : كوكب أبيض (٣ : ٢٤٧) .

السُّهَا : كوكب خفي من بنات نعش الصغرى (٤ : ٣٤٦) ؛ والسُّهَى (بالألف المقصورة أيضاً) ويسمى الصَّيْدَق إلى جانب عناق (١ : ٣٣١) . - راجع عناق .

(١) مع أن صاحب القاموس قد ذكر قبلًا أن منازل القمر أربعة .

سهم الرامي : كوكب (٤ : ١٣٤) .

سُهيل : نجم عند طلوعه تنضح الفواكه وينقضي القِيظ
(٣ : ٣٩٨) - راجع الفحل ، راجع أيضاً حضار والوزن .

الشارق : الشمس حين تشرق (٣ : ٢٤٩) .

الشامة : نكتة (كلف؟) القمر (٤ : ١٣٧) .

الشاهد : النجم (١ : ٣٠٦) .

الشاة : كواكب صغار (٤ : ٣٥) .

الشَّرج : مجرة السماء (١ : ١٩٥) .

الشَّرطان : نجمان من الحمل هما قرناه ، وإلى جانبه
الشمالي كوكب صغير . ومنهم من يَعْدُ (هذا الكوكب الصغير)
معهما فيقول : هذه المترلة ثلاثة كواكب ويُسمّيها الأشراط (٢ :
٣٦٨) - راجع الأشراط .

الشّعري العبور والشّعري الغُمِصاء : أختا سُهيل (٢ :
٦٠) . والغُمِصاء إحدى الشّعريّين . ومن أحاديثهم أن الشّعري
العبور قطعت المجرة فسُمِّيَتْ عبوراً وبَكَتِ الأخرى على أثرها حتى
غَمِصَتْ ، ويقال لها أيضاً العَمُوص (٢ : ٣١٠) .

الشمس : معروفة (٢ : ٣٢٣) .

الشَّهاب : شعلة من نار ساطعة وجمعها شُهُب (١ : ٩٠) .

الشُّهُب : الدراري (١ : ٩٠) .

الشهر : الهلال ، القمر ، أو هو (القمر) إذا ظهر وقارب
الكمال (٢ : ٦٥ - ٦٦) .

الشوارع : النجوم الدانية إلى المغيب (٣ : ٤٤) .

الشَّوْلَة : كوكبان نيران ينزلهما القمر . يقال لهما حُمَّة العقرب (٣ : ٤٠٤) .
الصَّرْفَة : متزلة للقمر نجم واحد نير يتلو الزُّبرة (٣ : ١٦٠) .

الصَّقِعَاء : الشمس (٣ : ٥١) .
الصَّيْخُد : عين الشمس (١ : ٣٠٦) .
الصَّيْدِق : السُّها - راجع القائد .
الضَّابِع : النجم المائل للمغيب (٣ : ٥٥) .
الضِّبَاع : كواكب كثيرة أسفل من بناة نعش (٣ : ٥٤) .
الضِّبَح : الشمس (١ : ٢٣٦) .
الضُّحَى : الشمس (٤ : ٣٥٤) .
الضِّيقَة : متزلة للقمر (٣ : ٢٥٥) .
الطَّارِق : كوكب الصبح (٣ : ٢٥٧) .
الطاَلِع : الهلال (٣ : ٥٩) .
الطَّرْف : كوكبان يقدمان الجبهة سُمِّياً بذلك لأنهما عينا الأسد ينزلهما القمر (٣ : ١٦٧) .
الطَّوْس : القمر (٢ : ٢٢٧) .
الظَّلِيم : نجمان (٤ : ١٤٦) .
العاَنَة : كواكب بيض أسفل من السعد (٤ : ٢٥١) .
العَبُور = الشعري العبور .
عَجْزُ الأَسْد = راجع القصر .
العَجُوز : الشمس (٢ : ١٨١) .
العَذْرَاء : برج السبنلة أو الجوزاء (٢ : ٨٦) .

- العُدْرَة : خمسة كواكب في آخر المجرة (٢ : ٨٦) .
- عِرْش السُّمَّاک = راجع القصر .
- عُطَارَد = راجع الخُنْس .
- عَطَرَد : نجم من الخُنْس في السماء السادسة (١ : ٣١٥) .
- العَقْب : برج في السماء (١ : ١٠٧) .
- العَلَيَاء : الشَّمْس (٤ : ٣٦٥) .
- عَنَاق = راجع القائد .
- العَنَاق وَالعَنَاقَة : الوسطى من بنات نعش (٣ : ٢٦٩) - راجع القائد .
- العَنَان : نواحي السماء (٤ : ٢٥٠) - راجع أعناء السماء .
- العَوَاء : (ويقصر) : منزل للقمر (٤ : ٣٦٨) .
- العَوَاء : خمسة كواكب أربعة منها كأنها كتابة ألف (٤ : ٣٦٨) .
- العَوَائِذ : أربعة كواكب بترتيبٍ مختلفٍ في وسَطِها كوكب يسمى الرَّبَيع (١ : ٣٥٦) .
- العُوكَلَان : نجمان (٤ : ٢٠) .
- العوهقان : كوكبان إلى جنب الفرقدين على نسق ، طريقاهما مَا يلي القطب (٣ : ٢٧٠) .
- العين : الشَّمْس (٤ : ٢٥١) .
- عييناً الأسد = راجع الطرف .
- العَيْقَ : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن يتلو الثريا لا يتقدمها (٣ : ٢٧٠) .

- الغاسق : القمر (٣ : ٢٧٢) .
- الغرَف : السماء السابعة (٣ : ١٨٠) .
- الغموض = الغميساء = راجع الشعري .
- الغُورَة : الشمس (٢ : ١٥٠) .
- الفاثور : قرص الشمس (٢ : ١٠٧) .
- الفارطان : كوكبان أمام بنات نعش (٢ : ٣٧٧) .
- الفَحْل : سهيل لاعتزاله النجوم كالفحل فإنه إذا فرع الإبل اعتزلاها (٤ : ٢٨) .
- الفردود : كواكب مصطفة خلف الثريا (١ : ٣٢٢) .
- فرَغ الدلو المقدَّم و(فرغ الدلو) المؤخر : متزلان للقمر كل واحد كوكبان بين كل كوكبين في المرأى قدر رمح (٣ : ١١١) .
- الفرقد : النجم الذي يهتدى به وهما (وهو) فرقدان ، وجاء في الشعر مثنَىً ومُوحَداً (١ : ٣٢٣) .
- الفرقدان = راجع الحياة .
- الفرقود = الفرقد .
- فرود النجوم = أفراد النجوم .
- الفروغ : الجوزاء (٣ : ١١١) .
- الفُكَّة : كواكب مستديرة (مصطفىة) في شبه دائرة خلف السماك الراهن تسميه الصبيان قصعة المساكين (٣ : ٣١٦) .
- الفلك : مدار النجوم (٣ : ٣١٦) .
- الفلك : مدار النجوم (٣ : ٣١٦) .
- القائد : الأول من بنات نعش الصغرى الذي هو آخرها قائد والثاني عَنَاق ، وإلى جنبه قائد صغير وثانية عَنَاق ، وإلى جنبه

الصَّدِيق ، وهو السُّهْيَى ، والثالث الحور (١ : ٣٣١) .
القدر : كواكب مستديرة (راجع الفُكَة) (قرب الأنفاف) (٣ : ١١٦) .

القُرْص : عين الشمس (٢ : ٣١٢) .

القَرْن : نجم (٤ : ٢٠٥) .

قَدْمَى سَهِيل = راجع الأعيار .

القرن : كوكبان حيال الجَذْي (٤ : ٢٥٨) .

قرن الشمس : ناحيتها ؛ أعلىها ؛ أول شعاعها (٤ : ٢٥٧) .

القصر : أربعة كواكب صغار أسفل من العوَاء يقال لها عرش السماك وعَجْز الأسد والجنازة (٢ : ٢٧٨) .

قصعة المساكين = الفُكَة .

القُطْب : نجم تبني عليه القبلة (١ : ١١٨) .

القلادة (من منازل القمر) : ستة كواكب مستديرة تشبه القوس (١ : ٢٧٨) .

قلب العقرب - راجع النياط واهراران .

القمر : يكون في الليلة الثالثة (٢ : ١٢١) .

كاهل الأسد = راجع الزبرة .

الكتَد : نجم (١ : ٣٣٢) .

كَحْلة (معرفة) والكَحْل وكَحْل (؟) : اسم للسماء (٤ : ٤٤) .

الكُنْس : الجواري الكنس - الخُنس لأنها تُكْنِيسُ في المغيب

كالظباء في الْكُنْسُ ؛ أو هي كل النجوم لأنها تبدو نهاراً وتختفي ليلاً (٢ : ٢٤٧) .

الكواكب الجواري = راجع التَّنِينَ .

الكوكب والكوكبة : النجم (١ : ١٢٤ - ١٢٥) .

كوكب دُرَّي (بالفتح والكسر والضم) ودرَّي بالكسر
والضم : مضيء (٢ : ٢٨) ، راجع (١ : ١٤ ، ١٤٢) .

الكوكبة = راجع الدرهرة .

المُجَدَّح (ويقال المجدح بضم الميم) : الدبران (١ : ٢١٧) .

المجدح : نجم صغير بين المجدح (السابق ؟) والثريا (١ : ٢١٧) .

المجرة : باب السماء أو شَرْجَهَا (١ : ٣٨٨) .

المرzman : نجمان مع الشَّعريين (٤ : ١٢٠) .

المريخ : نجم من الخنس (١ : ٢٦٩) .

المشتري : نجم (٤ : ٣٤٨) = برجيس = النجم .

المَعَرَّة : كوكب دون المجرة (٢ : ٧٨) .

المعلم : كواكب مستديرة متبددة (٣ : ١٧٨) .

مَقْبِض القوس = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٨ من أسفل) .

منكَبُ الجوزاء الأيسر = راجع الهنعة (٣ : ١٠٠ ، السطر ٩ من أسفل) .

منكباً الجوزاء = راجع المفعة (٣ : ٩٩ ، السطر ١٣) .

منزل : بنات نعش (٤ : ٥٧) .

المَيْسان : نجم من الجوزاء ؛ كل نجم زاهر ؛ أحد كوكبي
الهقعة (٢ : ٢٥٣) .
النائزات غرقاً : النجوم التي تنشط من برج إلى برج (٢ :
٣٨٨) .

الناعقان : كوكبان من الجوزاء (٣ : ٢٨٦) .
الناقة : كواكب مصطفة بهيئة ناقة (٣ : ٢٨٧) .
الثرة : كوكبان بينهما قدر شبر وفيهما لطخ بياض كأنه قطعة
سحاب ، وهي أنف الأسد (٢ : ١٣٨) .
النجم : الكوكب ، الثريا (٤ : ١٧٩) .
نجوم الأخذ : منازل القمر ؛ الكواكب التي يرمى بها مسترقو
السمع (١ : ٣٥٠) .
الحسان : رُحْلُ والمِرْيَخ (٢ : ٢٥٣) .
النسر : كوكبان = النسر الطائر والنسر الواقع (راجع ٢ :
١٤١) .

النسر الطائر = راجع النسر والنسر الواقع .
النسر الواقع : نجم كأنه كاسر جناحيه من خلفه جبال النسر
الطائر قرب بنات نعش (٣ : ٩٦) .
النظم : ثلاثة كواكب من الجوزاء ؛ الثريا ؛ الدَّبَرَان (٤ :
١٨١) .

النعام = راجع البلدة .
النعام : من منازل القمر (٤ : ١٨٢) .
النياط : كوكبان بينهما قلب العقرب (٢ : ٣٨٩) .
الهَرَارَان : النسر الواقع ؛ قلب العقرب (٢ : ١٦٠) .

الحقيقة : ثلات كواكب فوق منكبي الجوزاء كالأثافي (٣) :

(٩٩)

الهلال : غرة القمر لليلتين (أو أكثر قليلا) (٤ : ٧٠) .

الهنعة : منكب الجوزاء الأيسر خمسة أنجم مصطفة ينزلها القمر

(٣ : ١٠٠) .

الهنعة : كوكبان أبيضان مقتربان في المجرة بين الجوزاء والذراع

المقبوضة (٣ : ١٠٠) .

الهنعة : ثمانية أنجم في صورة قوس بينها مقدار سوط بأثر

الحقيقة في المجرة (٣ : ١٠٠) .

الهنعة : ثمانية أنجم في صورة قوس وتُسمى ذراع الأسد في

مقيض القوس نجمان يقال لها الهنعة (٣ : ١٠٠) .

الهنعة : كوكبان أبيضان بينها مقدار سوط بأثر الحقيقة في

المجرة . وإنما ينزل القمر بالتحايا وهي ثلات كواكب بحداء الهنعة

واحدتها (كذا ، ثلات كواكب ، واحدتها) تحية (٣ : ١٠٠) .

الوباص : القمر (٢ : ٣٢١) .

الوزن : نجم يطلع قبل سُهيل فتنبه إيه (٤ : ٢٧٥) - راجع

حضار الوزن .

الوَكْس : دخول القمر في منزل يُكرّه ، منزل القمر الذي

يكشف فيه (٢ : ٢٥٨) .

يُوح ويوحى : الشمس (١ : ٢٥٦) .

ملحق :

الأشراط - راجع الشرطين .

الجنازة - راجع القصر .

رجالاً الأسد - راجع السماسكين .

السعود - راجع العانة .

القوس : برج في السماء (٢ : ٢٤٣) .

وقد غَلَّ القاموس عن عدد كبير من أسماء الأجرام السماوية فلم أُعثِر فيه على ذي الأعنَة - السفينة - الشهاب (مع ورود هذه الكلمة في القرآن الكريم) الغول - الفرد أو قلب الشجاع - الميزان . وكذلك غفل عن عدد من أفراد الأجرام السماوية ، فقد ذكر الفُكَة والشِّعْري ، ولكنني لم أهتدِ فيه إلى الفُكَة الجنوبيَّة والفُكَة الشماليَّة ولا إلى الشِّعْري الشاميَّة والشِّعْري اليمانيَّة .

وذكر القاموس عدداً من أسماء الأجرام السماوية عرَضاً مثل « عُطارد » عده مع الخَنْس أي الكواكب الخمسة السيارة (٢ : ٢١٢) ولكن لم يذكره في فصله وبابه (في مادته أو جذرها) لما ذكر هنالك عَطَرَداً . وكذلك الرَّبِيع ذكره مع العوائذ (١ : ٣٥٦) ولم يذكره في ربِّع .

وسلَك صاحب القاموس في أسماء الأجرام السماوية مسلَك رُوَاة اللغة - مع أنَّ الألفاظ الفلكية باب من العلم لا باب من الاجتماع وعلم النفس كالالفاظ الجنسية وألفاظ الصناعات . فقد قال مثلاً إن منازل القمر من السعُود أربعة (١ : ٣٠١) : سعد الأخبيَّة وسعد بُلُع وسعد الذايَّع وسعد السعُود ، ثم ذكر أنَّ سعد البِهَام من المنازل (٤ : ٨٢) . ولما تكلَّم على الكواكب الخَنْس قال (٢ : ٢١٢) الكواكب كلها والكواكب السيارة ، والنجوم الخمسة

(رُحْلُ المشتري والمريخ والزهرة وعطارد) وختونسها أنها تغيب .
وجعل الحُسَان (٢١٠ : ٢) النجوم التي لا تغرب كالجדי والقطب
وبنات نعش والفرقدين وشبيهها ، وهذا صحيح . فالختونس عنده
غياب الكواكب مرة وبقاوئها ظاهرة لا تغيب مرة أخرى . وصاحب
القاموس لا يفرق في الاستعمال بين النجم والكوكب .

أما على الصعيد العلمي عند العرب فإن أسماء الأجرام
السماوية عربية خالصة سوى ألفاظ يسيرة جداً مثل أناهيد من
الفارسية للزَّهرة والبرْجيس من الفارسية في الأغلب للمشتري .
ولعل عدداً من الأسماء الفلكية لا يزال في صيغ أعرابية مثل بوج
أويوح ويوحى ثم الباحور والفاثور والمريخ .

وفي السماء نجوم ثنائية أو مُزدوجة يتَّألف كل نجم منها في
الحقيقة من نجمين اثنين . ويكون أحده هذين النجمين صغيراً
والآخر منها كبيراً ، ثم إن كل واحد منها يدور حول صاحبه . وبما
أن النجوم المزدوجة بعيدة جداً فإنهما ترى في رأي العين نجوماً مفردة ،
ولكن أدوات الرصد الحديثة - وهي قوية دقيقة - استطاعت أن
تكتشف هذه الظاهرة الفلكية النادرة الغامضة .

أما أول نجم مزدوج عرفه العلم الأولي فهو العَنَاق أحد بنات
نعمش في مجموعة الدب الأكبر ، عرفه ريتشارلي عام ١٦٥٠ للميلاد
غير أن العرب كانوا قد عَرَفُوا عدداً من هذه النجوم بالعين المجردة
منذ جاهليتهم . إنهم عَرَفُوا أن العَنَاق نجم مُزدوج فسَمُوا العَنَاق
نفسه عَنَاقاً وسَمُوا شريكه الصغير السُّهَا . وعَرَفَ العربُ خفاء هذا
النجم (السُّهَا) فقالوا هو كوكب خفيٌّ يمتحن الناسُ به أبصارهم .

والفرقُد كان معروفاً عند العرب بأنه كوكب ثنائي مزدوج . وقد جاء في الشعر مُثنياً وموحدًا . وقد قال الشاعر :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخوه - لَعْمَرُ أَبِيكَ - إِلَّا الفرقدان !
وأَحَبُّ أَنْ أَسْتَعْرِضَ أَشْيَاءَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْفَلَكِيَّةِ فِي «المُعَجمِ الْوَسِيْطِ» مُقَارِنَةً بِمَا فِي الْقَامُوسِ الْمُحيَطِ .

في القاموس المحيط ألفاظ فلكية أخذها المعجم الوسيط بالحرف الواحد ، ثم ألفاظ أخذها بشيء من الاختصار ، كما أن هنالك ألفاظاً توسع في معانيها وفي ما تدل عليه . وكذلك نجد في القاموس المحيط ألفاظاً فلكية لا نراها في المعجم الوسيط . وليس في هذا كله ما يمكن أن يكون مأخذًا ، لأنَّ المؤلَّف يشترط أحياناً على نفسه شروطاً ويُخْطُّ منهاجاً . والتألِيفُ الجيدُ هو أن يَفِي المؤلَّف بما شَرَطَ على نفسيه في النطاق الذي خَطَّه لكتابه . ولكنَّ ما يُعَدُّ مأخذًا أن يذكر المؤلَّفُ في الكتاب الواحد أمراً واحداً في مكانيين مختلفين على وجهين مختلفين :

جاء في الصفحة الثانية والسبعين من المعجم الوسيط : «وبنات نعش : النجوم المتشرة في السماء» : ثم جاء على الصفحة الثانية والأربعين بعد التسعين : «وبنات نعش : سبعة كواكب تُشاهَدُ جهة القطب الشمالي ، شَبَّهْت بِحملة النعش» .

والمعجم الوسيط ، كالقاموس المحيط ، لا يُفرَقُ بين النجم والكوكب ، ففي الصفحة ٩١٢ : «النجم أحد الأجرام السماوية المضيئة بذاتها ، ومواقعها النسبية في السماء ثابتة ومنها الشمس . والنجم عَلَمٌ على الثريا خاصة . والنجم الكوكب» . وعلى الصفحة

٧٩٩ : « الكوكب النجم في السماء ، والكواكبُ أجرام سماوية تدور حول الشمس وتستضيء بضوئها ، وهي تسعه : رُّحل والمشتري والمريخ وعطاردُ والزُّهرة والأرض وأورانوس ونبتون وبليتو » (بهذا النسق الخطأ) .

وعلى الصفحة ٢٥٨ : « الخنسُ الكواكب السيارة دون الثابتة . والخنسُ الدراري الخمسة : رُّحل والمشتري والمريخ والزُّهرة وعطارد ، والخنسُ : الكواكب كلها .

ثم يقول المعجم الوسيط على الصفحة ٨٠٦ : « كَنْسِتُ النجومُ كُنُوساً : استمرت في مغاربها ثم انصرفت راجعةً ، فهي كأنس وجهها كُنس ، والجواري الْكُنْسُ : الكواكبُ الخمسة : المريخ وزُّحلُ وعطاردُ والزُّهرة والمشتري (بهذا الاضطراب في المصادر : كنست النجوم فهي كأنس وجهها كنس ؛ وبهذا الاضطراب في سرد أسماء الكواكب الخمسة) لأنها تكنس كالظباء : تعجب وتنست ؛ أو هي (الجواري الكنس !) النجومُ كلُّها لأنها تبدو ليلاً وتحفني نهاراً » .

وفي القاموس المحيط (١ : ٣٢٢) : « أفراد النجوم وفرودها : الدراري التي تطلع في آفاق السماء .. والفردود : كواكب مصطفة خلف الثريا » ، وجاء في المعجم الوسيط (ص ٦٨٦) : « وأفراد النجوم : الدراري التي تطلع في آفاق السماء ... والفردود كواكب زهراتُ حول الثريا ، وفروع النجوم : أفرادها » .

من المفروض أولاً أن تُعدّ الكواكبُ مرتبةً ترتيباً واحداً ؛ ثم

يجب أن تُعدَّ مُرتبةً ترتيباً صحيحاً ، وكذلك لا يجوز في قاموسٍ عامٍ غير تاريني أن يُعرَفَ الكوكبُ بأنه النجم وأن يُعرَفَ النجمُ بأنه الكوكب ، وإذا جاز الجمعُ بينَ الروايات المُختلفةِ والمتضاربةِ في إيراد المدارك النفسية والاجتماعية - لأن الخلاف في مدلولاتها لا يزال مستمراً لاستمرار الاختلاف بين طبائع البشر وثقافتهم - فإن هذا الجمع لا يجوزُ في المدارك العلمية .

الجيم البدائية وتقليمها في الألفاظ العربية

يبدو أن الجيم الأعرابية القرية في اللفظ من القاف حرف قديم أصيل نجده في اللغات الأعرابية غير العربية الفصحى وفي اللغات الآرية في آسية وأوروبا . وكذلك يبدو أن تعطيش الجيم قد حدث بين العرب في الجاهلية القديمة ، نعرف ذلك من الشعر الجاهلي ومن القراءات في كتاب الله . أما الأمثلة المفردة والأبيات المتفرقة التي يستشهد بها على أن هذه الجيم كانت تلفظ أحياناً قافاً أو شيناً أو ياءً أو غير ذلك ، فإنما هي شواهد على شوادٍ قبليٍّ أو محلية .

ويحسن أن نفرق في البحث بين الصوت وبين الحرف الدال على الصوت في اللغة العربية وفي غير اللغة العربية ، حتى الضاد التي يظن جمهور الباحثين أنها حرف قاصر على اللغة العربية موجود لفظه في معظم اللغات ، وإن كانت اللغة العربية وحدها هي

(*) بحث ألقى في مجمع اللغة العربية (القاهرة) في حادي عشر ذي القعدة من سنة ١٣٨٨ (٢٩/١/١٩٦٩ م) .

التي اختصّته بحرفٍ مستقلٍ . إنَّ كثيرين مِنَ يَعْرُفُونَ أَنَّا نقول بالتركية طُولْدُورْمَقْ أي التعبئة ، ومنها التسمية المشهورة يَلْنِجِي طولمه ؛ وكذلك طُونْدُورْمَقْ ، أي التجميد ، ومنها تسمية أكثر شهرةً طُونْدُورْمَه . ثُمَّ هنالك طقوز أي تسعه ، ثُمَّ طورْمَقْ أي الوقف . وكلَّ هذه الكلمات تلفظ في التركية بالضاد الواضحة وتكتب بالطاء . بعضها يكتب الآن بالدال نحو دوندُورْمَه .

ثمَّ إنَّ الكثرة الغالبة مِنَ تَعْرِفُ أَنَّا نقول donc بالفرنسية ، و done بالإنكليزية ، و Dorf بالألمانية ، و donde بالإيطالية والإسبانية (نكتبها كلَّها بالدال ونلفظها ضاداً واضحةً كثيراً أو قليلاً . وأحسبُ أنَّ (داو) و(داي) (الطريق ، العظيم) باليابانية لا تخرُجُانَ عن هذه المَحَاجَةَ .

ولعلَّ من أكثر الأصوات تَحْيِراً في اللغة العربية « الجيم » وقد أخذت الأمثلة التالية على تحْيِرها من المعجم الوسيط . من ذلك مثلاً :

- فَلَجَ الأرضَ : شَقَّها للزراعة وفَلَحَّها (ص ٧٠٦ ، ٧٠٧) .

- جَبَا عن الشيءِ : هابه وتوارى عنه وأجْبَا مالَه : أخفاه عن جابي الزكاة وخبأه (ص ١٠٤ ، ٢١٢) .

- جُدِفت يَدُه : قُطِعتْ . وشَدَفَه : قَطَعَه (ص ١١١ ، ٤٧٨) .

- الجَبْر - الشجاع . أَزْبَرَ : شَجَعَ (ص ١٠٥ ، ٣٨٩) .

- جرف وغرف (ص ١١٨ ، ٦٥٦) .
- أما انقلاب الجيم فاكاً فكثير : جدَ وقدَ ، الجَبِيل والقَبِيل ،
لَجَبِيلَة والقَبِيلَة (١٠٦ ، ٧١٩ ، ٧٢٠) .

- ثم هنالك انقلاب الجيم كاكاً وهو كثير جداً : جَرَع
وكرع ، ، جَدَ وكَدَ ، جَلَم وكلم ، جَهَر وكَهْر .

- الجَبَاب : القحط الشديد (ص ١٠٤) والياب :
الخراب ، والمكان الخالي لا شيء فيه . يقال : أرض ياب
(ص ١٠٧٥) .

من المعقول أن نبدأ درس الألفاظ التي يقع فيها حرف الجيم
بحرف الجيم نفسه ، ذلك الحرف الذي يُقال فيه إنه مقطوع من
كلمة جَملٍ . وقد أدى أسلافنا الأعرابيون لفظ « جَمل » كما يُؤَدِّيه
عدد كبير من إخواننا العرب اليوم في لهجاتهم المحكية بالجيم
الأعرابية القديمة . أما لغتنا الفصحى فلا تُعرف الجيم إلا معطشة .

والجَملُ (بفتح الميم وبسكونها) كان يُطلَقُ على الذَّكَر
وعلى الأنثى من الإبلِ (تاج العروس ٧ : ٢٦٢) . وكلمة جمل
موجودة في جميع اللغات الأعرابية وهي تَقَع في هذه اللغات كلها
على الذَّكَر الأنثى أيضاً . وذلك معقول لأن الكلمة في الأصل كانت
تدلّ على الْحَمْل ، ويبدو أن مدرك التذكير والتأنيث متَّخِرٌ في
اللغات .

وَجَعَلَ الْعَرَبُ الجيم في الجمل عربية معطشة . ولكنهم
استفادوا من تحْيِير الجيم الأعرابية : استفادوا منها في سك الألفاظ

ذات ظلالٍ من المعاني تتعلق بالجملٍ . وأهمُ هذه الألفاظ الجمال والكمال (بقلبِ الجيم كافًّا) ، فالجمال يدلُّ على الحُسن والبهاء الماديَّين في الوجه ، بينما الكمال يدلُّ على الحسن المعنوي من تمام الخلق والخلق . وكما نقول جمالٌ وكمالٌ نقول أيضًا جميليٌ وكਮيلي « القاموس ٤ : ٤٦ » .

ونقل العرب الجيم إلى الذالِّ أختِ الدالِّ فقالوا : ذَمَلُ البعير : سار سيرًا سريعاً لينا فهو ذاملٌ وذموليٌّ ، وهي ذاتلةٌ وذمولةٌ (ص ٣١٥) .

وكذلك نقلوا الجيم إلى الزايِّ أختِ الراءِ حينما جعلوا الزَّمل بمعنى الْحَمْل ، والزَّاملة مؤنثُ الزَّامل : ما يُحمل عليه من الإبل وغيرها . غير أن المعجم الوسيط (٤٠٢ - ٤٠٣) يهملُ التخصيص في هذه المادة أحياناً ، ولكن في القاموس المحيط (٣٩٠ : ٣) : الزَّوْملة : سَوْقُ الإِبْلِ ، والعِيْرُ علىها أحمالُها . وإذا عملَ الرجلان على بعضهما زميلان ؛ فإذا كانا بلا عمل فهما رفيقان . وفي تاج العروس (٧ : ٣٦٠ ، ٣٦١) الزَّمِيل : الرديف على البعير . والمزاولة : المعاولة على البعير .

وتنقلبُ الجيم هنا أيضًا شيئاً . ولكن المعجم الوسيط يهملُ التخصيص في هذه المادة . فإذا نحن رجعنا إلى القاموس المحيط (٤٠٣ : ٣) وجدنا ناقَةً شِمَلَةً وشِمالَ وشِمَلِيلَ (سريعة) ، وزاد تاج العروس (٧ : ٣٩٨) جَمَلُ شِمَلَ وشِمَلِيلَ وشِمالَ .

ومن أسماءِ الجَمَلِ « يَعْمَلُ » والناقة « يَعْمَلَةً » ، ولعل ذلك

حدث في أثناء انقلاب الجيم ياء . واليَعْمَلُ واليَعْمَلَةُ ليستا صفتين يُنْعَتُ بهما الجملُ والناقة ، بل أسمان . وليست هذه المادَّةُ أيضًا في المعجم الوسيط (رَاجِع ٦٣٤ و ١٠٧٨) ، بل نَجِدُها في القاموس المحيط (٤ : ٢١) : اليَعْمَلَةُ : الناقة النجيبة المعتملة (بكسير الميم) المطبوعة . والجملُ : يَعْمَلُ (بضمَّتين) ، ولا يوصف بهما ، إنَّما هما اسمان . وناقة عَمِلَةٌ كفرحةٌ بينَ العمالة (بالفتح) فارهة . وقد عملت (الناقة) بأذنيها : أسرعت .

وكل هذه الظلال من المغاني عند تقلب الجيم في أصوات مختلفة في لفظة « جمل » عربية بحث لا نَجِدُها في اللغات الأعربية .

وفي الجذور الأعرابية ج ب ر . وهذا الجذر - بخلاف ج م ل - أقدمُ في الاستعمال لأن « الجبر » (الرجل) يجب أن يكون أقدم في الحاجة إلى الاستعمال من « الجمل » (الحيوان) . وقد استغنى العربُ في فصيحهم عن « جبر » للرجل واعتاضوا عنها بصيغة من جذر رج ل ، ذلك الجذر الذي ظلَّ في اللغات الأعرابية مقصوراً على القدم .

وإذا نحن تأمَّلنا الجذر ج ب ر وجدنا له خاصتيْن بارزتين : أولاهُما أن الجيم فيه تقلب في أصوات كثيرة كما اتفق للجيم في جمل . ثم إنَّ المعاني التي نشأت من هذا التقلب متداخلة ، وخصوصاً إذا نحن استعرضنا معانيَ ج ب ر ومعانيَ ك ب ر .

في الجذر ج ب ر نَجِدُ من المدارك الأساسية : ربط ، ثبت ، قتل ، نسج ، ثم مدرك الزيادة في العدد والطول أو العرض

وفي المساحة والقدر والبَيْنَ وفي القوة والسيطرة . ومن معاني «الجُبر» في اللغات الأعربية : الرجل ، الذكر ، الزوج ، ثم القوي والجُندي والمُحارب والبطل والجبار ، ثم الطويل القامة والسيِّد في قومه والشهير والعظيم ، والواسع ، ثم هو اسم من أسماء الله الحُسْنَى .

وَمُعَظَّمُ هذه المدارك الأساسية المنطقية في الجذر بـ ر وفي الجذر كـ بـ ر معروفة في اللغة العربية . ولا يزال للفظة «الجُبر» في اللغة العربية من المدارك القديمة : الرجل ، الغلام (الذِي اشتدَّ) ، القوي ، الشجاع ، العظيم ، العاتي ، الطويل ، وكذلك لا يزال فيها معنى السَّيْلُ (تعاظم المياه ، وهو معنىًّاً أعرابيًّاً قديم) .

وهنا تلمح أيضًا أن انتقال الجيم إلى الكاف ينقل المدرك المادي في الكلمة إلى المدرك المعنوي نحو : الرجل الجبار (الجبار - مدرك مادي) ثم المكر الكبار (الكبار - مدرك معنوي) في قوله تعالى « ومكروا مكرا كبارا » . وهنالك : التجبر في مقابل التكبر ، ثم جدًّا في مقابل كد ، ثم أجرأشت الإيل ؛ امتلأت بطونها وسميت (ص ١١٤) في مقابل استكرش : عظم بطنه وأخذ في الأكل (ص ٧٨٩) .

غير أن هذا التقلب في المعاني من المدرك المادي إلى المدرك المعنوي يحتاج إلى درس أشمل وأعمق وأدق ، فإن مثل هذا الدرس يكشف عن « عبقرية في اللغة العربية » وعن « قدرة » على الحياة والبقاء والتوسيع تتدحران في اللغات غير العربية .

وهنالك لفظة في هذا الباب تستحق الدرس هي لفظة «جار» والمدرك الأول في الفعل «جار» مال إلى «المكان» وعَطَّف عليه (حقيقة لا مجازاً). وهذا المدرك متصل بالفعل «جار» بالحاء المهملة ، كما في قول طَرَفة :

عَدُولِيَّةُ أَوْ مِنْ سَفِينِ ابْنِ يَامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
أَوْ يَجُورُ بِهَا الْمَلَاحُ . ثُمَّ هِيَ مَتَّصَلَةُ بِالْجَذْرِ «زار» (مال) ،
وَالشَّوَاهِدُ عَلَيْهِ كَثِيرَةٌ . وَكَذَلِكَ هُوَ مَتَّصَلُ بِالْجَذْرِ صَارُ (مال ،
اتجه) ، قال البحترى :

صُورًا إِلَى صُورِ الدُّلْفِينِ يُؤْنِسُهَا مِنْهُ آنِزَوَاءُ بَعِينَيْهِ يُوازِيهَا !

ومن المدارك الأصلية في الجذر «جار» : المُكْثُ ،
وَسُكْنَى الرَّجُلِ بُرْهَةً فِي غَيْرِ الْوَطَنِ عَلَى أَنَّهُ غَرِيبٌ أَوْ ضَيْفٌ .
وَالْجَارُ هُوَ الَّذِي يَسْكُنُ مَعَ آخَرَ أَوْ آخَرِينَ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ . وَالْجَارُ
الْمَوْلَى (الْعَبْدُ الْمَعْتَقُ أَوْ غَيْرُ الْمَعْتَقِ) ، وَالْجِيَرَانُ الْعِيَالُ وَالْخَدْمُ
وَالْغُرَبَاءُ . وَالْجَارُ مَنْ نَزَّلَ فِي حِمَايَةِ رَجُلٍ أَوْ جَمَاعَةٍ . وَالْجَارُ
الْعَابِدُ الَّذِي اعْتَكَفَ فِي الْهِيَكَلِ أَوْ الْمَسْجِدِ أَوْ الْبَلْدِ الْمَقْدَسِ ؟
فَهَنَاكَ التَّعْبِيرُ الْمَعْرُوفُ : جَارُ اللَّهِ وَجَارُكَ !

ومن المدارك في الجذر «جار» الْهَرَبُ (بِمَعْنَى الْمِيلِ عَنْ
مَكَانِ الْخُوفِ) لِاتِّصَالِ الْجَذْرِ «جار» (أَوْ جَوَرَ) بِالْفَعْلِ وَجِرَاجِرُ
(مِنْ بَابِ فَرَحٍ) . وَمِنْ الْمَدَارِكِ فِيهِ أَيْضًا «تَجْمَعٌ» لِاتِّصَالِهِ
بِالْجَذْرِ «أَجَرٌ» .

وَأَرَى أَلَا أَسْتَطِرُدُ هُنَا إِلَى الْجَذْرِ «زَوَرٌ» .

ولكلمة «جار» في الشعر الجاهلي معانٍ :

١ - الجار : الذي يُجاورك بيت بيت :

وأمنع جارَ الْبَيْتِ مَا يَنْبُوْهُ (أبو مِحْجَنْ).

^(١) ولا أقول لجاري البيت يتبعني: نَفْسٌ مَحِلُّكَ ، إِنَّ الْجَوَّ مَحْلُولٌ
((طفيل الغنوبي))

٢ - من يكون في المحلّة ليس قريباً من بيتك ضرورةً :

ثُمَّ أَطْعَمْتُ زَادِي ، غَيْرَ مُدَّحِّرٍ أَهْلَ الْمَحْلَةِ مِنْ جَارٍ وَمِنْ جَادِ^(۲)
(سِنَانُ بْنُ أَبِي حَارَثَةَ)

بَلْ لَا نَقُولُ، إِذَا تَبَوَّأْ جِيرَةً إِنَّ الْمَحَلَّةَ شَعْبَهَا مَكْدُودٌ
(معاوية بن مالك)

٣ - من الجوار ما يقربُ من منزلك أو منزل أهلك :

ديارُهُمْ إِذْ هُمْ لَا هُكَ جِيرَةُ (النابغة)

- أَجَدّكُمَا ! لَمْ تَعْلَمَا أَنَّ جَارَنَا أَبَا الْحِسْلِ بِالصَّحْرَاءِ لَا يَتَنَوَّرُ (٣)

(حماسة أبي تمام)

(١) **الجو**: مكان مخصوص في الباذة ، ينبع فيه ماء ، ويكون مرغوبا في السكنى .

محلول : يحله ، يتذل فيه ، يسكنه (أناس) :

(٤) جاد اسم فاعل من جدا (أعطى) . والجادي (هنا) : طالب الجندي (العطاء) .

(٣) أبو الحسل (الضب) : دويبة تشبه الحرذون ، وهي أكبر منه . تنور (هنا) : أزال
الشعر من أماكن معينة من جسمه بالغزارة (بضم التنون : الكلس) .

مُجاوِرُ قومٍ لَا تَزَارُ بَيْنَهُمْ؛ ومن زارهم في دارهم زار همدا^(١)
(حماسة أبي تمام)

- وَهُمْ رَبِيعُ الْمُجاوِرِ فِيهِمْ (لبيد) .

٤ - وليس من الضروري أن يكون الجوار دائمًا متصلًا :
فَقَدْ جَاءَتْ أَقْوَامًا كَثِيرًا فَلَمْ أَرْ مُثَلَّكُمْ حَزْمًا وَبِاعًا^(٢)
(مسير بن النعمان)

لَعْمَرِي، لَقِدْ جَاءَتْ فِي حَيِّ عَامِرٍ لِأَدْرِكَ ثَارِي مِنْهُمْ - حُجُجًا خَمْسًا^(٣)
(حماسة البحترى)

نَزَّلْتُ عَلَى عَمِّي وَبْنِ دَرَمَاءَ بُرْهَةً؟؛ فِيَا حُسْنَ مَا جَارٍ وَيَا حَسْنَ مَا فَعَلَ! (امرؤ القيس)

وَقَدْ حَادَرُوا مَا لِلْجَارِ وَالضَّيْفِ مُخْبِرٌ، إِذَا فَارَقَاهُ؛ كُلُّ بِذَلِكَ مُولَعٌ
(طفيل الغنوبي)

٥ - وقد يلتقي الجاران في مكان ما :
أَجَارَتَنَا، إِنَّا غَرِيبَانِ هُنَّا وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبٌ
(امرؤ القيس)

٦ - الجار : الذي يأتي ليجار (ليستجير) :

(١) هَمَدْ جَمِيعُ هَامِدْ (سَاكِنٌ، لَا يَتَحَرَّكُ) : مَيْت (بِسْكُونِ الْيَاءِ) .

(٢) حَزْمًا (فَصْلًا فِي الْأَمْرِ) . بَاعًا (سَعَةُ صَدْرٍ) .

(٣) الْحَجَّةُ : السَّنَةُ .

وكنت إذا جاري دعا لمضنة أشمر حتى ينصلف الساق مثزمي^(١)
 (الهذلي) في تاج العروس (المعجم الوسيط بالفتحة)

وجاري سار معتمدا إليكم أجاءته المخافة والر جاء (زهير)
 - نحمي حقيقتنا ونمتنع جارنا (عيبد بن الأبرص)

ولا آذنوا جاراً فيظعن سالمما^(٢) لدی باب هند إذا تجرّد قائمما^(٣)
 ولا فعلوا فعل العوّير بجاره (أمرؤ القيس)

٧ - زوج الرجل (امرأته) وحبيبه :
 أيا جارتا ، ببني فلنك طالقة ومؤومة - ما دمت فينا - ووامقة^(٤)
 (الأعشى)

- يا جارتا ، ما أنت جارة بانت لتخزننا عفاره
 (الأعشى)

آذنت جارتي ببن رحيلي باكراً جاهرت بخطب جليل
 أزمعت بالفارق لما رأتنى أتلف المال لا يذم دخيل^(٥)

(١) مضنة (فتح فتح) : الشيء يضر أو يدخل به - إذا دعاني أحد إلى مساعدة في أمر صعب) أشمر ... (أبدل الجهد في مساعدته).

(٢) ربهم : سيدهم (الملك عليهم) . الريب (الذي تربى معك ، عاش معك) . طعن : رحل .

(٣) هند (عمرو بن هند ؟) تجرّد قائمها (في الدفاع عن أتباعه) .

(٤) بان : ابتعد ، فارق . مؤوم : محظوظ . وامق : محظ.

(٥) لا يذمني دخيل^ي (الذي استجار بي) لأنني أكرمه .

أَرْبَعِي ، إِنَّمَا يَرِيكَ مِنْيَ^(١)

(المرقش الأصغر)

... .^(٢)

طَمِعْتُ ، فَهَبْهَا نِعْمَةُ الْعِيشِ زَلَّ
... .

بِرْيَحَانَةٍ رِيحَتْ عِشَاءً وَطُلَّتْ^(٣)

(الشنفرى)

أَلَا أُمْ عَمِّرِي وَأَجْمَعْتُ وَاسْتَقْلَتِ
فَوَاكِبِي عَلَى أَمِيمَةَ بَعْدَمَا
فِي جَارِتِي ، وَأَنْتِ غَيْرُ مُلِيمَةِ
فِتْنَتَا كَأَنَّ الْبَيْتَ حُجَّرَ فَوْقَنَا

وَقْلَبَكَ فِي الظَّعَائِنِ مُسْتَعْلَرٌ^(٤)
بِجَارَتِنَا فَقَدْ حَقَّ الْحَذَارِ

- أَلَا بَأَنَّ الْخَلِيلَ وَلَمْ يُزَارُوا ،
أَحَادِيرُ أَنْ تَبَيَّنَ بَنُو عَقِيلِ
وَفِي الإِظْعَانِ آنَسَةَ لَعْوبَ
فِتْ مُسَهَّدًا أَرْقًا كَأَنِّي

(بشر بن أبي خازم)

- وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ كَلْمَةَ « جَارٌ » لِلْحَبِيبَةِ نَشَأَتْ مِنْ « الْجِوارِ »
وَكُثْرَةِ الْمُخَالَطَةِ :
غَيْبَتْ بِذَلِكِ إِذْ هُمْ لَكَ حِيرَةٌ
مِنْهَا بِعَطْفِ رِسَالَةٍ وَتَوَدَّدَ
وَلَقَدْ أَصَابَ فَؤَادَهُ مِنْ حُبَّهَا

(النابغة)

(١) رَبِيعٌ : أَقَامَ وَاطْمَانَ . رَابِهُ : أَدْخَلَ الشَّكَّ فِي نَفْسِهِ .

(٢) أَجْمَعَ (عَزْمٌ) وَاسْتَقْلَ (ذَهْبٌ ، وَرَحْلٌ) .

(٣) ... جَمَعْ فَوْقَنَا الرِّيحَانَ (نِباتَ طَيْبِ الرَّائِحةِ) . رِيحَتْ (اَشْتَدَتْ رَائِحَتِهِ ؟) .
طَلَّتْ : أَصَابَهَا الطَّلَّ (النَّدَى) . - أَصَبَعَ مَسْكَنَا طَيْبَ الرَّائِحةَ بَارِدًا بِلِيلًا .

(٤) بَانَ : ابْتَدَعَ . الْخَلِيلُ : السَاكِنُ مَعَكَ . الْظَّعِينَةُ (الْمَرْأَةُ الْمَسَافِرَةُ) .

٩ - الجار الغريب :
يتساهمنَ كِرَامٌ مَا يَذْهَمُهُمْ جَارٌ غَرِيبٌ وَلَا يُؤْذِي لَهُمْ حَشْمٌ
(زياد بن حمل)^(١)

- فالضيف والجار الغريب كأنما هَبَطَا تَبَالَةً مُخْضِبًا أَهْدَأُهُمَا^(٢)
(لبيد)

١٠ - الجارتان . تُرْفَعَ الْقَدْرُ فَوْقَ النَّارِ عَلَى ثَلَاثَةِ حِجَارَةٍ يُقَالُ
لكلَّ حجرٍ مِنْهَا أُثْفَيَةٌ .

فالحجران . المتقابلان جارتان ؛ والحجر الثالث (الخلفي)
ثالثة الأثافي (بتشديد أو بلا تشديد) :

أَقَامْتُ عَلَى رَبْعَيْهِمَا جَارَتَا صَفَا كُمِتَ الْأَعْلَى جَوْنَتَا مُصْطَلَاهُمَا^(٣)
(الشماخ)

١١ - الجيرتان : الْكَفَالَةُ وَالتَّلَاءُ (الولادة والذمة أو الجوار)
جِوَارٌ شَاهِدٌ عَدْلٌ عَلَيْكُمْ ؛ وَسِيَانُ الْكَفَالَةِ وَالتَّلَاءِ
بِأَيِّ الْجِيرَتَيْنِ أَجْرَرْتُمُوهُ فَلَمْ يَصُلُّحْ لَكُمْ إِلَّا الْأَدَاءُ^(٤)
(زهير)

(١) الحشم : الحاشية ، الاتباع ، الخدم .

(٢) تبالة : اسم مكان . الأهداب (الأطراف) ينزل الصيف عليهم في خصب
كثير .

(٣) كميته : أحمر . الجون : الأسود . المصطل : المكان تصل إليه النار . الصفا : الصخر
. . . .

(٤) الأداء : دفع المتوجب على الإنسان عليكم أن تقوموا نحو هذا الجار بما كنتم
قد وعدتموه به .

١٢ - الخلط المجاور :

فظلَّ عُفَّاً مُكْرِمَينَ ، وطابخِي
فريكانَ مِنْهُمْ بَيْنَ شَاوٍ وقادرٍ^(١)
شَامِيَةٌ لَمْ يَتَخَذْ لَهُ حَاسِرَ الطَّ
بِيجُونَ لَا ذَمَّ الْخَلْطِ الْمُجَارِ^(٢)
(حاتِم)

١٣ - الْجَارُ ذُو الْقُرْبَى وَالْجَارُ بِالْجَنْبِ وَرَدَتَا فِي الشِّعْرِ ، راجِعٌ
أيضاً الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ (٤ : ٣٥) :

١٤ - المستجير : المستغيث :

الْمُسْتَجِيرُ بِعُمُرٍ وَعِنْدَ كَرْبَتِهِ كَالْمُسْتَجِيرِ مِنَ الرَّمَضَاءِ بِالنَّارِ^(٣)

١٥ - قد يكون الرجل جاراً في قوم ثم يعتقدون له عقداً
ويُعاهدونه تأكيداً للدفاع عنه :
إذا عَقَدُوا بِلَجَارٍ أَخْفَرُوهُ
كما غَرَّ الرِّشَاءُ مِنَ الذَّنْوَبِ^(٤)
(بشر بن أبي خازم)

١٦ - الْجَارُ الْمُجَارِ :

وَلَا أَنْتَمِي إِلَّا بِلَجَارٍ مُجَارِ، فَمَا آخِرُ العِيشِ الَّذِي أَتَنْتَظِرُ !
(عروة بن الورد)

(١) العافي : طالب المعروف . الشاوي : الذي يشوي اللحم . القادر : الذي يطبخ

(٢) (اللحم) في القدر (يسلقه) .

...

(٣) الرمضان : الرمل الحار .

(٤) أَخْفَرُوهُ : نقضوا عهدهم له . غَرَّ (بالبناء للمجهول) : قطع . الرِّشَاءُ : الجبل الذي يستخدم في الاستقاء من البئر . الذَّنْوَبُ : الدلو العظيمة إذا قطع الجبل من الدلو بطل أن يكون الدلو آلة لسحب الماء من البئر .

هذه الشواهد ، في الجار ، مجموعة من حماسة أبي تمام ، حماسة البحترى ، مختارات الشجري ، المعلقات (الزوذنى) ، المفضليات ، جمّهرة أشعار العرب ، بعض سيرة ابن هشام ، خمسة دواوين العرب ، ثم من الدواوين التالية : امرئ القيس ، عَبِيدُ بْنُ الأَبْرَصِ ، النابغة ، طُفْيلُ الْغَنَوِيَّ ، عَامِرُ بْنُ الطَّفْلِ ، عَتْرَةُ ، زَهْرَةُ ، الْخَرِيقُ أَخْتُ طَرَفَةَ ، أَبُو مُحْجَنٍ الثَّقْفِيُّ ، عَلْقَمَةُ الْفَحْلِ ، بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ ، عُرْوَةُ بْنُ الْوَرَدِ .

ثم إن هذه الشواهد في «الجار» مجموعة عندي منذ عام ١٩٣٢ ، ولكنني أضفت إليها بيتين أو ثلاثة من ديواني بشير بن أبي خازمٍ وعُرْوَةُ بْنُ الْوَرَدِ .

والغاية من هذا المقال كله محاولة دراسة الكلمات دراسة قائمة على الصلة المعنوية بين الجذور ، لا على ظاهر الرسم للأحرف . ولعل الهدف الأقصى لمثل هذا العمل إنما هو إيجاد قاموس مبني على القرابة بين جذور اللغة ثم الكشفُ ما أمكن عن المدارك الأصلية في اللغة وعن الجذور التي كانت تعبّر عن تلك المدارك .

غير أن هذا المقال قد يكشفُ عن مشكلتين . أما المشكلة الأولى فهي تداخلُ الجذور . وذلك أنني أتخيل جذور اللغة نهرًا كبيراً تصبُ فيه ، في أثناء سيره الطويل ، روافدٌ مختلفةٌ تأتيه من منحدراتٍ قريبةٍ وبعيدةٍ ، كما تنفصل منه غُدرانٌ كثيرةٌ : بعضها يضيع وشيكاً ، وبعضها يُصبح روافدَ لأنهارٍ أخرى ، وبعضها الآخر يعود أدراجه إلى نهره ولكن بعد أن يكون قد تبدل قليلاً أو كثيراً بعوامل لا تُعد ولا تحصى .

من أجل ذلك نرى أن عملَ واسعِ القواميس ، أو عملَ دراسِ اللغات، عملٌ ذو أوجه متعددة : إنَّ على كلِّ واحدٍ منها في بعض تلك الأوجه أنْ يُمِيز ماءَ النبع الأصليَّ من مياهِ الروافد المختلفة . وإذا لم يكن من شأنه هو أنْ يُعْنِي بالغُدران - إلا ليُحدَّد الزَّمَن الذي مات فيه عدُّ من الألفاظ والجذور ثم خَرَجَ من الاستعمال - فإنَّ عليه أنْ يُميِّز أيضًا بين الروافد الحقيقة والروافد التي كانت من قبْلِ غُدراناً .

تلك بلا ريب مشكلةٌ معقدةٌ .

وأما المشكلة الثانية فهي أشدُّ تعقيداً :

إذا كانت اللغةُ العربية لغةً أعرابيةً ، فكيف نَجِدُ فيها جُذورًا ليست في ما بقيَ لنا من مصادِر اللغات الأعرابية الأخرى ؟
- أنكفي بأن نقول إنَّ اللغاتِ الأعرابية الأخرى قد ضاع منها أشياءٌ كثيرةً ؟

- أيكفي أن نقول إن هذه الجذور قد نبعت في لُغتنا العربية مستقلةً عَنْ قَبْلَها وعَنْ حَوْلَها ؟

- أيجوز أن نقول إن اللغةُ العربية قد استعارت ألفاظًا غيرَ أعرابية ثم عَرَبَتها حتى أصبحت تبدو عربيةً خالصةً ؟

- أيحسُّنُ ألا نرى في الموضوع مشكلة وأن نقول عن هذه الجذور : هكذا وردت !

- أيكن أن نَجِد بعدَ محاولةِ الجواب على هذه الأسئلة أساساً حلّ نوعٌ آخرٌ من المشاكل في تعليمِ اللغةِ وصَرْفِها ونَحْوِها فنُزِيلَ

كثيراً من الشكاوى التي تُضمر وتُعلن - بشأن صعوبة اللغة العربية -
حقاً أو باطلأ؟

إنَّ أمَّا مَجْمِعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْيَوْمَ - وَهُوَ فِي سَبِيلِ وَضْعِ المَعْجمِ التَّارِيخِيِّ - فَرَصْبَةٌ سَانِحةٌ لِدِرَاسَةِ هَذِهِ الْمَشَاكِلِ وَلِدِرَاسَةِ مَشَاكِلٍ أُخَرَ ، فَعُسِّيَ أَنْ تَتَوفَّرَ الجُهُودُ عَلَى مَثْلِ ذَلِكَ وَأَنْ يَكُونَ المَعْجمُ التَّارِيخِيُّ * فَجَرَأً جَدِيداً لِلدِّرَاسَاتِ الْلُّغَوِيَّةِ عِنْدَنَا .

(*) أصدر مجمع اللغة العربية (القاهرة) الجزء الأول من «المعجم الكبير» (حرف الألف)، عام ١٩٧٠ م.

مِنْ أَحْمَلِ الْقِيَاسِ فِي تَارِيخِ الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ

اللغة من نطاق الرواية من جيلٍ سابقٍ إلى جيلٍ لاحقٍ على الألسنة . وعند تقليب النظر في ألفاظ اللغة وتراتيبيها وصرفها ونحوها يجب علينا أن نقبل هذه كلّها كما وردتْ ثم وصلتْ إلينا . - وإذا نحن سأّلنا - ونحن نرجّع البصرَ في وجه من وجوده اللغة - وقلنا : لماذا ؟ فإننا نقصدُ أن نسأل كيف أتفق ذلك ، ولا نقصدُ أن نعرف سبب ذلك .

والذي عليه العلماء أن نشأة اللغة بألفاظها وتراتيبيها ثم تفرّعها لغاتٍ لم يخضعُ (في الأكثر) لنظامٍ منطقيٍ ولا لاتجاه عقليٍ . وإنما كانت نشأة اللغة وتشعبُ اللغاتِ أمراً متعلقاً بالأحوال النفسية والاجتماعية للإنسان عامةً ولكل جماعةٍ من الجماعات اللغوية خاصةً . ولو أن اللغاتِ كانت خاضعةً لقواعدَ من المنطق لوجبَ أن يكون لكل لفظٍ عام في عددٍ من اللغاتِ معنىً واحداً في

(*) بحث ألقى في مجمع اللغة العربية (القاهرة) ، في السادس عشر من شوال من سنة ١٣٨٣ (٢٩ / ٢ / ١٩٦٤ م) .

تلك اللغات ، ولما وجدنا مثلاً أن الكلمة « راز » تعني في العربية : قَدَرْ ، اخْتَبَرْ ، وهي في الفارسية « سِرْ » وهو المفرد من « أسرار » ، ثم هي في الفرنسية « حَلَقْ ». ولقد كان من باب أولى لأنَّه في اللغة الواحدة لفظاً واحداً يدل على معانٍ كثيرة متقاربة في المعنى أو مختلفة المعاني أو متناقضة المعاني ككلمة « عين » أو الكلمة « حال » في اللغة العربية مثلاً .

ولكن يبدو أن كل لغة قد اتخذت في بعض أدوارها المتأخرة جانباً من المنطق الصناعي نشأت به قواعدها . إن مجيء كل فاعلٍ مرفوعاً حُكْمًا ، وكل مفعولٍ منصوباً ، وكل مسبوقٍ بحرف جر مجروراً ، دليل على وجود نظام منطقي تفرق به تلك الأحوال من الإعراب . ولا ريب أيضاً في أن تلك الأحوال كانت في أول الأمر لا تفاوت فيها ، ثم حدث التفاوت فيما بعد .

ويمى أن اللغة في الأصل من نطاق العالم الاجتماعي والفساني للإنسان ، لا من نطاق العالم العقلي المنطقي ، فإن المنطق كان قليلاً الأثر في سَكَ الكلمات وبناء التراكيب عند أمِنَ اللَّبَسِ في نقل المعنى المراد من القائل إلى السامع . إن الشاهد اللغوي : « دخل الخاتم في إصبعي » ، أو « خرق الثوب المسمار » ليس لعبةٍ من ابتكار النحاة ، ولكنه دليل على اتجاه في الوضع اللغوي للتعبير عن المدارك والمعاني . وتطرَّفَ نفرٌ من النحاة فقالوا بجواز نصب الفاعل ورفع المفعول إذا أمِنَ اللَّبَسِ في مثل قولنا : بل الماء الورق أو أكل الطفل الذئب ، ذلك لأن المعنى المراد واضح مهما تقلب كلمات الجملة في أحوال الإعراب ومهما تختلف في الترتيب تقديمأً وتأخيراً .

ويبدو أن الإنسان قد أدرك هذه الخاصية في اللغة فأخذ من ذمِنٍ بعيد جداً يفارق المنطق ، لأن ذلك المنطق كان يُورثُ اللغة طويلاً لا حاجة إليه في التعبير عن المراد ثم يورثها أيضاً قساوةً في ذلك التعبير .

وفي مفارقة ذلك المنطق جعل الإنسان يميل إلى الاختصار والموسيقى . وفي هذا الانتقال من المنطق إلى الموسيقى خاصةً ما نسميه « القياس ». لقد أراد الإنسان أن يقطع ميدانَ المنطق الواحد الشامل وحداتٍ خاضعةً لأوجهٍ من المنطق أضيقَ نطاقاً في اللغة ، إذا كان ذلك التضييق يمكنه من أن يجعل تعبيره أقلَّ طويلاً وألينَ ترتيباً من غير أن تفقد تلك التعبير شيئاً من دقة الأداء أو من قوة الأداء : لقد فضلَ الإنسان في لغته الموسيقى على المنطق ما أمكن .

وندرس نحن انتقالَ الإنسان في لغته من المنطق إلى الموسيقى - وهو ما أحببْتُ أن أسمّي به القياس - فإذا بنا نجدَه يقع في اللغة العربية في ثلاثة أطوار أساسية :

١ - هنالك الطورُ السابقُ لتاريخنا والذي خرجتْ في أثنائه لغتنا من أن تكون أعرابية إلى أن تُصبحَ عربية .

٢ - الطور الجاهلي ، وهو الذي تعرضتْ اللغةُ العربية في أثنائه للتخلُّلِ من عددٍ من قواعدِ الطور الأول كثيراً أو قليلاً . في هذا الطور بلغ العاملُ الموسيقي أوجَ أثرِه . ونحن نجد صورةً لغتنا العربية في طورها الجاهلي هذا في الشعر الجاهلي وفي القرآن الكريم . غير أن الجانبَ القرآنيَّ من تلك الصورة أصدقُ من

الجانب المحفوظ لنا في الشعر الجاهلي ، ذلك لأن الشعر الجاهلي قد خضع في أثناء روايته خلالَ القرون الثلاثة التي امتدت من نهاية الجاهلية إلى عمْرة العصر العباسي لمؤثِّراتٍ كثيرة .

إن هذين الطورين كانوا طورين عربين خالصين خضعتْ في أثنائهما اللغةُ العربية لعقرية العرب وحدها وللندوق العربي وحده . إن اللغة التي رُويَتْ لنا من ذِيئنَكَ الطورين كانت لغة البدائية البعيدة عن عوامل العجمة التي كانت تمثل في لغات القرى (المدن) وفي لغات القبائل التي خالطت الأعاجم أصلًا كالفرس والروم أو خالطت الأعاجم حُكمًا كالأحباش والأراميين .

٣ - الطور المتأخر بعد الإسلام ، وهو الذي يجوز لنا أن نسميه الطور الأعجمي ، لأن المسوَّغ الأول للقياس في هذا الطور كان طُرُوة اللحن على اللغة العربية من تكاثُر غير العرب في البلاد الإسلامية . أضف إلى ذلك أن علماء اللغة ، في ذلك الطور - وفيهم الذين اهتموا بالقياس - كانوا من غير العرب في الأكثر . ونحن ، وإن كنا لا ندفع أولئك العلماء الأعلامَ عن البراعة في علم اللغة ، فإننا لا نستطيع أن نجعل قيمة عملهم على مستوى واحد مع عمل العرب أنفسهم في الطورين السابقين ، هذا إلى جانب أن العمل في الطورين السابقين كان عملاً جماعياً للأمة العربية بينما هو في الطور اللاحق المتأخر عملُ أفرادٍ معدودين .

ولقد رأيتُ أن أقصرَ أنا بحثي على الطورين الأولين ، إلا إشارةً واحدةً عامَّةً إلى القياس العباسي .

١ - في القياس الأول القديم . . . طور ما قبل العربية .

إذا كان الفعل ثلاثة فالمنطق يقضي أن تبقى الأحرف الثلاثة ظاهرة في جميع تصاريف ذلك الفعل ، وأن يجري التصريفُ مجرّى واحداً في جميع الأفعال ، فكما نقول فَعَلَ يَفْعُلُ ونقول قياساً على ذلك نَصَرَ يَنْصُرُ ، فيجب أن نقول : هو تَلَوْ ، هي تَلَوْتُ ، هم يَتَلَوُونَ ، كما لا يزال الأحباش يقولون أو قريباً من ذلك . ولا غرابة في ذلك ، فنحن العرب لا نزال نقول : هما تَلَوا ، هما تَلَوْتَا ، هن تَلَوْنَ ، وكذلك يقضي المنطق أن نقول : رَمَيْ ، يَرْمِيْ ، يَرْمِيُونَ ، والأحباش - وهم أعرابيون مثلاً - يقولون مثل هذا أيضاً . ونحن العرب لا نزال نقول في الفعل الناقص : رَمَيَا ، يَرْمِيَانَ ، تَرْمِيَانَ . ويبدو لي أن هذه القاعدة المنطقية قد عاشت إلى الجاهلية القرية ، وإلا فكيف نعمل الرسم في السورة الواحدة والتسعين من المصحف (سورة الشمس) ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ والشمسِ وضُحْيَهَا ، والقمرِ إِذَا تَلَيَهَا ، والنَّهَارُ إِذَا جَلَّيَهَا ، وَاللَّيلُ إِذَا يَغْشِيَهَا ، وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَيَهَا ، وَالأَرْضُ وَمَا طَحَيَهَا ، وَنَفْسٌ وَمَا سَوَيَهَا ، فَأَلَّهُمَا فُجُورَهَا وَتَقْوِيهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مِنْ زَكَيَهَا وَقَدْ خَابَ مِنْ دَسَيَهَا . كَذَبْتُ ثَمُودُ بَطْغَوْيَهَا ، إِذَا ابْعَثْتَ أَشْقِيَهَا ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ : نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَهَا . فَكَذَبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسُوَيَهَا ، وَلَا يَخَافُ عَقَبَهَا ﴾ .

في هذه السورة الكريمة نجد الواو والياء في الاسم المتفاوت وفي مضارِي الفعل الناقص ومُضارِعه مُثبتتين ياء بلا استثناء . ثم إن نفرأ من القراء يقلِّبون هاتين الواو والياء ألفاً ، بينما

نفرٌ آخرُونَ مِنْهُمْ يَجْعَلُونَهُمَا مُمَالِتَيْنَ بَيْنَ الْأَلْفِ وَالْبَاءِ . وَسُورَةُ الشَّمْسِ لِيُسَتِّ السُّورَةَ الْوَحِيدَةَ الَّتِي تَضُمُّ مثْلَ هَذِهِ الْقِرَاءَةِ .

فَالْعَرْبُ ، إِذْنَ قَدْ ظَلُوا إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ يُجْرِوْنَ الْأَفْعَالَ النَّاقِصَةَ مَجْرِيَ الْأَفْعَالِ السَّالِمَةِ فِي التَّصْرِيفِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقْدَحُ فِي هَذَا الْحُكْمِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لُغَةً فِي قَبِيلَةِ أَوْ قَبَيلَتَيْنِ .

غَيْرَ أَنَّ الذُّوقَ الْعَرَبِيَّ قَدْ اخْتَارَ مِنْ الزَّمْنِ الْأَبْعَدِ أَنْ يُجَانِبَ الْمَنْطِقَ فِي بَعْضِ الْلُّغَةِ وَيُمْلِيَ إِلَى الْمُوسِيقِيِّ فِي الْلُّفْظِ فِي كُلِّ لُفْظٍ تُكْسِبُهُ تَلْكَ الْمُوسِيقِيَّ خِفَّةً وَجَمَالًا . وَهَكُذا صِرَنَا نَقُولُ : تَلَّا ، تَلَّتْ ، تَلَّوا ، تَلَّوْنَ ، ثُمَّ أَصْبَحَ هَذَا الْقِيَاسُ فِي الْفَعْلِ النَّاقِصِ قَاعِدَةً فِي الْعَرَبِيَّةِ نَقُولُ عَلَى أَسَاسِهَا : رَمَى ، رَمَتْ ، رَمَوْا ، - عَدَا ، عَدَتْ ، عَدَوْا ، سَمَّا ، سَمَّتْ ، سَمَّوْا ، الْخَ . وَلَا تَجُوزُ الْمُخَالَفَةُ فِي ذَلِكَ ، لِأَنَّ هَذَا الْقِيَاسُ هُوَ الَّذِي خَرَجَ بِتَلْكَ الْأَفْعَالِ مِنِ الْاِشْتِرَاكِ مَعَ عَدِّ مِنِ الْلُّغَاتِ الْأَعْرَابِيَّةِ إِلَى الْاِنْفِرَادِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ .

وَكَذَلِكَ اخْتَارَ الذُّوقُ الْعَرَبِيُّ ، وَمِنْذُ الزَّمْنِ الْأَبْعَدِ أَيْضًا ، أَنْ يَفْتَحَ حَرْفَ الْمُضَارِعَةِ فَنَحْنُ الْيَوْمَ نَقُولُ : أَنْصَرُ ، تَكْتُبُ ، نَشَرَبُ ، يَذْهَبُونَ . أَمَّا الْأَشْوَرِيُّونَ فَوَصَّلُ إِلَيْنَا حَرْفَ الْمُضَارِعَةِ مُؤْرَقاً عِنْهُمْ بَيْنَ الْفَتْحِ وَالْكَسْرِ . وَالْأَحْبَاشُ اخْتَارُوا الإِمَالَةَ ، وَالْعَبْرِيُّونَ اخْتَارُوا الْكَسْرَ فِي الْأَكْثَرِ وَالْإِمَالَةِ أَحياناً . وَاخْتَارَ الْأَرَامِيُّونَ الشَّرْقِيُّونَ الْكَسْرَ . أَمَّا الْأَرَامِيُّونَ الْغَرْبِيُّونَ الْمُعْرُوفُونَ بِالسُّرْيَانِ فَاخْتَارُوا الإِمَالَةَ .

وأما نحن العرب ، ف يجعلُ القاعدة الالزمه في حرف المضارعة الفتح فقط قياساً لازماً وإذا قيل لنا إن قبيلة عربية كانت تخالف ذلك ، أو لا تزال تخالف ذلك كبني تميم الذين يكسرون حرف المضارعة ، فإننا نعد ذلك من تلك القبيلة العربية عملاً شادداً لا يقاس عليه وغير ملزم لنا في لغتنا الفصحى في شيء ، إلا في فعل واحد « إحال » فإننا نكسر فيه حرف المضارعة .

وفي اللغة العربية أمورٌ كثيرة جدأً فارقَ العربُ فيها المنطقَ إلى الموسيقى ، منذ الزمن الأقدم كالمبنيات والممنوعات من الصرف والمقصورة والمنقوص والممعنل الكلمات التي وقع فيها الإبدال والإدغام ثم المثنى والجُمُوع السالمية للمذكر والمؤنث . إن هذا الذي اتفق للمبنيات والممنوعات من الصرف وللمعلومات ولجمع المؤنث السالم كان مفارقةً للمنطق وخروجاً على القاعدة العامة حباً بالموسيقى وبالتألف في اللفظ ، أو هو في عرفاً « خطأ ». ولكن هذا الخطأ لما عُمّ قصدًا ثم تناول جانباً معيناً من اللغة لم يغادر في نطاقه شيئاً يدخل في نطاق آخر كان قاعدةً فرعيةً صادقةً وبطلً أن يكون خطأً فعدناه نحن قياساً وقاعدةً جديدةً . والدليل الشكلي على أن ذلك لم يكن خطأً أن العربيً كان يعلم في أثناء ذلك أنه يخالف القاعدة في سبيل شيء له قيمة القاعدة . ولما جاء النهاية يخرجون أوجه إعراب هذه الكلمات كانوا واعين بذلك وعيًّا تماماً . إن قول النهاية في إعراب « كتابي جديد » : كتاب : مبتدأ مرفوع بالابداء ، وعلامة رفعه الضمة المقدرة على ما قبل الآخر منع من ظهورها اشتغال المحل بحركةٍ مُناسبة ، أو بالحركة المناسبة للباء ، وهي الكسرة ، قول لخص لنا مفارقة المنطق في سبيل

الموسيقى تلخِيصاً بارعاً جدّاً ودلّ على أنّ العربيَ القديم لما اختار أن يقول كتابي كان يُدركُ أنّ حقَّ الباء في «كتابي» هو الضم ، ولكنه مالَ عن الضمِ إلى الكسرِ عمداً في سبيل تسهيل اللفظِ وتحسينه في رأيه .

ووقفت العبرية العربية ، في الزمن الأبعد أيضاً ، من الفعل المضف عدّ ، فرّ ، قصّ ، حلّ ، سنّ ، الخ . موقفاً أعطاناً ثلاثة قواعد فرعية .

(أ) إدغام المضاعفين ، فنقول مثلاً : عدّ ، عدا ، عدوا ،
يعدّون ، لن يعدّ ، لن يُعدوا ، لا غيرَ فيها وفي مثلها .

(ب) فك المضاعفين ، فنقول مثلاً : هنَّ يعْدُون ، أنتما
اعدُّا ، أنتن اعْدِدُن ، لا غيرَ فيها .

(ج) ترك الحرية في الإدغام وفكه ، فنقول مثلاً : لم يعْدَ
ولم يعْدُ ، أو لم يُعَدَ ، ولم يُعَدْ ، وعدو واعدُ أو أعدُ وأعدُّ .

ويأتي الشاعر الجاهلي قعنُب بنُ أمِّ صاحب التميي ، وهو في الحماسة شاعر إسلاميٌّ من شعراء العصر الأموي (الحماسة ١ : ١٧٩) فيقول (سيبوه ١: ٨) :

إني أجودُ لأقوام وإنْ ضئنا

فك الإدغام في «ضئنا» حيث لم تفُك العبرية العربية الأولى ، فنجعل نحن فك الإدغام هنا خطأ شخصياً لا يسامح قائله ، حتى إن أبا تمام لما اختار لقعنُب الأبيات التي منها هذا البيت حذف هذا البيت لورود كلمة «ضئنا» فيه ، على ما أعتقد .

ولما خرج الفعل « هَلَكَ » من النِّطاق الأعرابي العام إلى النِّطاق الخاص حدث فيه نزاع يتعلق بعين الفعل . إن الفعل « هَلَكَ » معناه في الأخوات الأعرابيات : ذهب مضى ، سار . وعلى هذا يُتَنَظَّر ، جريأً على القاعدة العامة ، أن يكون من باب « نَصَرَ » أو من باب « ضَرَبَ » لأن المعنى فيه متعلق بحركة مادية . ولكن الفعل الأعرابي « هَلَكَ » تبدل في اللغة العربية بمعناه الحقيقي الأول معنىًّا مجازياً جديداً هو : مات ، اندثر ، الخ . من أجل ذلك كان من المُنْتَظَر أن تتغير حركة عين الفعل في الفعل « هَلَكَ » مع تغيير معناه . لذلك نجد في القاموس (٣٢٤ ، ٣) أن الفعل هَلَكَ من باب ضَرَبَ وَمَنَعَ وَعَلِمَ . غير أن الأفصح أن يكون من باب ضَرَبَ وعلى هذا الباب ورد هذا الفعل في القرآن الكريم مرات منها قوله تعالى في سورة الأنفال (٨ : ٤٣) « لَيَهْلِكَ مِنْ هَلَكَ عَنْ بَيْتَهُ ». أما العامة فاختاروا أن يجعلوا هذا الفعل من باب علم . وهكذا نجد أن الفصاحة تمسكت بحركة العين في هذا الفعل كما كانت في الأصل ، ثم أجازت تبدل الحركة بحسب المعنى الجديد . أما العامة فاختاروا أن يتقيدوا في عين الفعل من « هَلَكَ » بالمنطق الجديد فهم يقولون هَلَكَ يَهْلِكُ من باب علم * .

(٢) في القياس الجاهلي :

وفي الجاهلية القرية منا خالف العرب المنطق في اللغة . وسألتك ما ورد في ذلك في الشعر الجاهلي لأنه قد يكون خطيئةً من

(*) راجع ، فوق ، ص ٤٨ - ٥٠ .

شاعر ، كما كان الشأن في الكلمة « ضئنوا » أو خطأ في الرواية ثم أكتفي بما ورد من ذلك في القرآن الكريم .

في الممنوع من الصرف كَلِمَةُ « أشياء » ولا وجه ظاهراً أو خفياً لمنعها من الصرف . وإذا نحن راجعنا ما جاء في شأن منعها من الصرف واكتفينا بما جاء في القاموس للفيروزابادي ثم في تاج العروس للمرتضى الزبيدي أدركنا تعثّر اللغويين والنحاة في تحرير معها .

يقول الفيروزابادي (١ : ١٩ - ٢٠) :

قول الجوهرى إن أصل « أشياء » أشائى بالهمز خطأ
وحكى أشایا ، وأشاوه غريب ، لأنه ليس في « الشيء »
هاء وحكاية الجوهرى عن الخليل أن أشياء فعلاه (بسكون
العين) وأنها جمع على غير واحدة كشاعر وشعراء ، حكاية
مختلة وأما الكسائي فيرى أن صرفها ترك لكثر الاستعمال .

ولقد ردّ الفيروزابادي كل هذه الأقوال ، ولكنه لم يذكر الوجه
في منع « أشياء » من الصرف أو لم يعتقد لمنعها من الصرف وجهاً
(راجع أيضاً استعراض المرتضى الزبيدي لهذه الآراء ، (تاج
العروس ١ : ٨٣ - ٨٥) .

وكلمة « أشياء » وردت ممنوعة من الصرف في سورة المائدة
(٥ : ١٠١ أو ١٠٤) في بعض المصاحف ﴿ يا أئمَّا الذين آمنوا ،
لا تسألو عن أشياء إِن تُبَدِّل لَكُمْ تَسْؤُكُم ﴾ . وهي لم تردد في القرآن
الكرييم على هذا الوجه في غير تلك الآية . ولا أحسب أننيرأيتها
في شعر جاهلي . فإذا نحن نظرنا إلى كلمة « أشياء » في الآية

الكريمة وجدناها تقع بين كلمتين تنتهي كل كلمة منها بنون ساكنة . فلو أجريت الآية على منطق النحو العربي ل كانت : « ولا تسألو عن أشياء إِنْ تُبَدِّلُ لَكُمْ تَسْوِكُمْ ». ومجيء التون الساكنة طرفاً في ثلاث كلمات متواالية مُنافٍ للموسيقى ومكرورة في قراءة القرآن . ولا أزال أذكر من عهد طفولتي أن الأستاذ الذي كان يقرئنا القرآن كان إذا سمع تلميذاً يشد التون ثم يمدّها ضرب المِنضدة بعصاه ، وقال غاصباً : يا ولد ، لا اثْتَثِنْ ، « فَمَنْعُ أَشْيَاء » من الصرف هو عندي - إذا لم تكن تلك الكلمة قد جاءت على هذا الوجه في غير القرآن الكريم - إنما عُدِلَ إِلَيْهِ في الآية الكريمة لعله عارضة من اللفظ فقط .

من أجل ذلك نحن نمنع « أشياء » من الصرف لأنها مُنعت في القرآن الكريم ، ولا نمنع « أبناء » و« أسماء » ، كما قال الفيروزابادي (القاموس ١ : ٢٠) ، وإن لم تكن كلمة « أشياء » أحقّ منها بالمنع . غير أننا منذ ذلك الحين نمنع كلمة أشياء من الصرف . قال المُقْنَعُ الْكِنْدِيُّ ، وهو شاعر أموي :

يُعاتبني في الدّيْنِ قومي ، وإنما دِيُونِي في أشياء تُكْسِبُهم حمدا !
وفي القرآن الكريم قراءات وردت فيه لأنها من لغات العرب الصحيحة ، وكلها مقبولة في القرآن الكريم . ونحن لا نتعرض هنا ، فيما يتعلق بهذه القراءات ، للمردوك الديني أو للمردوك اللغوي في سبب ورودها ما دام الإجماع واقعاً في المدركيين معاً عند رجال الدين ورجال اللغة على أنها لغات عربية لا شك في ذلك . غير أن هذه القراءات ليست على علوٍ واحدٍ في طبقاتها فإن

منها المتواتر وإن منها الشاذ . والله تعالى قد خاطب العرب بهذه اللغات كُلّها لأنها كانت معروفة في الجاهلية : ولا ريب في أن القراءات المتواترة تمثل كلمات كانت أوسع انتشاراً في القبائل من الكلمات التي تمثلها القراءات الشاذة .

هذه القراءات التي أشرت إليها تنقسم صنوفاً .

(أ) هنالك قراءات مثل نُكْرا ونُكْرا ومثل زَكِيَّة وزاكية ومثل تحسسوا وتجسّسا . هذه كُلُّها صيغ فصيحة لا يمنع مانع من استعمالها وهي لا تدخل في نطاق بحثنا .

(ب) ثم هنالك قراءات متواترة حذفت فيها الياء المتطرفة في الآيات الكريمة التالية :

- « ذلك ما كنا نُبَغِ » (مكان : نبغي) .
- « سوء العاكل فيه والبادِ » (مكان : البادي) .
- « فإيابي فأعبدون » (مكان : فاعبدوني) .
- « وئمود الذين جابوا الصخر بالوادِ » (مكان : بالوادي) .
- « فأما الإنسان إذا ما ابتليه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن » (مكان : أكرمني) . « وأما إذا ما ابتليه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانِ » (مكان : أهانني) .

إن هذه الكلمات وأمثالها يجب أن تكون من لغات القبائل التي كانت مجاورةً للآراميين في العراق وفي الشام . إن الآراميين يُثبتون الياء متطرفة في الخط ويُسقطونها في اللفظ وذلك قديمٌ فيهم : إن الانجيل الذي بأيدي الناس يذكر أن المسيح قال :

الله ، آله ، لموشِقْتُنْ ، مكان : إلَهِي ، إلَهِي ، لموشِقْتُنِي (أي لِمْ ترَكْتُنِي) .

ولغتنا الفصحى تَعْرِفُ ذلك في المنادى شِبْهَ مُطْرِدٍ ، فنحن نقول : يا ربِّي ويا ربُّ (بالكسر أو الضم) كما نقول : يا صاحِرِ مكان يا صاحِبِي ، ويا أمَّ مكان يا أمِّي .

في كل هذه الشواهد نجد العربيَّ يَعْدِلُ عن المِنْطَقِ إلى الموسيقى لا غيرَ .

(ج) ثُمَّ هنالك في القرآن الكريم أيضًا قراءاتٌ مثل : « إن هذان لساحران » ، ومثل : « وأسروا النجوى الذين ظلموا ». إن هذه قراءاتٌ تمثل كَلِمَاتٍ كانت قد بدأَتْ في الجاهلية تجاذبَ القاعدة المقبولة ، ولكنَّ القرآن الكريم نزلَ قبلَ أنْ تُعمَّ تلك المجانبة في المِنْطَقِ ذلك الصِّفَرَ كُلَّهُ ، من الكلمات . من أجل ذلك بَقِيَتْ تلك القراءات قاصرةً على الكلماتِ التي وردت كذلك في القرآنِ الكريم شاهدًا مُفْرَدًا لا قاعدةً يَجُوزُ القياسُ عليها .

٣ - الطور الإسلامي :

وفي العصر العباسي نشأ علم القياس : لقد أراد العرب ، أو المسلمين على الأصحَّ، أنْ يجعلوا من اللغة علماً كعلم الفقه وعلم الكلام . وإذا كان الصرفُ والتحوُّفُ في اللغة يمكنُ أنْ يُضيَّطاً بقواعدٍ واسعةٍ النطاق أو ضيقَةَ النطاق ، فإنَّ اللغة نفسها لا يمكنُ أن تخضعَ للقواعدِ المصنوعةِ لأنَّها من نِطَاقِ الاستعمالِ المتأثرِ بعواملٍ اجتماعيةٍ ونفسية . والذي يراجع آراء العباسيين في القياس لا يغيبُ عنه أنَّ أصحابَ القياس اللغويِّ الذين كانُوا أكثرُهم من غيرِ العرب قد

حاولوا بعلم القياس أن يُسّوغوا الأخطاء اللغوية التي كانت تتسرب إلى اللغة العربية مع اللحن الطارئ على الألسنة بين البدو قليلاً وبين الحضر كثيراً.

وبما أنني لم أقصد منذ مطلع مقالتي هذا أن أعالج هذه الحقيقة العباسية من حِقْب القياس ، فإنني سأقف بمعالجة الموضوع هنا .

وبعد فما النتائج التي نريد أن نصل إليها من كل ما مرّ بنا ؟

إن تطور اللغات صعوداً وهبوطاً يبدأ مع نشأة اللغة ثم لا يقف ما دامت اللغة تُروي حِكَايَة أو كِتابَة . واللغات لا تتبع في تطورها خطأً منطقياً متصل المعالم ، ولكنها تخضع في الفينة بعد الفينة لعوامل اجتماعية ونفسية تُطْرُو على غير نظام . من أجل ذلك يجب علينا في لغتنا :

أولاً - أن نقبل كل تطور داخليٌ في اللغة يجعل من كل مجموع من الوجوه المتفقة فيما بينها قواعد عامة كأن تكون علامه الرفع وأواً ونوناً أو ضمةً ظاهرةً أو مقدرةً . ثم إننا نقبل الشوادُ من ذلك التطور أيضاً ، تلك الشوادُ التي هي بقايا القاعدة الأصلية كالأسماء الخمسة وكاللواو في عمرو وكالضمة والفتحة والكسرة التي تأتي قبل الهمزة في كلمة « أمرٍ ». في هذا الصنف من الأحوال نقىس على القواعد العامة ونقبل الشوادُ وحدها كما وردت ولا نقىس عليها غيرها : إننا لا نُعرِّب الراء قبل الهمزة في مُقرئٍ كما نُعرِّبها اليوم في كلمة « أمرٍ »* ولا نُلحِّن الواو بكلمة معنٍ قياساً على

(*) نقول : أمرٌ (بضم الراء والهمزة) وامرٌ (بفتحهما) وامرٍ (بكسرهما) .

الواو المرسومة والمملفوظة في الكلمة « عبدو » أو قياساً على الواو المرسومة غير المملفوظة في الكلمة « عمرو » .

ثانياً - أن الأحوال التي شدّت في الجاهلية قريباً من الإسلام ، قبل الاختلاط الوعي للعرب بغير العرب نقلبها على أنها شوادٌ عن القاعدة : نقلبها وحدها كتأنيث كلمة ضوابط (في معلقة الحارث بن جلزة) وكمعن كلمة « أشياء » من الصرف من غير أن نمنع كلماتٍ غيرها قياساً عليها مثل الكلمة أسماء التي هي جمع اسم وكلمة أبناء أو أنباء أو أزياء . أما الأخطاء الشخصية مثل الكلمة « ضننا » فتبقى عندنا أخطاء لا تدخلُ في نظامنا اللغوي .

ثالثاً - أما المَقِيسات التي نشأت في العصر العباسي والتي حَكَمَ الرُّوَاةُ فيها أقوال الرجال والمنطق فيجب ألا تقيدنا إلا بمقدار ما لها من نفعٍ في الاستعمال ، وليس من الضروري أن نحاول فرض كُلَّ المَقِيساتِ المتخيلة على القواميس ، سواءً أكان لها مُسْوَغٌ نظريٌّ أم لم يكن لها مُسْوَغٌ . ثم إن ما نقلبه من هذه نقلبه وحده ولا نقيس عليه ، وإنما نقيس دائماً على القاعدة العامة .

يجب ألا نَحْمِلَ لُغتنا على قواعدِ اللغات الأجنبية . ليست اللغة العربية في صلتها باللغة الأعزابية الأم كاللغات الإفرنجية والإيطالية أو الإنكليزية والألمانية في صلتها باللاتينية أو الجermanية . إن لغتنا قادرةٌ على الحياة والبقاء بنفسها وقدرٌ على تعريب ما هي بحاجة إليه . لما خرج العرب إلى الحضارة العباسية واحتاجوا إلى صناعة تبديل العملة في الأسواق احتاجوا بطبيعة الحال إلى اللفظ الدالٌ على ذلك ، فأخذوا الكلمة اليونانية « صرافوس » ثم قطعوا

منها علامة الإعراب اليونانية وجعلوها تتبدل (بتلك السين : علامة الإعراب في اليونانية) علامة الإعراب العربية . واتفق أن اللغة العربية كانت تحوي الجذر « صرف » فعربت كلمة « صرافوس » اليونانية ثم أجريت مجرى الجذر العربي في صيغه ، فإذا عندنا صراف وصرافون وصيارة وصرف ويصرف وصرافة ، وكأن كلمة صراف لم تكن في يوم من الأيام يونانية غير عربية :

إن كلامي هذا قد يثير سؤالاً وجيهأً :

ما قيمة العمل الذي يقوم به مجتمع اللغة العربية ، بل كل مجتمع للغة ، في وضع المصطلحات العلمية والفنية ، إذن ؟

إن عمل المجمع من باب آخر ، وهو عمل مهم في ذاته وقيم ، وهو ينفع اللغة العربية ولا يضرها . ثم إنه لا يدخل في موضوع النقد الذي نجمله هنا لأن هذه المصطلحات التي تُعرَّب أو تُولَّد في المجمع ستظل من حيز العلم وفي قاموس أهل الاختصاص ؛ وقل أن تُنزل إلى ساحة اللغة اليومية .

إن المصطلحات العلمية في كل لغة تظل مدركة بتعريفها فقط ولا تنتسج في لغة الحديث ولغة التعبير العامة . مثال ذلك : أن كلمة « الحَذْفُ » التي أقرَّها المجمع في مصطلحات علم الرياضة والهندسة (راجع مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التي أقرَّها المجمع ، الجزء الأول ، ديسمبر ١٩٥٧ ص ٢٠٦) في مقابل كلمة Elimination لا بأس بها ، وإن كنت أنا أفضل كلمة « الحطّ » . ولكن سواء علينا استعملنا كلمة الحذف أو كلمة الحطّ فإن هذه الكلمة ستظل مرتبطة بالتعريف الذي اختارته مجموعة

المصطلحات العلمية والفنية ، أي : نتيجة حذف جملة مجاهيل من جملة مُعادلاتٍ والحصول على معادلة لا تحتوي على هذه المجاهيل . هذه الكلمة بهذا التعريف ستظل في قاموسِ دارسِ الجبر ، أقصدُ الجبر الذي هو فرعٌ من علمِ الرياضيات لا الجبر الذي هو من فروع علم الكلام ومن أصول الدين . وربما احتاج عالمُ النبات وعالمُ الحيوان أو عالم الموسيقى إلى هذه الكلمة نفسها فاستعملها في معنى آخر بتعريفٍ آخر . الواقع أن هذه الكلمة Elimination تُستعمل في الكهرباء للدلالة على ملء بطارية بالتيار من مجار كهربائية عامة .

أما الرجلُ العادي والأديب الوجданِي والكاتبُ الوَصاف والمؤرخ القصاص فإن كلَّ واحدٍ منهم سيظلُّ غافلاً عن المعنى الذي أفرغنا عليه الحذف إفراغاً جديداً ، وسيستمرُ في استعمال كلمة الحَذْف وكلمة الحَطَّ كلما احتاج إلى واحدةٍ منها في معانٍ لا صلة لها بالمعنى الموضوعة لهما في فروع العلوم والفنون .

أما إذا وصلنا إلى « الغلاف الهندسي من الصنف الثاني » (ص ٢٠٦) ، وإلى « الدالة الصريرحة » وإلى « المُتسلسلة الأُسْسية » (ص ٢٠٨) ، فإننا نصلُ إلى تعبيرَ لا صلة لها البتة بلغتنا اليومية .

من أجل ذلك يجبُ أن نقبلَ كلَّ هذه المصطلحات العلمية والفنية ، وإن كان بعضُها بعيداً عن المعنى اللغوي المقصود ، لأن الاستعمال هو الذي سيقربُها في النهاية من المعنى المراد . غيرَ أننا يجبُ أن نتشدّد في القياس الذي يدفع بالكلماتِ والعباراتِ إلى

الاستعمال العام . يحسن برجال العلم أن يتسعوا في المصطلحات العلمية والفنية لأن التوسيع في تلك المصطلحات يسهل طريق العلم أمام رجال العلم . ولكن يحسن بالأدباء والكتاب أنه يقتضى في التسامح في القياس ، ذلك لأن لغتنا العربية خاصةً ليست لغة للتخاطب فحسب ، بل هي مجلّ حضارة وثقافة أيضاً ، ثم هي جامع ديني وقومي وسياسي حول وحدة ثقافية وحول شعور سياسي . وكلما كانت الأسس اللغوية أشدّ ضبطاً وأقلّ تفرعاً وأوضح صلة بالقديم كانت وحدة الشعوب المتكلمة بتلك اللغة أصحّ وأمنّ وأبرز .

تعقيبات

الأستاذ زكي المهندس الرئيس النائب: نشكر الأستاذ المحاضر على بحثه القيم ، ومن له تعقيب من السادة الأعضاء فليفضل .

الأستاذ محمد بهجة الأثري : عرض السيد الزميل الدكتور عمر فروخ لموضوع القياس في محاضرته اللطيفة من ناحيته التاريخية القديمة في الجاهلية وصدر الإسلام على نحو ما سمعتم منه ، وليس لي ما أقوله فيما عرض له غير أن أرجو إليه الشكر على مجده في محاولته الجديدة في بحثه ، وأدع التعقيب عليه لمن يشأه من السادة الزملاء المحترمين وأعرج على بعض القضايا التمهيدية لمسائل القياس من ناحيتها العملية .

إن مجمع اللغة العربية منذ تأسيسه قبل ثلاثين عاماً مضى جاداً في بعث اللغة العربية وتوجيهها في الطريق السوي المستقيم

توجيهاً أصاب فيه حظوظاً كبيرة من التوفيق . وتبعدوا لي في إنتاجه الغزير المتنوع ظاهرتان كبيرتان : توفره على إمداد العلوم والفنون بالمصطلحات العلمية والفنية الحديثة ترجمة وتعريباً بالطرق اللغوية المعروفة ، واجتهاده في تحرير الضوابط القياسية ، وقد تناولها ضابطاً ضابطاً ، فحرر زهاء مئتي ضابط من قيودها وأثقالها مع مراعاة خصائص العربية والتزام عمودها الأصيل المستقيم ، وبذلك سن الإفادة التامة من الاشتراق منها والقياس عليها في يسر وسهولة . وكلتا هاتين الظاهرتين مقدورة حق قدرها عند الباحثين والعارفين بمزاياها هذا الاجتهد الرصين الذي يجتهد في قضايا اللغة في تعمق واستقصاء وأناء . غير أنني لا أحظ أن الظاهرة الثانية أعني ظاهرة اجتهاده في تحرير الضوابط القياسية ضابطاً ضابطاً ، هي ظاهرة فرعية كان ينبغي - فيما أرى - أن يسبقها شيء أخطر شأناً ، وأجدر بأن تقدم مسائله وتقال فيها الكلمة الجامعة الفاصلة . كان ينبغي أن يبادر إلى تحرير كليات الأصول القياسية العامة التي تتفرع منها هذه الجزئيات قبل أن يعني بهذه الجزئيات وفق منهج مرسوم ، لأنها مناطها في البناء عليها ، والأصول مقدمة على الفروع في الأحوال ، وأحسب أنه لو فعل ذلك وانتهى إلى تأصلها تأصيلاً جديداً لخطا إلى غاياته البعيدة خطوات فساحة . فلعل هذه الأصول الجديدة التي تنبثق من الجهاد الحر المعمق والمستأنسي كانت تختصر له الزمن وتستوي له الإنتاج أضعافاً مضاعفة ، وتجعل هذه الفروع التي حررها في نجوة من جواز إعادة النظر فيها وفيما بني عليها بعد أن يحرر كليات أصول القياس .

كلمات عن العرب تُحررها وتتطورها والتقرّلُوها على لغتنا لها القومى

من المأثور أن تنتسب الأمم والشعوب إلى أسلاف لها حقيقين أو خرافيين فيتألف من ذلك الانتساب جماعات قليلة صغيرة أو كبيرة ، كما عرفنا في تاريخ العرب من انتسابهم إلى عدنان أو قحطان ثم تقسيمهم بكرًا وتميمًا وأسدًا وعبسًا وشيبان أو طيئاً وخزاعة وأردًا وعنسًا وهمدان . ومثل هذا كان شأن الهنود واليونان والجرمان .

وإذا اتفق أن اتخذت الأمم أسماءً جامعةً فإما أن تشير إلى نفسها بأنها « الشعب » أو « الأمة » وإما أن تتخذ أسماءً « كريمة ». إن سكان شمالي غربي إفريقيا يسمون أنفسهم « الإيمازيفن » أي الأشراف ، والجرمان يدعون أن اسمهم محرف من « هرمان » ، أي السيد ، وكذلك الإفرنسيون يزعمون أن اسمهم معناه « الأحرار » .

غير أن جميع الأسماء المشهورة على الأمم في التاريخ إنما هي من صنع غيرها ، أعداء كانوا أو أصدقاء . إن سكان شمالي غربي إفريقيا سماهم الرومان البربر ، وهذا هو الاسم الذي أشار به

إليهم أمرُهُ القيس في شعره . ويبدو أن الغاليين هم الذين سَمِّوا الجِرمان باسمهم هذا اشتقاً من كلمة « غير » (بإمالة الياء) ، بمعنى الجار . والإفرنسيون سَمِّوا بذلك لأن سلاحهم القبليّ الخاصّ بهم كان يسمى « فرانكا » أي عَتْزة . والعَتْزة هي الرمح القصیر . والصينيون سَمَّا هُم التجار القادمون إلى بلادهم من الشمال والجنوب أسماء كثيرة : صين ، ثين ، شين ، سيريس ، كاثاي ، لا ندري اليوم ما معناها . والهنود يزعمون أنهم ينتسبون إلى بهارتَا فارشا ، وقد أطلقوا على بلادهم بعد استقلالها اسم « بهارتَا » ، معَ أن اسمهم المشهور في الشرق والغرب قديماً وحديثاً « الهند » اختصار من التسمية الفارسية : ما وراء النهر ، نهر الهند المحرف اسمه عن الكلمة السُّنْسِكُرِيتِية « سند » ومعناها النهر عامَة ، وتطلق على نهر السند خاصة . ولقد أطلق الفرسُ اسم « الهند » في العالم الشرقي ، كما جعل اليونان كلمة الهند « إندس » ، على مقتضى لفظهم وإعراب الكلماتِ في لغتهم ، ثم أطلقوا الاسم في العالم الغربي : إنديا .

وما كان اسم العرب بِدْعَاً في أسماء الأمم ! .

يبدو أن سكانَ ما بين النهرين القدماء ، البابليين والأشوريين ، كانوا على حقٍّ لما أطلقوا على أقاربهم الأعرابيين وجيرانهم إلى الغرب والجنوب الغربي اسم « أ - رى - بي » .

ولا مَعْدُى لنا عن الرجوع بهذه الصيغة « أريبي » إلى الجذر « ء - ر - ب ». غير أن هذا الجذر هجينٌ جداً في لفظه وفي معناه ، إن الهمزة في هذا الجذر تأتي في الصيغ التي يقال إنها

مشتقة منه مفتوحة ومُمَالَة ، وربما جاءت مكسورة ، والباء فيه في الأصل باءٌ تنفرج عنها الشفتان بِيُسْرٍ ، ولكن قد تَرَدُّ في عددٍ من مشتقات هذا الجذر باءٌ مهموسة أو منفوثة .

وكذلك معاني المشتقات التي يُقال إنها من هذا الجذر كثيرة جِدًا . ثم هي مزيج غير مُؤْتَلَف في بعض الأحيان ، ويبدو أن المعنى الأصيل لهذا الجذر « الغَرْبُ » الذي يقابل « الشرق » . ثم تناول هذا الجذر معانٍ تتصل بجهة الغرب من قُرْبٍ ومن بعده . من هذه المعانٍ غُرُوبُ الشمس والمساء والعَتمَة . ثم هنالك الغُراب لأن لونه يشبه لون العَتمَة . ومن المعانٍ المتعلقة بهذا الجذر من بعد ، الجَرَادُ لُوْجُودُه في تلك المِنْطَقَة الغربيَّة بالإضافة إلى سُكَان ما بين النهرين ، ومن معانٍه أيضًا القُفْرُ (الصحراء) لطبيعة تلك المِنْطَقَة عُمُومًا . ويهاجِرُ هذا الجِذْرُ من بلاد ما بين النهرين بمشتقاته غَرْبًا فيسلُكُ طريقين أساسيتين إحداهما تحرف شمَالًا والثانية تتجه جَنُوبًا .

في أثناء هذه الهِجْرَة ينخَفِضُ مَيْعُوث الهمزة في الحُنْجَرَة فتصبح هاءً مِرَأَةً نحو « أَيْكَلُو » التي تصبح هيكل ، ثم عينًا مِرَأَةً ثانية نحو « أَنْزُو » التي أصبحت « عنزة » . وتُصبح أيضًا غينًا مُعجمةً مِرَأَةً ثالثة نحو « أَرِبِي » فإذا هي (غُرُوب) . وأحياناً تبقى الهمزة نحو « أَرْبَا » بفتح الهمزة وأمثالها بمعنى أربعين ، وقد تتحير الهمزة أحياناً فنجدُ في القاموس العربيَّ كَلِمَات مثل : أَرِبُّ ، وَعَرِبُّ ، وَدَرِبُّ ، بمعنى واحد هو فَسَادُ المَعْدَة . وأحياناً يذكرُ القاموسُ مثل هذه الجملة : « الأَرْبَان بضم الهمزة لغةً في العُرْبَان بالعين » (تاج ١ : ١٤٧) .

ليس في ما مر تعرُّضُ للغة التي أخذت من أختها ، إذ الغاية مما مر أن ندلّ على أن كلمة « عَرَبٌ » تُشَرِّكُ كَلِمَاتٍ كثيرةً تبدأ بغير العين في لُغَةِ مُضَرِّ التي نتكلّمُها ونكتُبُ بها . من أجل ذلك وجب أن يكون الجذر الذي جاءت منه هذه الكلمة جذراً هجينًا غير خالص .

ونمر بالشعرِ الجاهلي الذي وصل إلينا فلا نجد فيه صيغة من جذر « ع - ر - ب » للدلالة على معنى قومي يتعلّق (بالعرق من النسب الجامع) ولا على معنى يتعلّق باللغة التي نتكلّمُها . وهذا أمر له تعليله من تاريخنا السابق على الإسلام . لقد كان الجاهليون غارقين في منازعاتهم القبليّة فلم يكن لديهم ، فيما لدينا من التراث اللغوّيّ ، ما يدلّ على المدرك القوميّ الجامع . ولكن لما وقفَ الجاهليون في أعقابِ العصرِ الجاهليِّ وجهاً لوجهِ أمّام الفُرسِ على حدودِهِمُ الشّرقية ثم كرّهوا الحُكْمَ الفارسيَّ الذي كان قد استطال في شبهِ الجزيرة ، بدأوا يستشعرون شيئاً من البُغضَة للفرس ، وشعرَ عنترةً بهذه البُغضَة فقال في معلقته عن ناقته :

شربتُ بماء الدُّخْرُضِينِ فأصبحتَ زَوْراءَ تَنْفِرُ عن حِياضِ الدَّيْلِمِ^(١) .

إن عنترة قد أحسَ بالدافع القوميّ الجامع ، ولكن لم يجد الكلمة التي تعبّر عنه فاضطرَ إلى أن يدورَ حولَ المعنى ببيتٍ كاملٍ من الشعر .

وجاء الإسلامُ ونزلَ القرآنُ الكريمُ مُنَجِّماً في ثلَاثٍ وعشرين سَنَةً في مَكَّةَ والمَدِينَةِ فلم يَرِدْ فيهِ من الجذر « ع - ر - ب » إِلَّا ثلَاثُ

(١) راجع لسان العرب (مادة « دلم ») .

صيغٍ : «عَرْبًا» جمع عَرُوب (فتح العين) نعتاً للمرأة المُتحببة لزوجها في قوله تعالى «عَرْبًا أَتَرَابًا» (٥٦ الواقعة ٣٧). ثم جاءت الصيغة «أعراب» عَشْر مراتٍ في سور مدنية فقط ، منها سِتٌّ مراتٍ في سورة التوبة وحدها . ولا حاجةً للإشتغال على أن كلمة «أعراب» تدل في القرآن وفي غير القرآن على البدو .

أما الكلمة الفاصلة في هذا الشأن فهي كلمة « عربيّ » التي وردت في القرآن الكريم إحدى عشرة مرّة ، في سور مدنية وفي سورٍ مكية أيضاً ، غير أن هذه الكلمة قد وردت عشر مراتٍ نعتاً لللغة التي نزل بها القرآن بأنها لغة واضحةٍ بينة ، كقوله تعالى : « إنا أنزلناه قرآنًا عربيًّا لعلكم تَعْقِلُون » (١٢ يوسف ٢) ، أي تفهمون . ويبدو أن هنالك مكاناً واحداً استعملت فيه الكلمة « عربيّ » لتنسب شخص الرسول ﷺ ، في قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآنًا أَعْجَمِيًّا لقالوا لولا فُصلَتْ آياتُه ، أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ؟ » (٤١ السجدة ٤٤) أي أكتبُ أَعْجَمِيَّ اللغة ، ونبيٌّ عربي؟

إن استعمالَ كلمة عَربِي في القرآن الكريم دلتُ الشعراً على التعبير الذي لم يقع عليه عترة . ومنذ السنة الثالثة للهجرة قال كعبُ بْنُ مالِكٍ يذكُرُ رسولَ الله :
بَدَا لَنَا فَاتَّبَعْنَاهُ نُصَدِّقُهُ وَكَذِّبُوهُ ، فَكُنَّا أَسْعَدَ الْعَرَبِ .

وبعد ذلك بمنية يسيرة ، فيما يبدو ، قال حسانُ بْنُ ثابتٍ يُقرئُ بنـي هـذيلـ لما اشترطوا على الرسولـ أن يُحلـ لـهـمـ الزـناـ حتـىـ يـدخلـواـ فـيـ الإـسـلامـ :

سالْتُ هَذِيلُ رَسُولَ اللَّهِ فَاحشَةً ؛ ضلَّتْ هَذِيلُ بِمَا قَالَتْ وَلَمْ تُصِبِ
سَالُوا رَسُولَهُمْ مَا لِيْسَ مُغْطِيَهُمْ حَتَّى الْمَمَاتِ ، وَكَانُوا سُبَّةَ الْعَرَبِ
وَهَكَذَا بَدَأَ فِي الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ مَدْرَكٌ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا مِنْ قَبْلُ ،
هُوَ أَنَّ الْعَرَبَ جَمَاعَةٌ وَاحِدَةٌ ذَاتُ نِطَاقٍ مِنَ الْوَحْدَةِ الْجَامِعَةِ . غَيْرَ
أَنَّ مَدْرَكَ الْعُرُوْبَةِ يَوْمَ ذَاكِ ، أَوِ الْمَدْرَكُ الْقَوْمِيُّ الْعَامُ عَلَى الْأَصْحَحِ ،
كَانَ يُعَدُّ وَالْإِسْلَامَ شَيْئًا وَاحِدَّاً . بَعْدَ غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ ، فِي السَّنَةِ
الْخَامِسَةِ لِلْهِجَرَةِ » إِجْلَاءُ الْيَهُودِ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قُرِيقَةَ ، رَشِّيَّ
شَاعِرٌ مِنْ بَنِي الْأَشْهَلِ اسْمُهُ الْضَّحَّاكُ لِحَالِ أُولَئِكَ الْيَهُودِ . مِنْ أَجْلِ
ذَلِكَ هِجَا حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ هَذَا الشَّاعِرُ ، وَذَكَرَهُ بِأَنَّ نَفْرًا مِنْ قَبْيلَتِهِ
بَنِي الْأَشْهَلِ ، قَدْ كَانُوا مُسْلِمِينَ حَقًّا ، مِنْهُمْ إِيَّاسُ بْنُ أَوْسَ بْنُ
عَتِيَّكِ الَّذِي اسْتُشْهِدَ فِي غَزْوَةِ أَحُدَّ ، وَأَنْسُ بْنُ أَوْسَ بْنُ عَتِيَّكِ
الَّذِي اسْتُشْهِدَ فِي غَزْوَةِ الْخَنْدَقِ . وَهَكَذَا قَالَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ
لِلْضَّحَّاكِ هَذَا :

أَتُحِبُّ يَهُدَانُ^(۱) الْحِجَازَ وَدِينِهِمْ ،
كَيْدَ^(۲) الْحَمَارِ ، وَلَا تُحِبُّ مُحَمَّدًا ؟
لَوْ كَنْتَ مِنَّا لَمْ تُفَارِقْ دِينَنَا
وَتَبِعْتَ دِينَ عَتِيَّكَ حِينَ تَشَهَّدَا .

وَسَرَعَانَ مَا بَرَزَتْ كَلِمَةُ (عَرَبٌ) فِي مُقَابِلِ كَلِمَةِ (رُومٌ)
وَكَلِمَةِ نَبِيطٌ (آرَامِيَّيْنِ) وَاَكَتَبَتْ بِذَلِكَ مَعْنَى قَوْمِيًّا وَاضْحَى . جَاءَ

(۱) يَهُدَانُ جَمْعُ يَهُودِ .

(۲) فِي شِرْحِ الْقَامُوسِ - مَادَةُ هُودٍ (عَبْدٌ) بَدْلٌ (كَيْدٌ) .

في الأغاني (دار الكتب ١٤ : ٨٧ - ٨٨) :

بعد فتح مكة ، في السنة الثامنة للهجرة ، قدم قيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم ابن عمه على الرسول . فلما صارا عنده تساباً وتهاترا . ثم قال قيس بن عاصم للرسول عن عمرو وقومه : « والله ، يا رسول الله ، ما هم منا ، وإنهم لمِنْ أهل الحيرة » ، فقال عمرو بن الأهتم : « بل هم ، والله ، يا رسول الله ، من الروم وليسوا منا ». ثم قال عمرو بن الأهتم مخاطباً قيس بن عاصم :

إن تبغضونا فإن الروم أصلُكم والروم لا تَمْلِكُ البغضاء للعَرَبِ

ولقد نهى الرسول ﷺ قيساً وعمراً عن هذا التلاخي ، وأفهمهما تلميحاً أن الإسلام قد أغرق العصبيات كلها .

وفي أثناء الفتوح العربية ، أو الفتح الإسلامي على الأصح ، في أيام عمر بن الخطاب ، بلغ الشعور العربي من الناحية القومية مبلغاً يتمثل في البيت التالي ليربوع بن مالك ، والذي أورده الطبرى (١ : ٢٥٣٦ ليدن) ، وهو :

إذا العَرَبُ الْعَرَباءَ جاشَتْ بِحُورُهَا
فَخَرَنا عَلَى كُلِّ الْبَحُورِ الزَّوَافِرِ .

ثم تقلبتْ كلمة « عرب » بعد ذلك بين المدرك القومى الحالى والمدرك المتصل بالإسلام اتصالاً وثيقاً ، وجَرى

المدركان جَنِباً إلى جَنِبٍ عُصْرَاً ، والشواهدُ على ذلك كُلُّهُ كثيرةٌ
تحتاجُ إلى دراسةٍ مستقلة .

هذا كُلُّهُ من الناحية اللغوئية في تاريخ كلمة « عرب ». ولكن
يبدو لنا أيضاً أن الإسلام هو الذي جعل لكلمة « عرب » هذا المقام
في شعورِ الجماعة ، ولكن نَهَى عن أن يكونَ هذا الشعورُ عاملاً
مُفرقاً بين صفوفِ الأُمَّة التي وَحَدَها الإسلام .

لِلأَمْثَالِ بَعْدَ الْمُخْفَى

الأمثال في لغة كلّ أمة من معالم الحضارة ندرس فيها تاريخ الأمة (ونعرّف منها كيف تقلّبت بها الأحوال ثمّ هي تدلّنا على طريقة التفكير في الأمة).

والأمثال طبقات : منها أمثال مفردة عارضة في تاريخ الأمم - لأنها من اختبار الشعوب في كلّ مكان - وهي لا تُوجّب حُكماً عاماً . فمن هذه الأمثال في اللغة العربية : أبعدُ من النَّجْم - أسرعُ من الريح - آبَدُهُمْ بِالصُّرَاخِ يَقِرُّوا (وهو مثل يضرب للرجل الظالم يبدأ بالشكوى ويُظهر أنه هو المظلوم وأنه ما فعل الذي فعله إلا لأنه خاف العُدوان من غيره فيسكت الناس عنه . وربما ضرب لغير ذلك أيضاً : للرجل الضعيف يبدأ بالصُّرَاخِ فيظنّه الناس قوياً فيخافونه) - الحديد بالحديد يُفلح (أي أنك لا تستطيع أن تتغلّب على أمرٍ إلا بشيء أشدّ منه أو مثيله) . وفي اللغة العربية مثل هو « خير الأمور أحْمَدُهَا مَغْبَةً (نهاية ، نتيجة) » نَجِدُهُ عَنْوانًا لمسرحية لشكسبير : كلّ أمرٍ حسنٌ إذا (هو) انتهى نهايةً حسنةً !

وهنالك طبقة من الأمثال وضعها العقل الإنساني (لا الاختبار وحده) . من هذه الأمثال : آفة العلم النسيان - اذكره غائباً يقترب (وال العامة يقولون : اذكر الذيب وهى القضيب) - إذا اشتريت فاذكر السوق (أي لا تشتري شيئاً بشمن غالٍ إذا أعجبك فقط ، بل ادفع في الشيء الذي تشتريه ثمناً إذا أنت بعْتَ ذلك الشيء يوماً بعْته بأكثر من الثمن الذي دفعته أو بمثل ذلك الثمن على الأقل . إن معنى ذلك أن يفكّر الإنسان دائماً في الأمور التي يعالجها وفي فائدة الأعمال التي يعملاها) .

وفي هذه الطبقة من الأمثال : إذا ترضي أخاك فلا أخالك (أي إذا كان لك رفيق يغضبُ منك لكل شيء ثم تحتاج إلى أن تسترضيه حتى يظلّ رفِيقاً لك ، فإن هذا الرجل ليس لك بأخٍ صديقٍ ولا برفيق صالح) . ومن هذه الأمثال : ظن العاقل خيراً من يقين الجاهل (ذلك لأنّ الرجل العاقل قد بلغَ من العلم والاختبار حداً أصبح معه قادرًا على الوقوف على حقائق الأمور من غير جهد . وذلك باب من أبواب علم النفس) . ومن هذه : المعاذر مكاذب (فإن الإنسان لا يعتذر من عمل إلا إذا كان قد أخطأ فيه . فإذا وعد إنسان إنساناً بأمر ثم لم يف به ، فإما أن يكون المعتذر عاجزاً عن الوفاء بما وعد أو أن يكون قد وعد وهو لا يقصد الوفاء أو أن يكون قد وعد ثم نسي ذلك الوعد . ومن ذلك أيضاً قولهم : « كاد العروس أن يكون ملِكًا » . فالعروس (وهذا اللفظ يُطلق على الرجل والمرأة ، والمقصود هنا الرجل) في يوم عرسه هو أهم الناس في العرس لأنّ الناس قد اجتمعوا لمناسبة هو سببها وصاحبها . ويجب أن يكون هذا المعنى قديماً في الحياة الإنسانية وفي التفكير الإنساني ، فقد

جاء في الإنجيل مرارا ، لا بمعنى العروس (في الإنجيل : العريس) على الحقيقة بل على المجاز (الرجل المُهم في أمر ما . ويبدو أن الإشارة في مطلع الإصلاح الخامس والعشرين من إنجيل متى راجعة إلى المسيح نفسه) .

المعالم العربية في أمثال العرب

ثم هنالك طبقة من الأمثال العربية هي صور للحياة العربية البدوية في الجاهلية خاصة . هذه الأمثال لا تزال ذات صلة بحياتنا نحن العرب إلى اليوم ، منها الحَسْنُ ومنها غير الحسن .

من هذه الطبقة في أمثال العرب :

(١) آخرها أقْلُهَا شُرْبًا (أي أن الإبل التي تردد إلى حياض الماء في آخر الواردين لا تستطيع أن تشرب كثيراً لأن الماء في الحوض المورود يكون قد قلل كثيراً) . هذا المثل عربي بَدُوِي أصيل كان قوله في شبه جزيرة العرب ، ولا يمكن أن يكون قد قيل (كما يمكن أن يُقال مثله) في مصر أو العراق أو هولندا أو البرازيل ، لأنَّه صورة لِقلة المياه .

(٢) أَوْسَعْتُهُمْ سَبَّاً وَأَوْدَوْا بِالْإِبْلِ (أي أنَّ قوماً غَزَوْنِي وأخذوا إبلِي فجعلُت أشتُّهم شتماً كثيراً) . هذا المثل يُضربُ للذِي يغدو عليه خصوْمه فيسلِّبونه أمواله وحقوقه ويكتفي هو بالصراخ والاحتجاج . وهذا مثل بَدُوي أصيل أيضاً لأنَّه يصور الحياة البدوية حيثُ الحقُّ للقوَّة وحيثُ الفردُ القويُّ هو واسعُ القانون . وهو يضربُ أيضاً للشخص الذي لا يَمْلِكُ في الدفاع عن حقه إلا الكلام !

(٣) إن تَرِد الماء بماءِ أَكْيَسُ (أعقل). وهذا أيضاً من هذه الطبقة . الماء في شبه جزيرة العرب قليل . وعلى المسافر في كلّ مكانٍ إذا سافر أن يسافر ومعه زاده من طعامٍ وشراب . أمّا في شبه جزيرة العرب فعلى المسافر أن يكون أكثر احتياطاً وبُعد نظر ، حتى إنّه إذا ذهب ليستقي ماءً من نبع أو حوض أن يحمل ماءً معه ، فلعله إذا وصل إلى النبع الذي يقصده وجده جافاً . هذا المثل يضرب للرجل الذي لا يثق بأمرٍ غائب عنه خوفاً من المفاجئات : إذا كان موعدك الساعة العاشرة وكانت المسافة بينك وبين مكان الموعد ساعةً فانطلق من مكانك قبل ساعتين . وإذا كنت تحتاجا في رحلة لك إلى مائة دينار فليكنْ معك مائتان . وإذا كانت حرب خصمك تحتاج إلى ألف جندي فجهّز لحربه ألفين .

(٤) الناس كثيرون مائة لا تَجِد فيها راحلةً . معنى المثل : قد يكون لك مائة جمل ثم تَرِد أن ترحل (تسافر) فلا تجد في المائةِ الجملِ جملًا شديداً قادرًا على الأسفار الطويلة . وكذلك الناس : قد يكون معك منهم في موقف شديد ألفُ رجل ثم لا تجد واحداً من هؤلاء الرجال الألف يمكن أن يكون لك في موقفك ذلك عوناً أو ذا نفع .

أمثال وراءها قصص .

والمثل عادةً لا ينشأ ارتجاعاً ، بل هو نتيجة اختبارٍ طويلٍ لفردٍ أو لجماعة أو لشعب أو لأمة . في مثل هذه الحال يكون المثل مرتبطةً بواقعةٍ من الواقع (حادثة من الحوادث) من هذه الطبقة من الأمثال :

(١) إِنْ يَيْغُ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَيْغُ عَلَيْكَ الْقَمَرُ .

قيل إن جماعة من بني ثعلبة بن سعد بن ضبّة في الجاهلية تراهنوا على الشمس والقمر ليلة أربع عشرة . فقالت طائفه : تطلع الشمس (في الصباح) والقمر لا يزال يرى (في الغرب) ؛ وقالت طائفه أخرى بل يغيب القمر قبل طلوع الشمس . فtrapضوا على رجلٍ جعلوه بينهم (حَكَماً) . فقال رجل منهم إن قومي يبغون (سيبغون) عليّ (سيظلمونني) . فقال له الحكم : إِنْ يَيْغُ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَيْغُ عَلَيْكَ الْقَمَرُ (أي إذا كان قومك، وهم بشرٌ يتاثرون بالعواطف والأحوال والمناسبات فلا يأخذون برأيك أحياناً ، فيما عليك إلا أن تراقب القمر « وهو جرمٌ حجري » لا يتاثر بما يتاثر به البشر) في صبيحة ليلة أربع عشرة فترى ما يكون من شأنه وشأن الشمس .

هذا المثل لا يزال حياً إلى يومنا هذا . ففي كل سنة قمرية يختلف عدد من بلاد العرب في رؤية الهلال في أول الشهر ، فمنهم من يقول : رأينا الهلال ، ومنهم من يقول لم نرْه ! وحل المشكلة أن يتدبوا لرؤية الهلال رجلاً صحيح البصر وله علم بشيء من مطالع الأجرام السماوية .

(٢) أَبْصِرْ مِنْ زَرْقَاءِ الْيَمَامَةِ .

زرقاء اليمامة امرأة كانت في الجاهلية الأولى اختلف الرواة في اسمها ولكنهم ذكروا أن عينيها كانتا زرقاءين وأنها كانت من أهل اليمامة (واسط شبه جزيرة العرب) . ولقد كان بصرها سليماً حاداً ، زعموا أنها كانت تبصر من مسيرة ثلاثة أيام (نحو مائة

كيلومتراً للسائر المعتدل الذي يسير ثمانينَ ساعاتٍ في اليوم) وَتَمْيِيزُ الأشياء . وفي هذا مُبالغة شديدة ، فإنَّ حَدَبَةَ الأرض تمنع الإنسانَ من أن يرى شيئاً يبعدُ عنه أكثرَ من عشرينَ كيلومتراً .

أما القِصَّةُ التي وراء هذا المثل فهي التي تلي :

إنَّ جَدِيسَ وَطَسْمَاً (وهما قبيلتان قدیمتان من العرب البائدة : الذين انقرضوا) تحاربنا فتغلبتْ جَدِيسُ وأكثرتِ القتلَ في طَسْمٍ . فخرجَ رجلٌ من طسمٍ واستنجدَ بِحَسَانَ بْنَ تَعْبٍ مَلِكِ حَمِيرِ (اليمَن) . وجاءَ حَسَانٌ بِجَيْشٍ وأَحَبَّ أَنْ يَسْتَرِّ مَسِيرَهُ عنْ جَدِيسٍ فَأَمَرَ كُلَّ جُنْديٍ أَنْ يَحْمِلَ شَجَرَةً (غَصْنَ شَجَرَة) . وَاتَّفَقَ أَنْ زُرقاءَ الْيَمَامَةَ كَانَتْ يَوْمًا عَلَى سَطْحِ بَيْتِهَا تَنْظُرُ إِلَى الْأَفْقِ فَرَأَتِ الْجَيْشَ السَّائِرَ يَحْمِلُ أَغْصَانَ أَشْجَارٍ ، فَقَالَتْ لِقَوْمِهَا : تَهْيَأُوا لِلْحَرْبِ ، إِنَّ جَيْشَ حَمِيرٍ قَادِمٌ عَلَيْكُمْ يَحْمِلُ أَشْجَارًا ، وَلَكَأَنِّي أَرَى « الشَّجَرَ يَدِبُّ عَلَى الْأَرْضِ ». وَنَظَرُوا حِيثُ كَانَتْ تَنْظُرُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئاً فَلَمْ يَصِدُّوْهَا . وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَصَلَّ جَيْشُ حَسَانَ بْنَ تَعْبٍ وَقَاتَلَ بَنِي جَدِيسَ قَتَالاً شَدِيداً .

قد تكون هذه القِصَّةُ صَحِيحَةٌ أو غَيْرَ صَحِيحَةٍ ، ولكنَّها مَحْكَيَةٌ مَرْوِيَّةٌ مِنْ زَمِنٍ قَدِيمٍ . ويبدو أنَّ هذه القِصَّةَ قد وصلتْ إلى الغَرْبِ فَأَخْذَهَا شِكْسِبِيرُ وَحَاكَهَا في إِحْدَى الْعُقَدِ مِنْ رِوَايَةِ « ماكبث » .

(٣) رَمِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ .

معنى هذا المثل : رَمِيَّةٌ بِالسَّهْمِ أَصَابَتِ الْهَدْفَ مِنْ رَجُلٍ لَا يَعْرِفُ الرِّمَادَةَ . وَمَؤَدَّاهُ : قَدْ يُخْطِيءَ الْعَالَمُ بِالشَّيْءِ وَقَدْ يُصِيبَ

الجاهلُ أحياناً . وقصةُ هذا المثل :

خرج الحَكْمُ بن عبدِ يَغُوثَ الْمِنْقَرِيَّ (في حديث طويل) هو وابنه المُطْعِمُ ، وكان المطعمُ حَدَثاً (صغير السنّ) ضعيفاً لم يتعلم الرِّمَايَةَ بعْدُ . فلما سارا في الْبَادِيَةَ مَرَّتْ مَهَاهَةً (ظبيّة) فرمها الحَكْمُ فأخطأها . ثم مَرَّتْ بِهِمَا مَهَاهَةً أخْرِيَّ فرمها الحَكْمُ أَيْضًا فأخطأها . فقال المُطْعِمُ لِأَبِيهِ : يا أَبِي ، أَعْطَنِي هَذِهِ الْقَوْسَ . فَاعْطَاهُ أَبُوهُ الْقَوْسَ فَرَمَى الْمَهَاهَةَ فَأَصَابَهَا . فقال الحَكْمُ وَالْمُطْعِمُ عَنْدَئِذٍ : رَمِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ رَامٍ .

إنَّ الْأَمْثَالَ فِي كُلِّ أُمَّةٍ تُكْشِفُ عَنِ حَيَاةِ الْأَمْمَةِ . وإنَّا نحن درسنا الْأَمْثَالَ دراسةً فيها مُقارنةً وموازنةً رأينا بين أمثالِ الْأَمْمَ تشابهًا كبيراً ، ذلك لأنَّ الْمَجْرِيَ الْعَامُ فِي حَيَاةِ النَّاسِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ تَتَشَابَهُ كَثِيرًا . ولكنَّ ذلك مَوْضِعٌ آخرٌ .

لِغْوَيْ فِي شِرْكَانِ الْقُنْتَرَ

ليس هذا المقال مقالاً أدبياً ، وإن كان له عنواناً أدبياً . إنه محاولة لفهم الأدب فيما علمياً جدياً ؛ فالأدب ليس تغيراً بالعاطفة وحدها ولكن له مغزاً في جانب من جوانب الدماغ أيضاً .

أغرم الشعراً بالسماء ونجومها منذ عهد هوميروس في اليونان ، ولا شك في أن شعراً الأمم قبل اليونان قد أغرموا بذكر النجوم والكواكب في أشعارهم أيضاً . ولكن يبدو لي أن العرب يجب أن يكونوا أشد فتنةً بالسماء ونجومها لأن سماءهم أوسع فضاءً وأكثر صفاءً وأقل سحاباً وأندر ضباباً .

وذكر النجوم في الشعر العربي قديمه وحديثه يجري على نحوين :

على نحو لغوياً بلاغياً لا دلاله علمية فيه البتة ؛
ثم على نحو ذي دلاله علمية فلكية صحيحة أو شبه
صحيحة ، قريبة أو بعيدة .

ولكن بما أن الشعراء عامةً وشعراء العرب خاصةً قد قالوا في السماء والنجوم وأكثروا ، فقد اكتفيت هنا بابن المعتز وحده ، إلا في مُقدّماتٍ مُمهَّداتٍ لا غنىً عنها لفهم قواعد البحث .

وعلم الفلك في ديوان ابن المعتز بارزٌ جدًا ، فكلام ابن المعتز في السماء والشمس والقمر والنجوم والكواكب أكثر من أن يُحصى . وكذلك لحظ ابن المعتز في ديوانه^(١) توقيُّد كوكب المريخ (ص ١٥ ، ٢٧٦) . والمريخ نجم جميل يلمع في السماء لمعانًا أحمر ضعيفاً أو شديداً ، بحسب اقترباه من الأرض أو ابعاده عنها دوراً بعد دور .

ولكن دعْنا نأتي أولاً إلى أبياتٍ من الشعر القديم لنرى ما نقصُد بالاستعمال اللُّغويِّ البلاغي وبالدلالة العلمية الفلكية . وهنا أيضًا لا بد من الاكتفاء بنجم واحد ، أو بعنقود نجوم على الأصح هو الثريا ، حُصُرًا للموضوع .

لامريء القيس بيت في معلقته يقول فيه :

كأنَّ الثريا عُلِّقت من مَصَامِها بِأَمْرِ اسْ كَتَان إلى صُمَّ جَنْدِلِ
يُقصُدُ امرؤ القيس أن يقول إن الثريا تظهر هادئة جامدةً في السماء لا تتحرّك (كنية عن طول الليل الذي كان امرؤ القيس يشكوه في أيام شبابه وغرامه) . وليس لاستعمال «كلمة» الثريا هنا دلالة علمية ما . لقد كان لامرء القيس في هذا البيت غنيةً عن استعمال كلمة الثريا بغيرها من أسماء النجوم وغير أسماء النجوم .

(١) دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ .

وكان امرؤ القيس نفسه يُعرفُ ذلك ، فقال في بيت سابق على
البيت المذكور في معلقته أيضاً :

فيا لك من ليلٍ كأن نجومه بكل مغارِ الفتل شدتْ يَذْبَلِ
ففي هذا البيت يذكرُ الشاعر أن النجوم كلها (والثريا
معها طبعاً) تظهر وكأنها مربوطة بِجَبَالٍ ومشدودة بتلك الجبال إلى
جبل يذْبَلِ فلا تستطيع أن تتحرك لغيب وينتهي الليل الذي كان
الشاعر يشكو (في أيام حبه) من طوله .

وتختلط العصور كلها حتى نصل إلى أحمد شوقي فنراه أيضاً
يدرك الثريا ذِكْرًا لغويًا بَلاغيًّا فيقول في مطلع إحدى قصائده :
أَيُّهَا الْمُتَحِي بأسوان داراً كالثريا تُريد أن تنقضًا!

في هذا البيت يريدُ شوقي أن يصف تلك الدار بأنها عالية
جِدًا حتى تَبَدُوا وكأنها لا تستند إلى شيء فكأنها على وُشْكِ
السقوط في كل ساعة . ولقد كان لشوقي في هذا البيت غنيةً أيضاً
بكلمة أخرى نحو سُهيل ، العَذَارِي ، الأَنَافِي ، الْخَبَابِيَا ، الزَّبَانِي
وغيرها . وكل هذه من أسماء الأجرام السماوية وهي تُفَيَ بعرضِ
شوقي وامرئ القيس من قبله وزناً ومعنىً .

لِنَرْجِعُ الآن إلى أميرِ القيس في بيت آخر من معلقته :
ذهب امرؤ القيس ذات يوم إلى زيارة حبيبته فاطمة أو
عَيْنَزَة ، واتفق أن رأى الثريا أو أن الثريا خطرت له فتطلع إليها
ووصفها فقال :

إذا ما الثريا في السماء تعرَضَتْ تعرُضَ أثوابَ الوشاح المُفصَلِ

إن امرأ القيس قد وصف عنقود الثريا كما بدا له في تلك الليلة ، فيما اعتقاد ، فأرَخ لنا زيارته مع أنه كان هو حريصاً على ألا يعلم بمجيئه أحدٌ .

إن الثريا عنقود لا يبدو لنا دائماً في مكان واحد . فإذا نحن نظرنا في ألفاظ البيت وهي تدور على الفعل تعرّض (تصدى) ، بدا بأعراض جوانبه في مكان ظاهر من السماء (ثم صدقاً أن امرأ القيس لما دخل على حبيبته كانت تخلع ثيابها استعداداً للنوم وأن السُّمار الساهرين كانوا لا يزالون في كلامهم ، أي في أول الليل ؛ ثم علمنا أيضاً أن امرأ القيس كان يعيش في الجزء الشمالي في بلاد العرب ، وجَبَ أن تكون تلك الزيارة في فصل الشتاء ، وفي خلال شهر كانون الأول (ديسمبر) .

لعل استنتاجي ليس دقيقاً ، ولعل وصف امرأ القيس ليس دقيقاً أيضاً ؛ ولكن البيت نفسه ذو دلالةٍ فلكية ، لا شك في ذلك .

و قبل أن نأتي إلى ابن المعتز يحسن أن نُمْرِّب عمرَ بن أبي ربيعة مَرَّاً خفيفاً . كان عمرُ بن أبي ربيعة يتعشّق الثريا بنت علي بن عبد الله (١ : ٢٢٢ - ٢٣٥) فأكثر من زيارتها ومن ذكرها في شعره . وأراد أهلُ الثريا أن يقطعوا ألسنة الناس فزوجوا ابنتهم لأمير أمويٍّ هو سُهيلٌ بن عبد العزيز بن مروان على أن يحمل سهيل هذا زوجته ويذهب بها إلى مصر حيث كان أبوه واليا ، أو إلى الشام حيث كان هو يسكن .

ولم يكن عمر بن أبي ربيعة مسؤولاً بهذا التغيير فقال أبياتاً يُعرّض فيها بذلك الزواج فقال مُستغرباً :

أيُّها المُنْكَحُ الثريا سُهيلًا ،
عُمْرُكَ اللَّهِ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ !
ثُمَّ أَنَّهُ اسْتَطَرَدَ مِنْ اسْمِ الثريا بَنْتِ عَلَيِّ إِلَى عَنْقُودِ الثريا ،
وَمِنْ اسْمِ سُهيلِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ إِلَى النَّجْمِ الْمُعْرُوفِ بِاسْمِ سُهيل
وَقَالَ :

هِي شَامِيَّةٌ إِذَا اسْتَقَلَتْ ، وَسُهيلٌ إِذَا اسْتَقَلَ يَمَانِي !
وَقَدْ قَصَدَ ابْنَ أَبِي رِبِيعَةَ أَنْ مَطْلَعَ الثريا وَفَلَكَاهَا شَامِيَانَ
(شَمَالِيَانَ) ، وَأَنْ مَطْلَعَ سُهيلٍ وَفَلَكَاهَا يَمَانِيَانَ (جَنُوبِيَانَ) .
وَالْوَاقِعُ أَنْ سُهيلًا نَجْمٌ ، جَنُوبِيٌّ وَهُوَ لَا يُرَى فِي الْبَلَادِ الْوَاقِعَةِ شَمَالًا
خَطُّ الْعَرْضِ مِنَ الدَّرَجَةِ السَّابِعَةِ وَالثَّالِثَيْنِ . وَهُوَ لَا يُرَى دَائِمًا
بِطَبِيعَةِ الْحَالِ فِي الْبَلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْ ذَلِكَ الْخَطِّ جَنُوبًا . وَمُعَظَّمُ الْبَلَادِ
الْعَرَبِيَّةِ تَقْعِدُ فِي تِلْكَ الْمَنْطَقَةِ .

وَنَأَتَى إِلَيْهِ الْآنَ إِلَى ابْنِ الْمَعْتَزِ .

كَانَ ابْنُ الْمَعْتَزَ أَمِيرًا عَبَاسِيًّا وُلِّدَ سَنَةَ ٢٤٧ هـ (٨٦١ م)
وَعَاشَ فِي بَغْدَادَ عِيشَةً مُتَرْفَةً تَخَلَّلَهَا ، وَخَصْوَصًا فِي أَوَاخِرِهَا ،
تَنْغِيَصُ كَثِيرٌ . ثُمَّ إِنَّهُ بُوَيْعَ بِالْخِلَافَةِ سَنَةَ ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م) . غَيْرُ
أَنَّهُ بَقَى فِي الْخِلَافَةِ يَوْمًا وَلِيلَةً ثُمَّ خَلَعَ . وُقُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِنَحْوِ
عَشْرِينَ يَوْمًا .

وَكَانَ ابْنُ الْمَعْتَزَ شَاعِرًا مُتِينَ السُّبُكِ رَقِيقَ الْمَعْانِي وَقَافَ
مُعْظَمَ شِعْرِهِ عَلَى الْخَمْرِ وَالْوَصْفِ . وَاشْتَهَرَ بِوَصْفِ الْأَزْهَارِ
وَالنَّجْومِ . وَلَعِلَّ شِعْرَهُ النَّاضِجُ الْمَرِحُ الَّذِي نَحْنُ بِسَبِيلِهِ قَدْ نَظَمْتُ فِي
نَحْوِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، بَيْنَ سَنَةِ ٢٧٠ وَسَنَةِ ٢٨٥ هـ (٨٨٢ - ٨٩٨ م) .

إن علم الفلك في ديوان ابن المعتز بارزًّاً ، فشعر ابن المعتز في السماء والشمس والقمر والنجم والنجوم والكواكب والكواكب أكثر من أن يُحاط بتفصيله . وفي ديوان ابن المعتز إشارات ظاهرة عارضة ، لا دلالة خاصة لها ، إلى الزبانيين (ص ٤٩) وبنات نعش المعروفة باسم الدب الأكبر (ص ٢٠) ، إلى النسر (ص ٢٠٤) وإلى النسر والفرقددين ونجوم الأسعد (ص ٥٩) وإلى النسر أيضاً والعبيق (ص ٣٣٣) ، والجوزاء (ص ٢٢١) ، والمشتري (ص ٢٤٩) والمجرة (ص ٣٦٧ ، ٤٧٣) والسماء الأعزل (ص ٣٦٧) والذلو (ص ٤٥٧) . ولعل في « الكوكب الفرد » (ص ١٧٧) إشارة إلى أن الكوكب إذا كان كثير التوقد واللمعان بدا منفرداً (إذ تخفي النجوم التي حوله من أثر نوره) . ولعل في هذا أيضاً إشارة إلى الفردو ، وهي نجوم مُصطفة خلف الثريا (القاموس : ١ : ٣٢٢) . غير أن الأليق أن يكون الكوكب الفرد المذكور في شعر ابن المعتز هو « الفرد » أو فرد الشجاع^(١) . ومن أسمائه الشجاع وعنق الشجاع وسهيل الفرد وسهيل الشام . وسمي (هذا) النجم بالفرد لأنفراده من أشباهه وتنحيه إلى ناحية الجنوب . وهذا النجم يُشار إليه بالرقم ٢١١ وبالحرف أ من صورة التنين ، وهو يلمع لمعانا واضحًا في منطقة من النجوم الخفية^(٢) . وهكذا أصبح من اليسير اجتلاء الصورة التي أراد ابن

(١) الشجاع هو الشعبان ، وهنا التنين (أحد عناقيد النجوم) .

(٢) القاموس الفلكي تأليف الأستاذ منصور جرداق ، بيروت ١٩٥٠ ، ص ١٠٣ ، راجع ٩٥ ، ٢٧٣ ، ١٨٨ ، ١٤٨ .

المعتَزَ أن يجعلها للخمر (ص ١٧٧ ، البيت ٣) :
يُمْحِي سُلَافَ الخمر في عسجدية تَوَهَّجُ في يُمناه كالكوكب الفرد !
وفي ديوان ابن المعتَز بيتان في الخمر هما (ص ٧٩) :

ألا فاسْقِنِيهَا قَدْ نَعَى الْلَّيلَ دِيكُهُ . . .
وقد لاح للساري سُهيل كأنه على كلّ نجمٍ في السماء رقيب
إن ابن المعتَز يذكر هنا أن النجم سهيلًا يكون في آخر الليل
رقبياً على النجوم كلّها . والرقيب في النجوم هو النجم الذي يبدأ
بالظهور من المشرق حينما يبدأ نجم آخر في الغروب في المغرب .
إذا كان سهيل رقيباً على « كلّ نجم في السماء » ، فمعنى ذلك
أنه النجم الذي يبدأ بالظهور في المشرق حينما تبدأ أو آخر النجوم
الاختفاء وراء الأفق الغربي . وهذا يصدق على سهيل في المنطقة
التي نعيش فيها .

وهنالك في ديوان ابن المعتَز بيتٌ آخر (ص ٢٠٠) :
ويوم من الجوزاء أصليت ناره وقد ستر الكناس إذ بان مشتري
وفي حاشية الديوان أن عَجَزَ البيت غامض . الواقع أن
البيت كله كما ورد في الديوان (بفتحة على اللام من « أصليت » ،
و« ستر » في العجز غامض) .

أما الشطر الأول فالأمر فيه يسير ، أنه يجب أن يكون :
« ويوم من الجوزاء أصليت » (بالبناء للمجهول) ناره . والمعنى
واضح مشهور : إن كواكب الجوزاء تكون في أواسط الصيف ،
وعلى ذلك قول أبي نواس : « أَنْضَجْنَا كواكبَ الجوزاء » .

وأما الشطر الثاني : « وقد ستر الكناس إذ بان مشترى » . . .

وإذا كان ناشر الديوان قد أثبتت الأحرف (بقطع النظر عن النقاط والحركات) صحيحة ، فإننا نستطيع أن نقرأ هذا الشطر هكذا : وقد سَيِّر (بالياء وبالبناء للمجهول) الكناس - إذا بان - مشترى ، أو : وإن (لما) بان (ظهر) الكناس (الكوكب في النظام الشمسي) مشترى (المشتري) وقد سَيِّر (ظهر عليه سيران أو خطان أسودان) . ومن المعروف أن الكوكب المشتري يحيط به حزامان داكنان عند الوسط . وإذا كان هذان الخطان لا يُرىان إلا بمنظار ، فإنهما لا يحتاجان على كل حال إلى منظار كبير . ثم أن رجلا أميرا عالما مثل ابن المعتز يعيش في مدينة بغداد لا يبعد أن يكون قد رأى القبة الزرقاء من خلال الاسترلاب مرارا .

ونأتي بعد ذلك إلى بيتين آخرين لابن المعتز (ص ١٤٤) :

شربُتها ، والديك لم يتتبه سكرانٌ من نومته طافح ؛
ولاحِت الشعري وجوزاؤها كمثل زَجْ جرَه رامخ !
وقد جاء في حاشية الديوان المنشور : الشعري والجوزاء من الكواكب . الزَّجْ حديدة في أسفل الرمح . إن التفسير اللغوي صحيح ، ولكن لا صلة له بالصورة الفلكية .

يخبرنا الشاعر في البيت الأول أن الليل لم يتصف بعد ، فإن الديك لم يَرُلْ نائما ، والديك يَصْبِح للمرة الأولى ، فيما يقال ، قبيلاً مُتَصَّفِ الليل .

يبدو أن الشاعر كان سهراً في تلك الليلة ، في النصف الأول من شهر آذار ، إلى نحو منتصف الليل ، لأن هذا الوقت من

ذلك التاريخ يجمع السِّماك الرامح والجُوزاء والشِّعرى اليمانية في مجال النظر ، ولكن يبعدُ فيه السِّماك الرامح عن الجُوزاء والشِّعرى في رأي العين كثيراً . ولبعد ما بين السِّماك الرامح وبين الشِّعرى والجُوزاء في سمائنا يصعبُ استجلاءُ الصورة التي تبدَّلت للشاعر ، أو لخيال الشاعر ، منذ أحد عشر قرناً . وحيثما أن نظل ذاكرين لهذه الملاحظة حتى نصل إلى آخر المقال .

الثريّا خاصة

والثريّا مجموعة نجوم كانت محبّة إلى ابن المعتز ، كما كانت محبّة أيضاً إلى غيره من الشعراء العرب والإفرنج . ولابن المعتز في الثريّا بضعةُ أوصاف عارضة (ص ٣٦ ، ١٣٨ ، ٣٤٢ ، ٤٦٧) . ثم إنَّ له أوصافاً ذاتَ دلالاتٍ يمكن أن تكونَ مهمةً . فابن المعتز يُكثِّر من ذكر وجود الثريّا في الجانب الغربي من السماء ، فهو يقول مثلاً (ص ٤٠٢) :

إذ ترومُ الثريّا في الغروب مَراما

وهي في الغرب مُضيئَة أيضاً (ص ٢٢٦) :

والثريّا كَنْوِرْ غُصْنٌ على الغرب قد نُثِرْ
ثم إنها تتلألأ وهي متوجهة نحو الغرب (ص ١٣٦) ، وكان ابن المعتز يراها كأنها تمثُّل ناقةً عليها هودج :

كأنَّ الثريّا هودجٌ فوق ناقَةٍ يحُثُّ بها حادٍ إلى الغرب مُزعجٌ
وقد لمعتْ حتى كأنَّ بريقَها قواريرٌ فيها زئبقٌ يتَرَجَّح !
لم يصف ابن المعتز الشكلَ العام للثريّا فقط ، بل ذكر أيضاً

تبَدِّل شَكْلُهَا وَهِي تَتَّجِه فِي مَسِيرِهَا نَحْوَ الْغَرْب . قَالَ يُشَبِّهُهَا بِالْفَرْوَقِ (الخائف) الَّذِي يَمْيِل بَعْنَقِهِ مِنْ غَيْرِ التَّفَاتٍ لِيُسْمَعَ مَا يُقَالُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْطَنَ لِاسْتِرَاقةِ السَّمْعِ أَحَدًّا (ص ٣٤٣) :

وَقَدْ مَالتُ إِلَى الْغَرْبِ الثَّرِيَا كَمَا أَصْفَى إِلَى الْحِسْنِ الْفَرْوَقُ .

وَكَذَلِكَ يَبْدُوا أَنَّ الثَّرِيَا تَمِيلُ قَلِيلًا إِلَى الْيَسَارِ وَهِي تَتَّجِهُ غَرْبًا (أَوْ نَحْنُ نَرَاهَا كَذَلِكَ وَأَرْضُنَا تَدْوِرُ بَنَا عَلَى مَحْوِرِهَا مِنْ الْغَرْبِ إِلَى الْشَّرْقِ) . وَهَذَا مَا رَأَاهُ ابْنُ الْمَعْتَزَ .

إِنْ مَلاَحِظَةَ ابْنِ الْمَعْتَزِ فِي مَكَانِهَا . نَحْنُ نَعْرِفُ مِنَ النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ أَنَّ عَنَاقِيدَ النَّجُومِ ، وَخَصْوَصَةً مَا عَظِيمٌ مِنْهَا كَالْدَبُ الْأَكْبَرِ وَالْبَتَّينِ ، تَبَدَّلُ أَمَاكِنُهَا بَيْنَ سَاعَةٍ وَسَاعَةٍ مِنَ الْلَّيلِ (مِنْ أَثْرِ دَوْرَانِ الْأَرْضِ بَنَا مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الْشَّرْقِ) ، وَقَدْ تَبَدَّلُ أَشْكَالُهَا أَحْيَاً إِذَا أَصْبَحَ نَظَرُنَا إِلَيْهَا مِنْ زَاوِيَّةٍ غَيْرِ الزَّاوِيَّةِ الَّتِي كَنَا نَنْظَرُ إِلَيْهَا قَبْلَ ذَلِكَ . إِذَا ظَهَرَ عَنْقُودُ فِي الْمَشْرِقِ بِأَحَدِ جَانِبِيهِ إِلَى الشَّمَالِ ، فَإِنَّهُ يَصْلِي إِلَى الْغَرْبِ وَذَلِكَ الْجَانِبُ مَائِلٌ إِلَى الْغَرْبِ أَوْ إِلَى الْجَنُوبِ .

حِينَما يَبْدُأُ اللَّيلُ فِي السَّمَاءِ فَإِنَّ الْمَجَرَّةَ (دَرْبُ التَّبَانِ) وَتَسْمَى أَيْضًا بَابَ السَّمَاءِ وَأَسْمَاءً أُخْرَى) تَكُونُ مُسْتَعْرِضَةً مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ . إِذَا نَهَضَ أَحَدُنَا بَعْدَ مُتَّصِفِ اللَّيلِ وَكَرَّ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ فَإِنَّهُ يَرَى الْمَجَرَّةَ قَدْ اسْتَطَالَتْ مُتَجَهَّةً مِنَ الْشَّرْقِ إِلَى الْغَرْبِ . وَالثَّرِيَا بِطَبَيْعَةِ الْحَالِ تَفْعَلُ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ بِمَا أَنَّ حَجْمَهَا فِي رَأْيِ الْعَيْنِ ، وَفِي الْوَاقِعِ أَيْضًا ، أَصْغَرُ مِنْ حَجْمِ الْمَجَرَّةِ جَدًّا ، فَإِنَّا لَا نَرَى ذَلِكَ بِوضُوحٍ . وَلَكِنْ ابْنُ الْمَعْتَزَ رَأَى

ذلك ، ورأى أيضاً أن الثريا تكون أحياناً في مكان من السماء يكاد يخلو من النجوم . فقد قال (ص ١٥٩) :

وترى الثريا في السماء كأنها بيض بأدحى يلوم بفدهـ.

والأدحى هو المكان الذي يبيض فيه النعام في الرمل .

والفدهـ هو الفلاة أو المكان المرتفع أيضاً . ولكن الذي يبدو أن ابن المعتر قد قصد بالفدهـ الفلاة ، كنائبة عن خلاء ما حول الثريا من النجوم ، يؤكّد ذلك قوله (ص ١٧٧) :

قُمْ ، يا نديني ، نصطحب بسواـ ؛ قد كاد يbedo الصبح أو هو بادـ
وأرى الثريا في السماء كأنها قـدـم تبدـت في ثـيـاب حـدـادـ

أي بيضاء في مكان أسود من السماء (حالٍ من النجوم) .

الثريا والهلال

ويُبَرِّ الشاعر ابن المعتر لنا مشكلةً عسيرة الحل حينما يجمع بين الثريا والهلال في مكانيـن قريبـ أحـدـهما من الآخر . فهو يقول مثلاً (ص ١٨٥) :

زارني والـدـجـي أحـمـ الحـواـشـي ، والـثـريا فـي الـغـرب كالـعـنـقـودـ ،
وهـلـالـ السـمـاء طـوقـ عـرـوسـ بـاتـ يـجلـى عـلـى غـلـائـلـ سـوـدـ

إن الثريا نجم شمالي ومدارـها الظاهر لنا من الشرق الشمالي إلى الغرب الشمالي ، ثم إنها لا تصلـ إلى الأفق الغربي في سمائنا إلا متأخرـة . أما الهـلـال فإـنه يـظـهـر بـعـد أـنـ يـولـدـ في أـفـقـنا الغـرـبـيـ مـائـلاً إلى الجنـوبـ ، ثم لا يـمـكـثـ فوقـ الأـفـقـ إـلا مـدـةـ يـسـيـرةـ ، مما لا يـدـعـ

مجالاً لاجتماع الثريا بالهلال في مجال محدود (كما تعرف في سمائنا وفي أيامنا الحاضرة) .

وابن المعتز يُحِبُّ هذا الجمع بين الثريا والهلال ، وقد ردَّ ذلك في بيتِيه المشهورين (ص ٤٧١) :

وَكَانَ الْمَجَرُ جَدْوِلُ مَاءٍ نُورَ الْأَقْحَوْانَ فِي جَانِبِيهِ
وَكَانَ الْهِلَالُ نَصْفُ سِوارٍ وَالثُّرِيَا كَفُّ تُشِيرُ إِلَيْهِ !

أما المشكلة التي تطلُّب حلّاً فهي التالية :

إن البيت الثاني من بيتِي ابن المعتز يقتضيان أن يكون ابن المعتز قد رأى الثريا في الأفق الغربي في أول الليل مائلةً بجانبها العريض (الشمالي حين ظهورها في الأفق الشرقي) نحو الجنوب في اتجاه الهلال ، وعلى قرب ملموح يوحى بالتشبيه التمثيلي الجميل :

وَكَانَ الْهِلَالُ نَصْفُ سِوارٍ وَالثُّرِيَا كَفُّ تُشِيرُ إِلَيْهِ !

لذكرِ الآنَّ أننا قد استبقينا ملاحظةً تتعلق بالمسافة بين السماك الرامح والشُعري والجُوازاء ، فيحسنُ ضمُّها إلى القضية الدائرة على المسافة بين الثريا والهلال في الأفق الغربي . والجدير بالذكر أن ما رأه ابن المعتز في الحالين مُخالفٌ لمَلْوَفنا ، أقصِدُ مَلْوَفَ النَّاسِ الذين يَعْرِفُونَ من الفلك هذا المقدار الضئيل الذي نراه في هذا المقال .

إننا على أرضنا من نظامِ غيرِ النظامِ الذي منه الثريا . ونظامُنا يَسِيرُ ، والنظامُ الذي منه الثريا (الثور) يَسِيرُ أيضًا . فهل

حدَث في أحد عشر قرناً، منذ أيام ابن المعتز إلى يومنا، أن اختلَّتُ أماكنُ الثريا في السماء حتى أصبحنا لا نستطيع أن نرى الصُور الفلكية التي كان ابن المعتز يراها منذ أحد عشر قرناً في بغداد؟ أجل. إن النجوم تغير أماكنها (بالنسبة إلى أرضنا) باستمرار. ولكننا نحن لا ندرك ذلك ، فإن تبدل أماكن النجوم في السماء يجري ببطء شديد (بالنسبة إلى مقدرتنا على الرؤية من تلك المسافات الشاسعة). فلا شك ، إذن ، في أن الثريا كانت تُرى (في أيام ابن المعتز : منذ أحد عشر قرناً) في غير المكان الذي نراها نحن فيه الآن.

إن جميع النجوم الثابت (الخارجة عن نظامنا الشمسي والتي تظهر لنا كأنها ثابتة بالإضافة إلى حركة أرضنا حول الشمس) تسير في اتجاه معاكسٍ لمسیر نظامنا الشمسي الذي يسير أيضاً في هذه السماء الواسعة بجميع ما فيه من الكواكب الكبار والصغار ، ويمكن أن يكون نظامنا الشمسي يسير أيضاً في الاتجاه الذي تسير فيه جميع النظم النجمية ، ولكن بسرعة أقل. من ذلك حسب علماء الفلك تقهقر النجوم الثابت (بالإضافة إلى ما نرى نحن من أرضنا) فوجدو تقهقرًا يبلغ $26,50$ ثانية (خمسين ثانية و 26 من المائة من الثانية) نحو الشرق في كل عام . ففي كل مائة عام يزيد التباعد بين نظامنا الشمسي وبين النظم النجمية الأخرى 5026 . (خمسة آلاف وستة وعشرين) ثانية أو نحو 84 (أربع وثمانين) دقيقة باعتبار الدقيقة ستين ثانية في الدائرة وفي الساعة على السواء.

ولقد كنا رأينا أن نشاط ابن المعتز في نظم شعره الوصفي

والخمرى كان بين سنة ٢٧٠ وسنة ٢٨٥ للهجرة (٨٨٢ - ٨٩٨ م) ، ونحن اليوم في سنة ١٤٠٠ للهجرة (١٩٨٠ م) ، فيكون ابن المعتز قد رأى الثريا ، في سماء بغداد ، قريباً من الهلال منذ ألفٍ ومائة سنة هجرية أو تزيد (أو منذ نحو ألفٍ ومائة عامٍ ميلادي) . ومعنى هذا أن الثريا قد تقهقرت في رأي العين عن نظامنا الشمسي (وبالتالي عن أرضنا) نحو الشرق مقداراً هو ٩٤ (تسعمائة وأربع عشرين) دقيقة (من الدائرة) أو خمس عشرة درجة وثلث الدرجة . والدرجة سبعون دقيقة .

ويحسن أن نلاحظ ، من الناحية العلمية ، أن تقهقر الثريا نحو الشرق نحو ست عشرة درجة قد وقع في سمائنا ، وهي نصف الكورة التي فوقنا . فالفرق عملياً هو ست عشرة درجة من مائة وثمانين درجة في رأي عيوننا . فإذا نحن أضفنا إلى ذلك شيئاً من خيال ابن المعتز الشاعر ، أصبح بيته الذي يجعل مكان الثريا من مكان الهلال ، في أول الشهر القمري ، منذ ألفٍ ومائة عام ، وفي فصل الشتاء (إذا كانت السماء صافية طبعاً) وفي نحو الساعة السابعة (حينما يصبح القمر قريباً من ربعه الأول) معقولاً جداً .

لقد كان لنا في شعر ابن المعتز المتعلق بالنجوم دلائل فلكية واضحة لا يمكن أن تكون راجعة إلى خياله الشعري وحده : لقد كان ابن المعتز على جانبٍ من العلم بالفلك ، كثثيرين من معاصريه الأدباء والشعراء ، ثم أدخل ما يعلمه من الفلك في ثنایا شعره فاكتسب شعره هذه الميزة التي درسناها في هذا المقال .

بقي لي أنا ملاحظتين :

الملحظة الأولى إلى الأدباء الذين يعتقدون أن الأدب (والشعر خاصة) عمل العاطفة وحدها في إنتاجه وفي التمتع بقراءته . وعند هؤلاء أن الأديب يكتب والشاعر ينظم من غير أن يكون لعقله سلطة على ما يفعل : إن الأدب عند هؤلاء ينبع من الخيال والانفعال والغريرة ، وهم يرون أن العقل الذي وهب للإنسان وأصبح الإنسان به وحده إنساناً يمكن أن يستغل في كل شيء إلا في الأدب .

أنا أحترم هؤلاء لأنهم يقولون بما يشعرون ثم يضعون أنفسهم حيث يشارون أو حيث يستطيعون ، ولكنني لا أُنصح أحداً بأن يغطّهم على ذلك . إن أدباءنا الكبار في التاريخ لم يخلدوا على وجه الدهر إلا لأنهم وضعوا شيئاً من عقولهم في إنتاجهم الأدبي . قد أفتح مجلة تصدر في كل شهر مرّة ، هنا أو هناك أو هنالك ، فلا أجده فيها في الشهر بعد الشهر مقالاً واحداً يقرأ ، ثم يبقى منه في عقل القارئ شيء ينفعه . أكلَّ رجلٍ وضع لنا على القرطاس شيئاً من اختباره الشخصي العام القاصر وجّب أن يكون عندنا كاتباً نُفق على ما يكتب دقائق من وقتنا ؟ أكلَّ شابَ رأى فتاةً ، أو خطّرتْ في خياله فتاةً موجودة أو غير موجودة ، ثم جمّع لنا جملاً مملوءة بالنقاط المتالية وبعلامات الاستفهام والتعجب يحبّ أن يكون ما كتبه قصة ؟

وبعد ذلك كلّه يجب أن ندرك أن الأدب الذي لا عقل فيه ليس بأدب . وأن الزمن الذي كان العرب فيه جاهلين أو شبه جاهلين ثم قام فيهم نفرٌ من الأذكياء استسهلو الصعب (أو

استصعبُوا السهلَ على الأصحِ) فجاءوا بقطعٍ من السُّكَرِ نَتَشُوهَا مِنْ
تُرَاثِ الْأَوَّلِينَ وَأَذَابُوهَا فِي جَرَارٍ مِنْ مَاءِ كَلَامِهِمْ وَسَمَّوْا ذَلِكَ أَدْبَرَ
تجديدهِ ، إِنْ ذَلِكَ الزَّمْنُ قَدْ مَرَ الْآنَ وَغَيْرَ . وَإِنْ كَتَبَ هُؤُلَاءِ سَتَظْلَمُ
تَقْرَأُ مَا دَامَ فِي الْعَرَبِ جَاهِلِينَ وَأَرْبَاعَ مُتَعَلِّمِينَ كَالرَّجُلِ الَّذِي لَا
يُسْتَطِيعُ أَنْ يَرْقَى قِيمَةَ الْجَبَلِ لِيُشَرِّفَ مِنْهَا عَلَى أَجْمَلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ
يَقْاعِ الْأَرْضِ فَيَكْتَفِي أَنْ يَصْعُدَ إِلَى سَطْحِ كَوْخِهِ ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّهُ يَرَى مِنْ
ذَلِكَ السَّطْحِ مَنَاظِرَ أَجْمَلَ مِنَ الْمَنَاظِرِ الَّتِي تُرَى مِنْ جَمِيعِ قِمَمِ
الْجَبَلِ .

كثِيرًا مَا أَرَى فِي تَطْوِافِي نِسَاءً يَحْمِلُنَّ جَرَارَ المَاءِ عَلَى
رُؤُسِهِنَّ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ لِيُشَرِّبَنَّ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ فِي بَيْوَتِهِنَّ وَيَسْقُونَ
مِنْهُ رِجَالُهُنَّ وَأَطْفَالُهُنَّ وَلِيَقْضِيَنَّ بِهِ حَاجَاتِهِنَّ وَلِيَرْدَدُنَّ بِهِ عَوَادِيَ
الْمَرْضِ وَالْوَسْخِ فَأَقُولُ فِي نَفْسِي : إِنَّ شَعْبًا لَا يَزَالُ يَحْمِلُ الْمَاءَ
عَلَى رَأْسِهِ لَشَعْبٌ لَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقُولَ إِنِّي عَرَفْتُ الْعِلْمَ ، لَأَنَّ الْعِلْمَ
أَمَانَةٌ وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَخُونَ أَمَانَتَهُ ، وَخُصُوصًا إِذَا كَانَ الْقَائِمُونَ
عَلَى ذَلِكَ الشَّعْبِ يَقْصِدُونَ أَنْ يَبْقَى ذَلِكَ السُّوءُ فِي شَعْبِهِمْ أَوْ لَا
يَجْهَدُونَ فِي أَنْ يُبَدِّلُوهُ .

نَحْنُ نَدْعُو الْعَرَبَ إِلَى اسْتِرْدَادِ مَكَانِتِهِمُ الْأَدْبَرِيَّةِ الصَّحِيحَةِ
بِاعْتِمَادِ الْعِلْمِ وَالْعُقْلِ فِي مَا يُنْتَجُونَ . أَرَانِي قَدْ أَطْلَتُ فِي خَطَابِ
الْأَدْبَرِيَّةِ الْمُعَاصرِينَ ، وَلَعَلَّنِي قَدْ بَلَغْتُ مَا أَرِيدَ .

أَمَا الْكَلْمَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ لِسَادِتِي عِلْمَاءِ الرِّيَاضِيَّاتِ وَالْفَلَكِ
الَّذِينَ سَيَرُونَ فِي أَرْقَامِي وَحُسْبَانِي شَيْئًا مِنَ الْخَلَلِ أَشْعُرُ بِوُجُودِهِ وَلَا

أهتدى إلى مكانه . ولو أني اهتديتُ إلى مكانه لأصلحْتُه قبلَ أن يصدرُ إليهم . غير أني واثقٌ من أنَّهم يشَرِّكوني في حبِّ العلم ومن أنَّهم سيفسَخُونَ ما يحتاجُ إلى تصحيحٍ فاؤكُونَ لهم من الشاكرين . ولا ريبَ في أنَّ في تصحيحِهِمْ هذا نفعاً لعديٍّ كبيرٍ من القراء وخدمةً للعلم نفسه .

لَهُمُ الْتَّعْرِيفُ الْعَرَبِيُّ فِي الْقَامُوسِ الْإِسْبَانِيِّ وَالْأَكْلَافُ لِلْفَرْنِي

في هذه المرة أختار أن أقرأ القاموس العربي باللغة الإسبانية ، أي أن أستعرض الكلمات العربية في القاموس الإسباني . ومع أن معرفتي بالإسبانية من حيث الشمول ومن حيث الدقة لا يُرْكَنُ إليها ، فإنَّ هذا العمل الإحصائي - من الوجهة العامة في النظر إلى الموضوع المقصود - ممكن من خلال معرفتي المحدودة .

إنَّ ثمانية قرونٍ من الحكم الإسلاميَّ العربي (٩٢ - ٨٩٧ هـ)^(١) في شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال) يجب ، في منطق التاريخ ، أن ترك أثراً واضحاً جدًا في كلَّ ميدانٍ من ميادين الحياة في تلك البلاد ، مع العلم اليقين بأنَّ هذا الحكم كان - في أثناء تلك القرون الثمانية - متفاوتاً تفاوتاً كبيراً من حيث الرُّقْعَةُ التي سيطر عليها في الأدوار المختلفة ثمَّ من حيث اجتماعُ السلطة في

(١) عام ٧١١ إلى عام ١٤٩٢ للميلاد .

أيدي الحكام الذين تولوا حكم رقاعٍ من الأندلس في الأزمنة المختلفة .

من المعروف أن في اللغة الإسبانية عدداً كبيراً من الكلمات العربية . وقد استعرضت «قاموس اللغة الإسبانية»^(١) فعُدَّت فيه نحو ألفٍ ومائتي جذر عربي يرجع إليها نحو ألفيَّ كلمة إسبانية أو أكثر من ألفين قليلاً . ولا ريب في أنَّ هذا العدد قليلٌ جدًا ، لا بالإضافة إلى المشهور في هذا الموضوع فقط ، بل بالإضافة أيضاً إلى تلك المدة الطويلة التي يَبْقَى في أثنائها العربُ في الأندلس ثم إلى تلك المكانة السامية التي كانت للحضارة والערבية وللغة العربية فوق سائر الحضارات واللغات في تلك الحقبة من الزمن في العالم كله . وإذا نحن قَصَرْنَا النظر على اللغة ثم نظرنا إلى اللغة التي تكلَّمُها المستعربون (نصارى الأندلس) في أثناء الحكم الإسلامي العربي - وهي اللغة التي نَبَعَت منها اللغة التي يتكلَّمُها الإسبان اليوم - لم نجد أن تلك اللغة كانت تحتلَّ مكانة ظاهرة في موكب اللغات في العالم .

إنَّ لغة المستعربين كانت في الأصل لهجةً مشوهةً من اللاتينية التي كانت مَحْكِيَّةً في إبيريا مع رواسب من لهجاتٍ أخرى محليةً ، وكان العربُ يسمونها «الأعجمية»^(٢) . ولا ريب أيضاً في أنَّ الكلمات العربية فيها كانت كثيرةً كثرةً كبيرةً . ولكن يبدو أنَّ هذه «الأعجمية» كانت فاقدةً على الطقوس الدينية وعلى تراطُّنِ

(Diccionario de la lengua española, Madrid (Real Academia Española), éd.17, 1947; éd. 19a, 1970.

(١)

aljamia.

(٢)

المستعربين^(١) بها فيما بينهم في بيوتهم وبين المسلمين ، ذلك لأنَّ هؤلاء المستعربين كانوا يتكلّمون اللغة العربية في حياتهم العامة وكانوا يكتبون بها أيضًا ، كما كانوا يحسنون اللغة العربية ويرعون في التعبير بها اجتماعيًّا وأدبيًّا فوق ما كانوا يحسنون لهجتهم اللاتينية ولغتهم الأعجمية في كلّ وجه . ومن معرفة هؤلاء باللغة العربية مع بقائهم على النصرانية جاء اسمهم « المستعربون » .

وبعد نحو قرنين من الزمن - في نحو عام ١٢٧٠ للميلاد (٦٧٠ للهجرة) ، بعد الفتح العربي بأكثر من خمسة قرونٍ ونصف قرن - استطاع ألفونسو العاشرُ المعروفُ بلقب الحكيمِ ملك قشتالة ولُيونة^(٢) - بما كتبه هو وبما أمر أن يُنقل من اللغة العربية وغيرها إلى اللهجة التي كان يتكلّمها المستعربون في ذلك الحين - أن يوجد اللغة الإسبانية القديمة . وفي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد (أواخر القرن التاسع للهجرة) قُبِيل خروج العرب من الأندلس أصبحت تلك اللغة الإسبانية لغةً رسمية . ولكن تلك اللغة لم تبلغ إلى عصرها الذهبي وإلى أن تُصبح الأداة المعبّرة عن الأدب الإسباني الزاهي (١٥٣٠ - ١٦٨٠ م) إلا في أواسط القرن السادس عشر . ثم جاءت اللغة الإسبانية الحديثة^(٣) .

* * *

mozarabes

(١) التراطن : كلام لا يفهمه العرب . المستعربون :

(٢) ألفونسو العاشر الحكيم (١٢٢١ - ١٢٨٤ م) . قشتالة في أواسط إسبانيا ، ول يونة في الشمال الغربي من إسبانيا .

Cf. Enc. Britannica (1970) 20: 1122.

. (٣)

و قبل أن أعرض للأسباب التي جعلت الكلمات العربية قليلة في القاموس الإسباني (لا في اللغة الإسبانية) يحسن أن أشير إلى نطاق الإحصاء الذي قمت به . لقد أستندت في الدرجة الأولى إلى «قاموس اللغة الإسبانية» فعددت فيه الكلمات التي ذكر أصحاب ذلك القاموس أنها ترجع إلى أصل عربي . ولم يكن هذا العمل صعباً على - ولا يمكن أن يكون صعباً على أحد غيري - ذلك لأن أصحاب هذا القاموس أنفسهم قد أثبتوا بعد كل مادة ، وبعد عدد من الصيغ أيضاً ، الكلمة العربية التي ترجع تلك المادة أو تلك الصيغ إليها . ولقد أثبتوا ذلك بالحرف العربي أيضاً^(١) .

ثم بدا لي وشيكاً أن «قاموس اللغة الإسبانية» غير واف بمقصودي من كل وجه فرجعت إلى عدد من الكتب منها^(٢) :

(١) هذا ينطبق على الطبعة السابعة عشرة . أما الطبعة التاسعة عشرة فقد بقيت الإشارة إلى الأصل العربي للكلمات الإسبانية ولكن بالحرف اللاتيني .

- (2)- Glossaire des mots espagnols et portugais dérivés de l'arabe, par R. Dozy et W.H. Engelmann, seconde édition, Amsterdam (Oriental Press) 1915.
- Los arabismos del español en el siglo XIII, por Eero K. Neuvonen, Helsinki (Imprenata de la Sociedad de Literatura Finesa) 1941 (en Studia Orientalia, edidit Societas Orientalis Fennica, vol. X, Helsingforsiae, 1942).
 - Zur Sprache der Mozaraber, von Arnald Steiger (Sonderabdruck aus Sache, Ort und Wort, Festschrift Jakob Jud, Romanica Helvetica 20), Genève (Lib. E. Droz) et Zürich-Erlenbach (E. Rentsch Verlag) 1942.
 - Contribución a la fonética del hispano-árabe y de los arabismos en el ibero-románica y el siciliano, por Arnald Steiger, Madrid (Junta para ampliación de estudios. - Centro de estudios históricos: Revista de Filolo-

- معجم الكلمات الإسبانية المقتبسة من العربية لأحمد المكناسي ، تطوان (دار كريماديس للطباعة) ١٩٦٣ م (وهو باللغة العربية) .

- معجم الكلمات الإسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية .

- اليعربيات^(١) الإسبانية في القرن الثالث عشر (للميلاد) .

- في لغة المستعربين .

- بحوث تتعلق بالأداء اللغطي في اللغة العربية الإسبانية واليعربيات في اللغة الإيبيرية الرومانسية وللغة الصيقلية .

ولكنَّ عددَ الكلِمَاتِ العربيةِ في القاموسِ الإسبانيِّ ظلَّ قليلاً !

وتبدو قلة الكلمات العربية في القاموس الإسباني - وفي أول الأمر - مشكلةً مُحِيرَةً ! فإذا نحن أنعمنا النظر في هذه القضية اتضحت لنا الرؤية ثم وصلنا إلى أسباب تحميلنا على تفسير تلك الظاهرة - ظاهرة قلة الكلمات العربية في القاموس الإسباني تفسيراً معقولاً . من هذه الأسباب :

logia española, anejo XVII), Madrid (Imprenta de la Librería y Casa = Editorial Hernando) 1932.

راجع أيضاً :

— Manual de gramática histórica española, por R. Menéndez Pidal, Madrid (Espasa-Calpe) 1952.

— El idioma española en sus primeros tiempos, por R. Menéndez Pida, España-Argentina (Espasa Calpe) 1951.

(١) الألفاظ والتعابير العربية التي حافظت على طابعها وعلى عدد من خصائصها العربية بعد دخولها في اللغة الإسبانية .

١ - إنَّ الذين قاموا على إخراج «قاموس اللغة الإسبانية» لم يكونوا من البارعين في فقه اللغة العربية^(١) .

٢ - إنَّ عدداً من الكلمات العربية قد تشوَّهَ على لسان المستعربين (نصارى الأندلس) واليهود^(٢) وهم متفرقون في شبه جزيرةٍ تبلغ مساحتها سِيَمِائَة ألفٍ وخمسمائة كيلومتر مربعٍ ومعزولٍ بعضُ مناطقها عن بعضٍ بالجبال والأنهار عزلاً كبيراً . وقد كان هذا التشوئ في كثير من الأحيان كبيراً جدأً حتى أفقد عدداً من الكلمات العربية الأصل كلَّ شَبَهٍ لها بأسلوبها^(٣) .

٣ - إنَّ عدداً من الكلمات العربية حينما تقلَّبَ في الصيغة الإسبانية المختلفة أصبحَ قريبَ الشَّبَهِ جدأً بالكلمات الإسبانية نفسها . هنالك صيغٌ تُرْجَعُ كلَّ واحدةٍ منها مرَّةً إلى جذرٍ عربيٍ ومرةً

(١) يدلُّ على ذلك تهجّمات خاطئة في عدد من الكلمات العربية . ثمَّ أنَّ القائمين على القاموس وجدوا أنَّ يتركوا إثبات الأصول العربية للكلمات بالحرف العربي في الطبعة التاسعة عشرة (ورثما في الطبعة الثامنة عشرة التي لم أطلع عليها) .

(٢) إنَّ اليهود الذين طردوا من إسبانيا في أثناء جلاء العرب عن الأندلس وبعيد ذلك لا يزالون إلى الآن يتكلّمون اللغة الإسبانية كما كانت في ذلك العهد ، من أجل ذلك هم الآن الشاهد الحي على صورة لغة المستعربين .

(٣) في اللغة الإسبانية كلمات عربية ابتعدت عن أصولها العربية مثل :

| | |
|----------|------------------|
| enjeco | الشكاء (المرض) ? |
| anorza | العرشان (?) |
| carcax | الخلخال |
| almarade | المخرز |

ثمَّ هنالك الْهُرْيِ (بضمَّ الهاء وسكون الراء : بناء لخزن الحبوب - وجمعه أهْرَاء) ، ويبدو في الإسبانية في الصور التالية :

algorin, alforin, alforiz, alholi.

إلى جذر لاتيني ، والدال فيهما على اختلاف الأصلين اختلاف المعنيين فقط^(١) .

٤ - إنَّ عدداً آخرَ من الكلمات العربية في اللغة الإسبانية يجب أن يُعدَّ عربياً بالتجوُّز ، ذلك لأنَّ هذه الكلمات في حقيقتها يونانية أو لاتينية أو فارسية أو تركية ، ولكنها على كلِّ حالٍ قد انتقلت إلى اللغة الإسبانية من اللغة العربية . من أجل ذلك لا تبدو هذه الكلمات في القاموس الإسباني ، وفي كثيرٍ من الأحيان ، واضحة المعالم .

٥ - لا ريب في أنَّ الكلمات حوامل للحضارات ، فإذا فقدت لغة ما في قُطْرِ ما رسالتها الحضارية فقدت كلماتها دورانها على الألسن في ذلك القطر . ولا ريب عندنا في أنَّ الإسبان - بعد خروج العرب من الأندلس - قد ابتعدوا شيئاً فشيئاً عن الحضارة التي كانت اللغة العربية حاملة لها في بلادهم . من أجل ذلك قلت حاجة الإسبان إلى تلك الكلمات التي كانوا كثيري الاستعمال لها في تاريخهم العربي . ولقد رجعت إلى عددٍ من الكتب الإسبانية^(٢) فرأيت أنَّ الكلمات العربية لا ترد فيها وروداً كبيراً .

٦ - ثمَّ لا مُعْذى لنا عن القول : إنَّ النزاع بين العرب

(١) مثال ذلك marga (من العربية : مرج) و marga (من اللاتينية : نوع من الحجارة) .

(٢) قرأت صفحات من كتاب « دون كيخوتي » لمؤلفه ثريانتس (١٥٤٧ - ١٦١٦ م) ثمَّ صفحات من عدد من الكتب المتأخرة .

والإسبان كان في أساسه نزاعاً دينياً ، واللغة العربية لغة الإسلام . من أجل ذلك استتبع^(١) عداء الإسبان للعرب عداء هم للعرب عامة ثم لدينهم . ويبدو أنَّ ديوان التفتيش الذي نشأ في إسبانيا لم يكن يكتفي بالرغبة في استئصال شافية غير الكاثوليك من المسلمين واليهود والنصارى ، بل كان يريد أيضاً استئصال الكاثوليك الذين صبغتهم الحضارة العربية ، فكان يُستدَلُّ عليهم بتلك الأمارات الحضارية من اللغة والفلسفة والفن والأدب والعادات الاجتماعية فيقضي على أهلها . ومن المتظر أن يكون الإسبان في ذلك الحين قد أخذوا يخففون الأخذ بالظاهر الحضاري التي كان يكرهها ديوان التفتيش ، ومن ذلك استعمال الكلمات العربية الأصل في لغة الكتابة خاصة .

٧ - ويتبع الكره الدينيِّ الكره القوميِّ . وهذا الأمر يقضي أن تنشط السلطة التي كانت وراء ديوان التفتيش فتحاول أن تسْكِن الإسبان كَلِمَاتٍ جَدِيدَةً تَحْلُّ مَحَلَّ الْكَلِمَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الأَصْلِ . والمتبَع للقاموس الإسباني يرى أنَّ كثيراً من الجذور التي تَرْجُع إليها كلماته جذور لاتينية . هذه الجذور اللاتينية (أو الكاثوليكية) التي تَغلِبُ على القاموس الإسباني غلبة كبيرة يجب أن تكون حديثة الدخول فيه . ولكنَّ هذا أمرٌ خارج عن نطاق بحثنا الحاضر .

ومن ذلك أيضاً أنَّ الذين وضعوا النحو الإسباني ودونوا فقه اللغة والبلاغة للإسبان قد حرصوا أشدَّ الحرص على أن يكون النحو الإسباني نحواً لاتينياً خالصاً من كلِّ أثر حَضاري لغير اللغة

(١) في المعجم الوسيط (١ : ٨١) استتبعه : طلب إليه أن يتبعه .

اللاتينية . إن الإسبان الأوّلين لم يتأثروا في تاريخ لغتهم الحديثة بالكلمات العربية فحسب ، بل تأثروا أيضاً - مما نراه من الآثار الباقيّة في التاج الأدبي والتاج الفلسفـي - بالمدارك العربية التي تفضـي أن يكونوا قد تأثروا بالجمل العربية ، كما أن ذلك نفسه يجب أن يكون قد فسح في صدر اللغة الإسبانية مجالاً لشيء من قواعد اللغة العربية . ولكن هذا أيضاً يجب أن يكون قد قضـي عليه بالعوامل التي كان ديوان التفتيش وراءها .

من الكلمات العربية في القاموس الإسباني كلمات لاتينية الأصل مثل acirate, alcazar (القصر والصراط : الشارع الواسع) ويونانية الأصل مثل alfinge, alboque (البوق والإسفنج) وفارسية الأصل مثل azucar, alfil (الفيل والسكر) وسوى ذلك . غير أن هذه الكلمات قد انتقلت إلى الإسبان من العرب لا من أصحابها الأصليـين .

بعدئذ نظرت في هذه الكلمات - سواءً أكانت عربيةً صريحةً أو عربية هجينةً - فوجدت عدداً منها فراداً ليس في القاموس الإسباني منها إلا صيغةً واحدةً ، نحو :

| | |
|---------|----------------------|
| acirate | الصراط |
| adalid | الدليل |
| alamud | العمود |
| algazul | الغاسول (نبات منظـف) |
| tazmia | تسمـية |

وكذلك وجدت فيها تسمية مواد يرد من كلّ مادة منها صيغة قليلة أو كثيرة ، من ذلك مثلاً الكلمة الزيت *aceite* (زيت) :

| | |
|-------------------|---|
| aceitada | مقدار من الزيت . . . |
| aceitar | زيت ، مسح بالزيت |
| aceitazo, aceiton | ثفل الزيت (المترسب منه) |
| aceite | زيت |
| aceitera | الزيّاتة : بائعة الزيت أو قاطفته أو جامعته أو حاملته |
| aceitero | الزيّات : بائع الزيت الخ |
| aceiteria | محل بيع الزيت |
| aceitozo | زيتي الطبيعة (يحتوي على زيت) |
| aceituna | زيتونة (ثمرة الزيتون) |
| aceitunado | زيتي (زيتوني اللون) |
| aceitunero | قاطف الزيتون |
| aceitunera | موسم الزيتون |
| aceituni | نسيج معلوم |
| aceitunil | زيتوني اللون |
| aceitunillo | شجرة ذات خشب قاس يستخدم في البناء |
| aceituno | زيتونة (شجرة الزيتون) |

من أجل ذلك قلت أنا إن عدد الكلمات العربية في القاموس الإسباني أكثر من الجذور (المواد الرئيسية) . ولكن هذه الكثرة ليست بالغة - هي نحو ألفان في رأيي - لأنّ عدداً من هذه الكلمات يرد في

القاموس بصور (تَهْجِئات) مختلفة (في أماكن مُختلفة من القاموس) ثم نجد للكَلِمَة ذات الصُورِ المختلفة معنًّا واحدًا . من ذلك مثلاً كلمة « مخزن » فإنها ترد في القاموس^(١) في ثلاث صُورٍ هي : alma- gacén, magacén, almacén ومن ذلك أيضاً الْهُرْيِي (بيت كبير تخزن فيه الحبوب - وجمعها أهراء) فإنها في الإسبانية alhori, alhorin, . alholi

وتقاد الكلماتُ العربية الموجودة في القاموس الإسبانيَّ اليومَ أن تكون كُلُّها أسماءً . ثُمَّ أنَّ الجانِبَ الأكْبَرَ منها قد دخلَ في نسجِ اللغة الإسبانية مُحْلِّيًّا بلام التعريف . من هذه الأسماء المحلَّاة بلام التعريف القمريةُ الحالصةُ :

| | |
|-----------|---------------------------------|
| alamud | العمود |
| albarrada | البرَّادة (إماء لتبريد الماء) |
| alcala | القلعة |
| alfaraz | الفرس |
| algara | الغارة (الغزو ، الغزوة) |
| alhaja | الحاجة |
| aljaraz | الجرس |
| almacén | المخزن |
| almohada | المخدّة |

ومن الأسماء التي دخلت من اللغة العربية إلى اللغة الإسبانية محلَّة بلام التعريف الشمسيَّة الحالصة :

| | |
|------------------------|---------------------------------|
| arraez | الرئيس ^(١) |
| arrayhan | الريحان |
| arroz | الرز |
| acebibe | الزبيب |
| aceifa | الصائفة (العزوة في الصيف) |
| acheque | الشكاء (المرض) ^(٢) |
| adufe | الدُفَ |
| ajabebe | الشَّبَابَةَ (نوع من المزمار) |
| ajarafe | الشرف (المكان العالي) |
| atabal | الطلبل |
| atijara ^(٣) | التجارة |
| aceite | الزيت |
| alloza | اللوز ، اللوزة |

غير أنَّ الإسبان الذين استعاروا الكلماتِ العربيةَ ثُمَّ أَجْرَوْهَا على لسانهم لم يكونوا دائمًا يَمْيِزُون لامَ التعريف القمريةَ من لامَ التعريف الشَّمسيَّةَ ، فربما جَعَلُوا اللام الشَّمسيَّةَ قمريةً نحو :

| | |
|----------|-------------------------------|
| aldea | الضياعة |
| altramuz | الترمس (حَبَّ معروف وبناته) |
| altair | الطَّائِر (كوكب) |

(١) تكرار الراء (في الكلمة الإسبانية) لأنَّ اللام قبل الحرف الشَّمسيَّ تقلب إلى مثله (من أجل ذلك قلبت لام التعريف في أول كلمة رئيس راء) . - .

(٢) الشكاء : الاشتقاء ، التألم من المرض ، الوجع .

(٣) الخوطاز J. (في الإسبانية) كانت في بعض أدوار تطور اللغة الإسبانية تلفظ شيئاً .

| | |
|---------|-------------------------------|
| algauza | الرَّزَّةُ (حلقة من حديد) |
| alrota | الروث |
| altamia | الطعاميَّةُ (نوع من الكؤوس) |

وربما أخذ الإسبان الكلمة العربية معرفةً فقلبوا فيها اللام القمرية لاماً شمسيّةً بحذف اللام بعد الهمزة) من غير تضييف للحرف الأول من الاسم (لأنَّ الإسبان لا يضعون إلَّا الراء ، على ما رأينا في الأسماء التي أخذوها من العربية محلاً باللام الشمسيّة . من ذلك مثلًا^(١) :

| | |
|----------------|------------------------|
| abalorio | البلور |
| abismal | المسمار |
| aforro, ahorro | الحرَّ (بضمِّ الحاء) |
| agüela | الحَوَالَةُ |
| ajonjoli | الجلجلان |
| ahorria | الحرَّة |

وفي هذا الباب كلمة « الناعورة » التي انتقلت إلى اللغة الإسبانية على صور مختلفة لأنَّ ألسنة الإسبان لم تكن ، فيها يبدو ، تألف حرف النون أللَّفَة سَمْحَةً ، وإن كانوا أرَأَفُوها من أبناء عَمَّهُمُ البرتغاليين الذين أَسْمَوها كثِيرًا أو قليلاً^(٢) . ويهمنا هنا ، فيها يتعلق

(١) حينها كانت الكلمة العربية المبدوءة بحرف شمسيّ تدخل إلى اللغة الإسبانية محلاً بـ (بلام التعريف) كانت اللام في العادة تحذف وتبقى الألف للدلالة عليها (راجع ، فوق ، aceite الخ).

(٢) كانت تحذف وبدل عليها صوت من الأنف غير واضح .

بلام التعريف ، النونُ الآتيةُ في أولِ الكلمة . هذه النون تُعاني كثيراً من المَشَقَّةَ : يجعلونها مرّةً مسبوقة بـ همزة مستَعْلِيَّة (مفخّمة) أو مُهَالَة أو يَقْلِبُونَها مِيَّا ، كما نرى في كلمة الشادر فِيَّا *almobatre* ورَبَّما فعلوا عكس ذلك كما نرى في كلمة المسك فإنَّها قد تأتي ^(١) *niscalo* ورَبَّما زادوها حيث لا تكونُ كما في أفيون *anfion* ، ^(٢) *miscalo* وعرشان ! (جمع عريش) عريش *anorza* .

وعرفتِ اللغةُ الإسبانية (لا القاموسُ الإسباني) كلِمة « ناعورة » في الصُورِ التالية :

alnagora, anoria, annora, añaora, añora, añoria, naora, noria, ñora, la ñora, la ñoreta, ñoria, ñoria, la ñorica. naora, alnagora, anoria, añoria, noria

فَمَعَ أَنَّ الناعورةَ تبدأ بالنون - والنونُ حرفٌ شمسيٌّ - فإنَّ كلمة الناعورة جرت على لسان الإسبان مُحلاةً بلام التعريف القمرية (وهذه ليست في القاموس) ، كما أنها جرت على لسانهم مُحلاة بلام التعريف الشمسيّة *annora* (لأنَّ النون المعلوّة بالعلامة المسمّاة « تيلدي » ^{tilde} أو شدة كانت توضع على النون ^â لتدلّ على تشديد النون أو تضييفها في اللفظ) . ثم أجرى الإسبانُ هذه الكلمة *ñoria* مجرّى سائر الكلمات المبدوءة بالنون ورَسَّموها بلا تيلدي (شدة) جَرِيًّا على عادتهم بأن يكونَ كُلَّ حرفٍ شمسيٍّ في أولِ الكلمة بعدَ لام التعريف مشدداً (مضعفاً) ضِيمناً .

ويقي للنون مشاكل على ألسنة الإسبان فكانوا أحياناً يُيدّلون

(١) و(٢) أي قد تأتي النون مكان الميم (كما كانت الميم قد جاءت مكان النون) .

مكانها في الكلمة ، كما اتفق لهم في الكلمة « نَرْجِسُ » اللاتينية الأصل « نركيّسوس » (المنقولة من اليونانية) فإنهم قالوا فيها : نرخوس ورنخوس (ولم أهتد إلى مكانها الساعة) . وعندنا نفر من العامة يقولون : نرجس ورنجس (لاسم الزهر المعروف وللفتاة المسماة باسم هذا الزهر) ويقولون دماغ ومداغ ويقولون للزجاج « قزار » ، وعندنا في الفصيح حَمَدٌ ومدح .

قد نجد الكلمة العربية في القاموس الاسباني غير محلة بلام التعريف أصلًا (منكرة) ، أو محلة أبدًا باللام ، أو محلة وغير محلة معاً . فمن الكلمات التي وردت نكرة (غير محلة باللام مطلقاً) :

| | |
|---------|---|
| abenuz | أبنوس (خشب أسود قاس ثمين) |
| badan | باطن (جوف الأرض) |
| badana | بطانة (جلد خروف مدبوغ) |
| caftan | قططان |
| cofa | قففة |
| cofia | كوفية (منديل يجعل غطاء للرأس ويعصب بعقال) |
| beduino | بدوي |
| taca | طاقة (خزانة صغيرة) |
| taza | طال (إناء يشرب به) |
| aman | أمان : عفو (سلم يتمتع به الذين يخضعون لسلطة غيرهم) |
| zaga | ساقه (القسم الأخير من الخميس أو الجيش) |

| | |
|---------|---|
| zagal | زغل (الشاب النشيط) ، البطل ! |
| | وكذلك نجد في القاموس الإسباني كلماتٍ عربيةً قد وَرَدَتْ فيه |
| | معرفةً (مُحَلَّة باللام) فحسب . من هذه الكلمات : |
| alarife | العريف (الوكيل المناظر على عمال البناء) |
| alaroz | العروس (خشبة في وسط مصراع الباب أو النافذة) |
| alaroza | العروسة (العروس : الفتاة المخطوبة . |
| | أو المتزوجة حديثاً) |
| alatar | العطار (بائع العطر ، بائع العقاقير وغيرها) |
| aceite | الزيت |

| | |
|--|---|
| وهنالك كلمات عربية في القاموس الإسباني تأتي معرفة باللام ، | وغير معرفة باللام معاً ، من ذلك مثلاً : |
| caid y al caide | القائد (الحاكم ، الوالي في حصن أو قلعة) |
| amir y alamir | الأمير |
| ambar y alambar | العنبر |
| dula y adula | الدولة |
| citara y acitara | الستارة (جدار رقيق أو حاجز عادي) |
| cohol y alcohol | الكحل (الأثمد : |
| cenefa y acenefa o azanefa | مسحوق أسود تلوّن به أجفان العينين) |
| | الصنفة ، الحاشية من الثوب |

وربما قُلِّبَتْ لامُ التعريف نوناً في نحو قولهم *enjeco* (شك ، ريب) . وهذه اللفظة نفسها *enjeco* هي تهجئة ثانية للكلمة *acheque* (الشكاء : المرض) ، وحلول النون هنا محلًّا لام التعريف

الشمسية (محل اللام المقلوبة شيئاً في أول الكلمة « الشكاء » لفظاً) أمر واضح جداً . وهنالك الكلمة *anorza* (العرشان^{*}) وقد حلّت النون فيها مكان لام التعريف القرمية . ومن هذا الباب كلمة (أفيون - الأفيون) .

وتظهر النون ظهوراً طبيعياً في الكلمات التالية : *añafil* (النفير : البوّق ، المزمار) ، *añil* (النيل : نبات يستخرج منه اللون الأزرق) ، *añacal* (الحمال الذي يحمل الأكياس في الطاحونة) ، *añaceha* (النزهة ، التسلّي ، تسريح البصر في الطبيعة) . هذه النون ذات التيلدي (الشدة) هي في الحقيقة نونان (النون التي في أول كلّ الكلمات ثمّ النون المقلوبة عن اللام الداخلة على النون الأصلية .

وبدا لي أنّ لام التعريف قد تأتي في اللغة الإسبانية في آخر الكلمة نحو *baril* (البارع) و نحو *margal* (المرج) . وقد تأتي في أول الكلمة وفي آخرها معاً ، نحو *albanil* (البناء) و *almargal* (المرج) . غير أنّ هذه اللام التي تأتي في آخر الكلمة تكون أحياناً مقطوعة من نحو *alcancel* (علم الأسد ... من علم الأسعار : التعرفة : البطاقة التي تكتب عليها أسعار الأشياء المعروضة للبيع) . ومن الشهور في ذلك *almiral* (أمير الـ ... من « أمير الماء ») . ومثل ذلك أيضاً *arsenal* (... أرسنال ... من « دار الصناعة ») .

وكان للام التعريف العربية أثر بالغ في نفوس الإسبان حتى أدخلها الإسبان على أسماء انتقلت إلى لغتهم من غير اللغة العربية .

(1) لم اهتد إلى الصيغة الصحيحة ولا إلى المعنى الصحيح لهذه الكلمة : العرشان .

من ذلك مثلًا aljanec بمعنى «الخيمة» أخذوها من الكلمة «خاتك» الفارسية (خانة : غرفة ، والكاف علامة التصغير) ثم دخلوا عليها لام التعريف العربية (وليس في الفارسية لام للتعريف) . وقالوا : albangala (من بنغالة نسيج رقيق منسوب إلى بنغالة في شرقى شبه القارة الهندية يستخدم في تزيين العمامات) ، والألف واللام في أول الكلمة من العربية . وفي ما يلي أسماء مأخوذة من اللغة اللاتينية ثم أدخلت عليها «أل» التعريف العربية (لأنّ اللغة اللاتينية أيضا لا لام للتعريف فيها) ، من ذلك :

| | |
|-----------------------------------|-----------------------------------|
| alfaneque (al + falco) | الصقر ، الباز (طائر يصاد به) |
| albarrada (al + parata) | جدار ، سياج ، خندق |
| alcornoque (al + quercus) | شجرة الفلين ، فلين |
| alcandiga (al + candicâre) | نبات يشبه الذرة |
| alcauci, alcaucil (al + cabecill: | خرشوف (أرضي شوكي) |
| cabeza | تصغير رأس |
| almarga (al + marga) | مقلع نوع من الحجارة |
| almiar | كومة من التبن تجعل على |
| (al + metarius) | شكل مخروط ليبقى التبن فيها حفافاً |

سواءً أكان الإسبان قد تناولوا الكلمة العربية نكرةً أو معرفةً
باللام فقد عدّوها نكرةً ، فإذا هم أرادوا تعريفها جعلوها مسبوقةً
بأداة التعريف الإسبانية *el* فهم يقولون على السواء :

el amir y el alamir

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| el ambar | العنبر |
| el aceite | الزيت |
| la aceituna | الزيتونة (ثمرة الزيتون) |
| el aceituna | الزيتونة (شجرة الزيتون) |
| el alcalde y la alcaldesa | القاضي |
| la aldea | الضيعة |

ففي «قاموس اللغة الاسانية» (ص ١١٣) :

| | |
|---|----------------------|
| alcaidesa: mujer del ^(١) alcaide | القائدة إمرأة القائد |
| alcaldesa: mujer del alcalde | القاضية إمرأة القاضي |

alcaldia: oficina donde se despachan los negocios en que entiendo

el alcalde.

aceite: liquido graso... que se saca de **la aceituna**; ... El que seca de las balsas donde se recoge **el alpechin de la aceituna**.

alpechin: liquido de color oscuro y fétido que sale de las aceitunas... quando, al extraer **el aceite**,...

ومن كتاب «اللغة الاسانية في أدوارها الأولى» ، تأليف رامون ميناندث بيدال^(٢) :

(١) إن الأداة *del* منحوتة من الأداتين *de* و *el*.
 El idioma español en sus primos tiempos, por Ramon Menédez Pidal (٢)
 (cuarta edición), Colección Austral, España-Argentina (Espasa-Calpe) 1951.

Cuando los alfaquies... aconcejaron la destrucción...
(p.37).

حينها كان الفقهاء ينصحون بإبادة . . .

Los mozárabes de Valencia juzgaban imposible su permanencia entre los almohades (p.37).

إنَّ المستعربين في بلنسية قد رأوا من المستحيل (أن يباح لهم)
بقاء بين (في حكم) الموحدين

La latinia era la aljamia usada en el Andalucía o España
musulmana (p.39).

كانت اللغة اللاتينية هي الأعجمية المستعملة (المحكية) في
الأندلس أو إسبانية الإسلامية .

والكلماتُ العربيةُ التي دخلتُ في الإسبانية أسماءً وأفعالاً^(١)
وحراف ، ثم دخل فيها أيضاً تعبيراً عربيةً من مثل : متوجهين - يا
الله - والله - فلان وعلان - منها صار - واحدة بواحدة وغير ذلك . غير
أنَّ هذه خارجةٌ من نطاق البحث الذي قصدته هنا . إلَّا أنَّني أودُّ أنْ
أوردَ هنا كلاماً في الحرف « حقٌّ » .

أجمع الباحثون على أنَّ الكلمة hasta الإسبانية جاءت من
الكلمة العربية « حتى »^(٢) . ولقد وجد أولئك الباحثون شواهدَ على

(١) في الأسماء العربية التي دخلت في اللغة الإسبانية صفات بقيت على صيغها العربية أو
قربياً من ذلك (على سبيل النسبة العربية) : amiri, gabi, hasani, gabali
(جلي، وحساني أو حسني ! وشعبي وأميري) ، إلى جانب الضبع الإسبانية من
الكلمات العربية نفسها : gabalin, jabalina, etc.

(٢) راجع قاموس اللغة الإسبانية (أنظر بعد بضعة أسطر) ثم Los arabismos (ص ٥٦ - ٥٨) الخ .

تقلُّب حرف الجرّ العربي « حتى » في صُورٍ كثيرة - في النصوص المختلفة - قبلَ أنْ آستقرَ الاستعمالُ العامُ المألوف على صورة hasta . فمن هذه الصور التي وردت في تلك النصوص^(١) :

adha, asta, ata, fata, ffata, hata, haté, hatti

ثمَ أنْ « قاموس اللغة الإسبانية » اقتصر على أنَّ hasta جاءَت من fasta (ص ٦٧٣) ، وأنَّ fasta جاءَت من fata (ص ٥٩٠) وأنَّ fata جاءَت من « حتى » (ص ٥٩٠)^(٢) .

وتبدَّلت للدارسين ظاهرةً : إذا كانت hasta الإسبانية جاءَت من « حتى » العربية ، فمن أين جاءَ الحرف s (سين) في hasta ؟ يرى بعضُ الدارسين أنَّ التاءَ في حتى مشددة (تاء ساكنة تتلوها تاء متحركة) ، والتاء الساكنة في اللغة العربية تممس (أي يوقف عليها فيخرج من بين الأسنان « نفث » يسيراً يسمع كأنَّه سين . فلما كان الإسبان يسمعون لفظ الكلمة « حتى » كانوا يسمعون فيها هذا النفث : حتى (ولم يكونوا يرون رسمها « حتى ») فنقلوها إلى لغتهم hasta (واللغة - كلُّ لغة - سماعٌ ورواية في تطورها قبلَ أن تكون قراءةً ونسخاً في الصحف) .

وأنا أعتقد أنَّ به اللِّمحة اليقيرة قد تناولتُ أمراً ما كنت أعلمُ أنَّه على مثل هذا الجانِب من الأثر . ثم إنَّني أعتقد أنَّني قد وقعتُ على مبدأ ولم أقرَّ قاعدةً فقط . فإلى جانب عملنا في مجمع اللغة العربية على معرفة الأشياء التي أخذَتها اللغة العربية من غيرها من اللغات يحسن أن نرى أيضاً ما أعطَته لغتنا إلى غيرها من اللغات .

(١) Los arabismos (٥٦ - ٥٨) .

(٢) الفاء f واهاء h تنقلب إحداهما إلى الأخرى في اللغة الإسبانية .

الغزل في الشعر العربي وكلماته العرب من ظاهر الحال في المتنزه

الغزل باب من أبواب الشعر العربي تأثر بما لم يتأثر به باب سواه في تاريخ الأدب عندنا . إنك لا تجد نوعاً من الشعر تقلب به الزمن ، ولا هو اختلف باختلاف الزمن ، كالغزل عند العرب .

كنت أتمنى لو أن جميع مؤرخي الأدب والنقاد في الأدب قد اتفقوا على أن يجعلوا للغزل وللنسيب وللتشبيب تعاريف مستقلة . ولكنهم قد جعلوا الغزل والنسيب والتشبيب بمعنى ثم اعتذروا عن ذلك بقولهم إنَّ الثلاثة متقاربة في المعنى يصعب التفريق بينها .

وأرى - تسهيلاً للبحث - أن نفصل نحن بين هذه المصطلحات : نجعل الغزل خاصاً بذكر الأعضاء الظاهرة في

(*) هذا الفصل هو ، في الحقيقة ، سلسلة مقالات كانت قد نشرت في جريدة «الأحرار» (بيروت) بين ٥ / ١٢ / ١٩٣١ و ٢ / ٢ / ١٩٣٢ م . غير أنَّ عدداً من مقاطع هذا المقال قد خضع لشيء من التنقية حيناً ولإعادة السبك حيناً آخر لأسباب كثيرة أهمها أن النشر في الصحف اليومية يتسرَّب إليه أخطاء كثيرة لا تقع حينما ينشر مقال في مجلة أو فصل في كتاب .

المحبوب ثم بِوَصْفِهَا وَبِمَدْحِهَا أَيْضًا ؛ أَمَّا النَّسِيبُ فَتَرْكُ لَهُ بَثُ الشَّوْقِ وَتَذَكَّرُ ماضِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَّةِ وَتَمَنِي التَّمَتُّعِ الْمُقْبَلِ بِاللَّهِ . وَأَمَّا التَّشِيبُ فَأَرَى أَنْ أَتُرُكَهُ هُنَّا ، لَأَنَّ التَّشِيبَ غَيْرُ وَاضِحٍ الْمَعَالِمُ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْغَزَلِ وَالنَّسِيبِ . فِي تاجِ الْعَرَوْسِ (الْكُوِيْتُ ٣ : ٩٦) : « التَّشِيبُ : ذِكْرُ أَيَّامِ الشَّيَّابِ ، وَاللَّهُو وَالْغَزَلُ ، وَتَرْفِيقُ الشِّعْرِ بِذِكْرِ النِّسَاءِ فِي مَطَالِعِ الْقَصَائِدِ ، وَالنَّسِيبِ بِالنِّسَاءِ » .

وَإِذَا نَحْنُ رَجَعْنَا إِلَى الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، مِنْذِ الْجَاهِلِيَّةِ ، رَأَيْنَا فِيهِ صِفَاتٍ لِلْمَرْأَةِ - جَرَى ذِكْرُهَا عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ . فِي هَذِهِ الصِّفَاتِ مَا كَانَ يَصْدُقُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَفِيهَا مَا لَمْ يَصْدُقُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ التَّشَابِيَّةَ وَالْاسْتِعْرَاثَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْغَزَلِ كَانَتْ تَخْتَلِفُ بِالْخَلْفِ الزَّمِنِ . إِنَّ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْجَمَالِ فِي الْمَرْأَةِ كَانَ يَتَبَدَّلُ بِتَبَدُّلِ الْأَعْصَرِ : فَالصِّفَاتُ الْمُسْتَحْجَبَةُ فِي الْمَرْأَةِ كَانَتْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ غَيْرُ مَا أَصْبَحَتْ فِي الْعَصِيرِ الْأَمْوَيِّ وَغَيْرُ مَا اسْتَقَرَتْ عَلَيْهِ مُدَّةً طَوِيلَةً فِي الْعَصِيرِ الْعَبَّاسِيِّ .

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ سِيَكُونُ الغَرْضُ مِنْ هَذَا الْفَصْلِ الطَّوِيلِ اسْتِعْرَاضُ هَذِهِ الْأَعْصَرِ الْمُتَعَاقِبَةِ وَالنَّظَرُ فِي « عَقْلِيَّةً » شِعَرَاءِ الْغَزَلِ فِيهَا مَعَ الْاِهْتِمَامِ بِتَلْكَ الْعِنَاصِيرِ الَّتِي أَدَتْ إِلَى بُرُوزِ تَلْكَ الْخِصَائِصِ فِي أَعْصَرِهَا الْمُخْصُوصَةِ .

وَإِذَا نَحْنُ أَحَبَبْنَا أَنْ نَقُومَ بِمَثَلِ هَذَا الْبَحْثِ فَالْوَاجِبُ عَلَيْنَا أَوْلَأًا أَنْ نَعْرِفَ صِفَاتِ الْمَرْأَةِ الْعَرَبِيَّةِ (مِنِ الشِّعْرِ الْجَاهِلِيِّ ، أَقْدَمِ الْتَّرَاثِ الْأَدْبَرِيِّ عِنْدَنَا) ثُمَّ نَتَقدَّمَ عَصْرًا فَعَصْرًا نُضِيفُ إِلَى تَلْكَ

الصفات الأولى تلك الصفات التالية التي خلَّعها الشعراً على المرأة عصراً بعد عصر .

- ١ -

الغزل قليل في الجاهلية

لعل القارئ سينجذب كثيراً إذا قُلت له إن الغَزَلَ (وَصْفِ الأعضاء الظاهرة للمرأة) كان في الجاهلية - أقصد في الشعر الجاهلي - قليلاً جدًا . وإذا أنا ذكرت له أسباب تلك القلة في أوصاف المرأة في الشعر الجاهلي ، فإن دهشته ستكون عظيمةً جدًا .

كان لذلك أسباب كثيرة ، منها :

(أ) وجود الحِجابِ .

لا أقصد بالحِجاب هنا الحِجاب الاجتماعي (اتخاذ لباسٍ خاصٍ يُعطي وجه المرأة أو يُعطي جميع جسمها) ولكنني أقصد الحِجاب الشرعي الذي أقره الإسلام فيما بعد (كشف المرأة عن وجهها وأقسام من جسمها بين الرجال ، ثم لقاء الرجال مُفردة أو في مجالس تدعوا إلى الريبة) .

من ذلك مثلاً قول أمير القيس :

« وبِيضةٍ خَدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا . . . » وقول الأعشى :

لم تمشِ ميلاً ولم تركب على جملٍ

ولا ترى الشمسَ إلَّا دونها الكَلْلُ ،^(١)

(١) الكلل (بالكسر) : ستر ينصب على الهودج أو على الفراش .

وكقول عنترة :

رفعوا القِبَابَ على وجوه أشرقتْ

فيها فَغَيَّتِ السُّهْيَ في الفَرْقَد^(١)

أو :

وقال لها البدُرُ المنيرُ ألا اسْفِري

فإنك مثلِي في الكمال وفي السعد ،^(٢)

فولتْ حياءً ثم أرختْ لثامها . . .

أو قوله :

منازلُ تطلعُ البدورُ بها مُبرّقَعاتٍ بظلمةِ الشعرِ .
بيضُ وسُمْرٌ تَحْمِي مَضارِبَها آسادُ غَابٍ بالبيضِ والسمُرِ .^(٣)

ومن مثل ذلك : فكشَفتْ بُرْقَعَها فأشرقَ وجهُها . . .
وممحوجية بصوارمٍ وذوابل^(٤) ، أو قول عنترة : إن تُغَيِّبِي دوني
القناع . . . كلها تدل على أن النساء كانت تُحَجَّبُ وتُمْنَعُ في
الخدور . وظل ذلك عادة حتى تألف منه أبو نواس (في العصر
العباسي) فقال :

إذا بارك الله في ملبي ، فلا بارك الله في البرقع

(١) القبة : غرفة مستورة . السها (أو السهي) نجم ضئيل النور جداً . الفرقد (نجم القطب الشمالي) ظاهر النور جداً . - أشرق وجهها بنوره ففطى على السها وعلى الفرقد أيضاً (على جميع النجوم والشمس والقمر) .

(٢) اسْفِري : أكْشَفْي (عن وجهك) .

(٣) بيض وسُمْر (الأوليان) : النساء الجميلات . بيض وسُمْر (الأخريان) : السيوف والرماح .

(٤) الصار : السيف (القاطع) . الذابل : الرمح (الدقين) .

إذن، إن السبب في قلة الغزل في الشعر الجاهلي منشأه قلة
مشاهد الرجال للنساء من غير أقاربهم .

ب) أما السبب الثاني فكان نفور العرب من ذكر أوصاف
نسائهم في شعر يسير على الألسن وتتناقله الرواية . وفي الأدب
العربي قصص من هذا النوع كثيرة ، منها غضبة يزيد بن معاوية
على عبد الرحمن بن حسان بن ثابت لما ذكر عبد الرحمن في شعره
أختاً ليزيد ، في حديث طويل .

أوصاف المرأة في الجاهلية

* أحب الشعراً (في جميع العصور) القامة المعتدلة ، ولا
يأس في أن تكون القامة أميل إلى الطول ، كقول عمرو بن كلثوم
في معلقته : ... سَمِقْتُ وطَالْتُ ، رَوَادِفُهَا تَنُوءُ بِمَا وَلَيْنَا^(١) .
وقال صاحب القصيدة اليتيمة (وببدو أنه إسلامي) : ما شانها طول
ولا قصر . وكذلك قال الحسين بن مطير (وهو إسلامي) : تطول
القصار ، ...

* أما البدانة في المرأة فقد أفرط الجاهليون في مدحها
وأحبوا المرأة العظيمة الجسم . فقد قال المرأة بن المنقذ
العدوي :

قطف المشي قربات الخطى بُدنَا مثل الغمام المزمخر^(٢)

(١) سمق : طال . تنوء : تنهض بالحمل بصعوبة (يثنلها الحمل) . بما ولينا (بما قرب
منها) : خصرها (?) . لعل المقصود : خصرها يتواء (لا يستطيع الثبات فوق أرداها
لتكل أرداها) .

(٢) القطرف : البطيء أو البطيئة في السير . البدانة : السمية . المزمخر . الكثير الصوت
(الرعد) ، ويكون عادة كثيفاً ثقيلاً بطيناً .

فهي هيفاء هضيم كشحها فخمة حيث يشد المؤتر (١)
وهي بداء إذا ما أقبلت ضخمة الجسم رداخ هيذكرا (٢)
ومن أعضاء المرأة الظاهرة : كعبها وصفه امرؤ القيس

قال :

هصرت بفودي رأسها فمايلت
علي هضيم الكشح ريا المخلخل (٣).
والمخلخل موضع الخلخل من الرجل (بكسر الراء).
الرأس والوجه :

شعر المرأة العربية أسود حalk كالليل على ما وصفه عترة أو
كالسخام (بضم السين = ما يعلق بالقدر من بقايا الدخان).
وليس في وصف الشعْر في الشعر الجاهلي إلا ما يدلّ على أن طوله
من عناصر الجمال في المرأة ، فيقول المُرقش الأكبر « لها
فرع .. » ويضيف ربيعة بن مقروم أنه مُنسدلاً على المتنين » ،
ويقول امرؤ القيس :

« غدائِرها مُسْتَشِرَاتٌ إِلَى الْعُلَىٰ
تَضِلُّ الْعِقَاصُ فِي مُثْنَىٰ وَمُرْسَلٍ (٤) »

(١) هيفاء (طويلة نحيلة) هضيم (مخمور، نحيف) كشحها (خرصها) فخمة
(عظيمة) حيث يشد المؤتر (الإزار) - أي كفلاها عظيمان.

(٢) البداء : كثيرة لحم الفخذين حتى يتبعدهما . الرداخ (العظيمة الوركين) .
الهيدكر : الكثيرة للرحم .

(٣) هصر (جذب الغصن ليقطف ثمره) . الفود : الشعر في جانب الوجه . هضيم
الكشح : نحيلة الخصر . ريا : لينة ، طرية (ممتنعة) . المخلخل : مكان
المخلخل من الساق .

(٤) الغدير : الخصلة من الشعر . مستشررة : مفتولة . العقصة (بالكسر) : العقدة في =

وربما كانت هذه الغدائر مجدولةً ومرسلة على الكتفين ، كما في قول المرقس الأصغر « ومنسدلات كالمثاني فواحما ». =

وإذا نظرنا إلى قول امرئ القيس :

وَفَرِعٌ يَزِينُ الْمَتَنَ أَسْوَدَ فَاحِمًا أَثِيْثٌ كِفْنِي النَّخْلَةِ الْمُتَعْكِلٌ^(١)
رأينا فيه كل ما كان يتطلبه الشعراء من جمال شعر المرأة . ويظهر لنا منه أن العرب لم يميلوا إلى الشعر الناعم المستقيم ، ولا غرو فالشعر في الجنس الأعرابي سبط متوج . وربما كانت المرأة ترسل بعض الغدائر من مقدمة رأسها أو فؤاديها حتى قال سعيد بن أبي كاهل الشكري « وقرونًا سابغاً أطرافها » . واستحسن امرؤ القيس كثافة هذه القرون حتى شبه بها شعر فرسه فقال « لها غدر (غدائر ؟ : ضفائر) كفرون النساء » !! وربما استحسن أحدهم الشعر الجعد .

لنكتفي بهذا القدر من وصف الشعر ونتنقل إلى وصف الوجه والوجنة ، فنرى أن أحسن الألوان للوجه عندهم ما كان صافياً نقياً في بياضٍ مائلٍ إلى السمرة ، وربما عبروا عن ذلك كله بكلمة « أدماء » . ولا يغرب عن بالنا الصلة بين الأدمة (السمرة) والأديم (ظاهر الأرض) وأدم المخلوق من تراب الأرض . ولنأخذ أبياتاً متفرقةً تدلّنا على ما أحبّه الجاهليون من لون الوجه فنرى لزهيرٍ :
فَأَمَا مَا فُويَقَ الْعِقْدَ مِنْهَا فَمِنْ أَدْمَاءَ مَرْتَعُهَا الْخَلَاءِ^(٢) ،

= الشعر . المشتى : الشعر المطوي بعضه على بعض . المرسل : الشعر المنسدل .

(١) الفرع : الشعر . المتن : الظهر . أثيث : كثيف . القنو : العنق الجاف الذي جرد من تمرة . المتعكّل : الذي يبرز منه أشياء كأنها تحرّك في الهواء .

(٢) أدماء : سمرة (هنا) : غزالة .

وأما المُقلتان فمن مهأة وللذر الملاحة والصفاء^(١) :

ظبيَّة من ظباء وجْرَة أدماء تَسَفُّت الكِبَاث تحت الهدال^(٢) .

وللعترة :

وقد كنت تُخفي حب سَمَراء حَقَبة

فَجْع (لَانَ) منها بالذِي أنت بائِح .

بِيَضْ وَسُمْرَ تَحْمِي مَصَارِبَهَا

آسَادُ غَابِ بِالبيَضِ وَالسُّمْرِ .

ومن الجمال في اللون ، وهو الحُسن والملاحة ، أن يخالف
البياض شيءٌ من الصُّفَرَة فَيُخْرُجُ منها لونُ كلون القَمَر أو الدُّرُّ يُسمى
أزهَرَ . ويظهر لنا أن هذا اللون أحسن الألوان على الإطلاق حتى
وُصَفَ به النَّبِيُّ ﷺ . وجاء مَدْحُ هذا اللون في مُعلقة أمرِيَّة
القيس :

كِبَر المُقَانَةُ الْبِيَاضُ بِصُفَرَةٍ غَذاها نَمِيرُ الماءِ غَيْرُ الْمُحَلَّ^(٣) .

(١) عيناها واسعتان كعيون المها (بقر الوحش : نوع من الظباء) . الدر : اللؤلؤ .

(٢) وجْرَة اسم مكان . أدماء : سَمَراء . سَفَ الدَّوَاء : تناوله (إذا كان جافاً) . الكِبَاث : ثمر شجر الاراك (إذا كان ناضجاً) . الهدال : نبات طفيلي يعلق بالأشجار . - المقصود : شفاهها سَمَراء من تناول ثمر الاراك .

(٣) البكر : الفَذُّ ، الذي لم يسبق بمثله ، الفريد : المُقَانَةُ : الخلط (مزج بعض الأشياء بعض) . الْبِيَاضُ بِصُفَرَةٍ (امتزاج في لونها البياض والصُّفَرَة امتزاجاً بكرأً ، أي ليس لغيرها مثله في الجمال) النَّمِيرُ : الصافي . الْمُحَلَّ : (الماء) الذي ينزل بقربه أقوام كثيرون (فيصبح عكرأً) .

وفي قصيدة للمرار بن المُنْقِذِ :

عِبْقُ الْعَنْبَرِ وَالْمَسْكُ بِهَا ، فَهِيَ صَفْرَاءُ كُعْرُجُونِ الْعُمُرِ^(١) .

وعثرت على بيت لعترة يصف فيه الخد بالوردي (أو هكذا يبدو معنى البيت) . ولذلك عندي سببان : أولهما أن الحمراء في الخد تكون عادةً مع البياض الناصع ، وألوان العرب « أدماء » (سمراء) في الأكثر . ثم أن الوردة نبات غريب على بلاد العرب (أو كان غريباً عنها) . ومع ذلك فإن في الشعر الجاهلي (عند زهير والأعشى ، مثلاً) وصف للأشياء بالحمراء ، كقول زهير في معلقته « . . . ورادي حواشيه مُشاكيه الدَّمِ » . ونجد مثل ذلك عند الأعشى . أما بيت عترة المظنون فهو :

فولت حياءً ثم أرخت لثامها وقد نثرت من خدها رطب الورد

وقد كان المستحسن في الخد دائماً أن يكون أسيلاً (طويلاً ، أملس) . وقد كثر وصف الخد بذلك في الجاهلية حتى ليُظُنَ ظانُ أنه لم يكن في الجاهلية خدٌ رجلٌ أو خدٌ أمراة إلا على هذه الصفة .

ومع أن الوشم كان شائعاً في الجاهلية (ولا يزال إلى اليوم مألوفاً في البدو وفي القرى) ، فإن عبيد بن الأبرص يرى اليد الحالمة أجمل من اليد الموشمة :

(١) عبق : لصنف . العرجون : غذق النخل . العمر اسم موضع . - وهي طيبة الرائحة ولها لون مائل إلى الصفرة جميل .

فِيهِنَّ هَنْدُ الَّتِي هَامَ (الْفَؤَادُ) بِهَا :
 بِيَضَاءِ آنَسَةٍ بِالْحُسْنِ مُوسُومَهُ^(١) .
 وَإِنَّهَا كَمْهَاةُ الْجَوَّ نَاعِمَةُ
 تُدْنِي النَّصِيفَ بَكْفٍ غَيْرِ مُوشُومَهُ^(٢) .

العيون :

العيون في الشعر الجاهلي كانت توصف بالسَّعَة والنَّجَل (فتح فتح) وتستعار من بَقَر الوحش . قال امرؤ القيس :

تَصَدَّ وَتُبْدِي عَنْ أَسِيلٍ وَتَتَقَىِ بِنَاظِرِهِ مِنْ وَحْشٍ وَجْرَةً مُطْفَلٍ^(٣)
 ولقد جمع عنترة في بيت واحد أربع صِفَاتٍ للعين وما يُجاورها :

أَغْنُّ مَلِيْعَ الدَّلَّ أَحْوَرُ أَكْحَلٌ . أَرْجُّ نَقِيَّ الْخَدِ أَبْلَجُ أَدْعَجُ .

وإذا نحن انتقلنا إلى الحاجب وجَدْنَا عنترة يصفه بشكل النون فيقول « لها حاجب كالنون فوق جفونها ». ولكن ما يُدرِّينا كيف كانت تكتب النون في أيام عنترة وهذا التشبيه من التشابيه التي يُمْكِننا أن نَحْمِلَ به على جيئيته « أشائقك من عَبْلَى الْخِيَالِ الْمُبْرَجِ »

(١) لطيفة ، أنيسة (يؤنس بها) . موسومة : لها عالمة (الجمال سمة - عالمة - لها وحدها دون سائر النساء) .

(٢) المهاة : بقرة الوحش (نوع من الغزلان واسعة العينين) . النصيف : الغطاء .

(٣) تصَدَّ : تنفر (فتدير وجهها) فيبدو (يظهر) خذها أسيلا (طويلاً مسترياً أملس) . وتَتَقَىِ (تحذر ، تحاف ، تجعل لنفسها واقياً أو حاجزاً في وجه الذي يريد الاقتراب منها) . وجراة اسم مكان . مطفَل : لها طفل . إذا كانت الظبية مطفلاً كانت أشد شراسة في دفع المقتربين من جرائها (أولادها الصغار) .

ونَجِزْم بِأَنَّهَا مَنْحُولَة . وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنَّهَا قَدِيمَةً . وَرَبِّما كَانَ فِيهَا مَا يَنْطَبِقُ عَلَى الْجَمَالِ الْجَاهْلِي ، فَهِيَ إِذْنٌ مِنْ هَذِهِ الْوِجْهَةِ فَقْطَ تُفَيِّدُ مَوْضِعَنَا . وَعَلَى كُلِّ فَانِ أَحْسَنِ الْجَفَوْنِ فِي الْجَاهْلِيَّةِ مَا كَانَ رَقِيقًا طَوِيلًا . وَرَبِّما وُصِّفَتْ بِالْوَظْفِ (بِالْكَثَافَةِ وَكَثْرَةِ الشِّعْرِ) .

وَكَثُرَ فِي الشِّعْرِ الْجَاهْلِيِّ وَرُوِدُّ كَلْمَةِ الْحَوْرِ (بِفَتْحِ فَتْحَ) مَعَ مَشْتَقَاتِهَا وَبِذَلِكَ يَعْنُونُ شِدَّةَ سَوَادِ الْحَدَقَةِ وَشِدَّةَ بَياضِ سَائِرِ الْعَيْنِ . وَرَبِّما نَعْتَ الْعَيْنَ بِالْحُوْوَةِ (بِضَمِّ فَشَدَّ عَلَيْهِ فَتْحَةِ) وَعُنْيَ بِذَلِكَ مَيْلًا حَدَقَتِهَا وَأَجْفَانَهَا إِلَى السَّوَادِ . وَأَعْتَدَ أَنَّ الْحَوْرَةَ فِي الْأَجْفَانِ اشْتَدَادًا سَوَادَ الْأَهْدَابِ (شِعْرُ الْجَفَوْنِ) عَنْدَ مَنَابِتها حَتَّى لَتَظْهُرُ الْعَيْنُ كَأَنَّهَا مَكْحُولَةً . وَالآنَ فَقَطَ يُمْكِنُنَا أَنْ نَرَى الْجَمَالَ فِي بَيْتِ عَنْتَرَةَ :
وَاسْتَوْكَفُوا مَاءَ الْعَيْنِ بِأَعْيُنِ مَكْحُولَةٍ بِالسِّحْرِ لَا بِالْإِثْمِ^(۱) .
وَمِثْلُ الْحَوْرِ وَقَرِيبُ مِنَ الْحُوْوَةِ الدَّاعِجِ .

الأنف :

كَانَ الْأَنْفُ فِي الشِّعْرِ الْجَاهْلِيِّ أَقْنَى دَائِمًا ، مُرْفَعَ وَسَطِ الْقَصْبَةِ ضَيْقَ الْمِنْخَرِينَ وَعَلَى هَذَا قَوْلُ مَعْنَى بْنِ أَوْسٍ (وَإِنْ كَانَ فِي الصَّدِرِ الْأَوَّلِ مِنَ الْإِسْلَامِ) :

« وَأَقْنَى كَحْدَ السِّيفِ يَشْرِبُ قَبْلَهَا »^(۲)

(۱) - جَعَلُوا مَاءَ عَيْنَنَا تَكْفُ (تَسْلِيلُ مِنَ الْأَلْمِ الَّذِي نَعْانِيهِ مِنْ حَبَّنَا لَهُنَّ مِنْ نَظَرِنَا إِلَى عَيْنَهُنَّ الَّتِي كَأَنَّهَا كَحَلَتْ بِالسِّحْرِ) (الْفَتَنَةُ ، الْجَمَالُ) لَا بِالْإِثْمِ (بِحَجْرِ الْكَحْلِ) .

(۲) الأَقْنَى (الَّذِي يَشْبَهُ الْقَنَاءَ أَوِ الرَّمْحَ ، مُسْتَقِيمٌ) .

الثغر والأسنان والشفتان :

يصف امرؤ القيس الثغر فيقول :

بَشَغِيرٍ كَمِثْلِ الْأَقْحُوْنَ مُنْوَرٌ نَفَقَ النَّاْيَا أَشْنَبُ غَيْرُ أَنْعَلٍ^(١).

وربما كان أجمع ما قيل في وصف الثغر في بيت واحد

قول المرقش الأكبر :

وَذُو أَشْرَرٍ شَتَّيْتِ النَّبَتِ عَذِيبٌ نَفَقَ اللَّوْنِ بَرَاقٍ بَرَوْدٍ^(٢).

فأنَّ ترى أن الأسنان كانت على أتم جمالها وهي محددة

الأطراف ، مؤشرة بخطوط متباينة غير متراكبة ذات لون نفَقَ بَرَاقٍ

. بَرَاقٍ .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم بيت طرفة :

وَتَبِسِّمُ عن أَلْمِي كَأَنَّ مُنْوَرًا تَخْلَلُ حَرَّ الرَّمْلِ دِعْصَ لَهْ نَدِيٌ^(٣)

أضفنا إلى ما تقدم صفة اللَّثَّة فنراها شديدة الحُمْرَة كالرمْلِ

الخاص . ولا يُستحسن أن تكون متضخمة . وعلى هذا قول الفرزدق (وإن كان هذا القول متأخرًا عصرًا) :

(١) الأقحوان : نبات برَّى بتلاته بيض تشبه الأسنان وقلبه أصفر . منَور (فتح الواو المشددة أو بكسرها) : مزهر ، مفتح . أشنب : أبيض ، لامع . انْعَل : متراكب ، بعضه فوق بعض .

(٢) أشر : حَرَّ ، فيه خطوط (كتامة عن نظافته وسلامته من المرض) . شَتَّيْتِ : متفرق (قليلًا) .

(٣) ألمي (فم ذو) شفتين سمراوان . منَور (راجع الحاشية التي قبل السابقة) . تَخْلَل حَرَّ الرَّمْل (أسنانها نابطة في لثة - بكسر فتح ، بلا تشديد - حمراء صافية . الدعص : الجانب المكُور من الرمل .

فَمُحْنَّ بِهِ عَذْبَ الثَّنَيَا رُضَايْهِ ، رِقَاقُ وَأَعْلَى حِيثُ رُكَّبَنَ أَعْجَفُ^(٤)
أَمَا الشِّفَاهُ فَوُصِّفَتْ بِاللَّعْسِ (الْمِيلُ إِلَى السُّمْرَةِ) وَسُمِّيَّتْ
لَمِيَاءَ .

وَاللَّهُ خَاصَّةً تُسْتَحْسِنُ حَالَكَةَ الْلَّوْنِ ، كَمَا قَالَ عَبْدُ الدِّينِ
الْأَبْرَصُ :

غَدَةَ بَدَتْ مِنْ سِرْتِهَا وَكَانَهَا تُحَفَّ ثَنَيَاها بِحَالِكِ إِثْمِدٍ^(٥)

العنق والنحر :

يَنْطَبِقُ عَلَى هَذِينِ فِي الْلَّوْنِ مَا يَنْطَبِقُ عَلَى الْوِجْهِ . أَمَّا الْعُنْقُ
فَتَكُونُ طَوِيلَةً ، وَمِنْ أَشْهَرِ التَّشَابِيهِ «بَعِيدَةُ مَهْوِيِّ الْقِرْطِ» .

وَقَالَ عَبْدُ الدِّينِ بْنُ رَوَاحَةَ :

فَقَدْ صَادَتْ فَوَادِكَ يَوْمَ أَبَدَتْ أَسِيلًا خَدُّهَا صَلْتَنَا وَجِيدًا^(٦).

وَقَالَ المُتَنَحَّلُ مِثْلُ ذَلِكِ عَلَى أَنَّ هَذَا لَا يَعْنِي أَنَّ الطُّولَ لَا
يَقْفُّ عَنْهُ حَدًّا . وَلِهَذَا أَخْبَرَنَا امْرُؤُ القيسُ عَنْ عُنْيِزَةَ بِقُولِهِ :
وَجِيدٌ كَجِيدِ الرِّئَمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِي نَصَّتْهُ وَلَا بِمُعَطَّلٍ^(٧)

(٤) مَاحُ أَسْنَاهُ : جَلَّاهَا بِالْمُسْوَاكِ . الرِّضَابُ : الرِّيقُ مَا دَامَ فِي الْفَمِ . رِقَاقُ (صَفَةُ
لِلأسنانِ) . أَعْجَفُ : رَقِيقُ (صَفَةُ اللَّهِ) .

(٥) الْأَثْمَدُ : حَجَرُ الْكَحْلِ . تُحَفَّ ثَنَيَاها : يَطْوِفُ حَوْلَ ثَنَيَاها أَوْ أَسْنَانِهَا لَوْنُ أَسْمَرَ قَاتِمَ
(أَيْ شَفَتَاهَا) .

(٦) الْأَسِيلُ : الْطَّوِيلُ الْأَمْلَسُ . صَلَتْ : الْوَاسِعُ الْأَمْلَسُ . الْجَيْدُ : الْعُنْقُ .

(٧) الْجَيْدُ الْعُنْقُ . الْفَاحِشُ : الْكَثِيرُ الطُّولُ . الرِّئَمُ : الْغَزَالُ الْأَيْضُ . نَصَّ : رَفْعٌ .
مُعَطَّلٌ : لَيْسَ مَزِينًا بِالْحَلْيِ ، أَوْ هُوَ جَمِيلٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَزَّيَنَ بِالْحَلْيِ .

هذه أبرزُ الأوصاف للمرأة العربية في الجاهلية . ومنها نرى
أنه يصعبُ أن يوجدَ اليومَ شخصٌ تتمثلُ فيه خصائصُ العِرقِ العربيِّ
كاملةً (وقد قال مثل ذلك ابنُ خلدونٍ مُنذُ ستةٍ قُرونٍ كاملة) .

- ٢ -

لا جديد في الغزل الأموي

ويحسنُ قبلَ الانتقالِ إلى العصرِ الأمويِّ أنْ نُوجِزَ ما رأينا من
صفاتِ المرأةِ في العصرِ الجاهليِّ :

الغزل في الشعرِ الجاهليِّ قليلٌ جدًا لسببينِ أولِهما وجودُ
الحِجابِ مما يمنعُ نساءً بعضَ الطبقاتِ من الاختلاطِ بالرجال ، إذا
لم يمنعهنَ - عُرْفًا وعادةً - كلَّهنْ ؛ وثانيهما نفورُ العربِ منَ أنْ تذكَّرَ
أوصافُ نسائهمِ في شعرٍ يسيرٍ على ألسنةِ الرُّواةِ فتصبحُ أوصافُهم
حديثَ السَّمَرِ .

ولكنَ هنالك من تخطيَ هذا المبدأً وعَبَثَ بالعُرفِ فوصفها
نساءً معيناتٍ ، أو تخيل صفاتٍ ظنَّها المثلُ الأعلى في المرأةِ .
ولذلك كانت المرأةُ في الجاهليةِ معتدلةً القامةُ مستقيمتها ، بدينةً
حتى لتنوءَ تحتَ لحمها . أما شعرها فكانَ أسودَ فاحمًا ، سَبْطاً ،
وربما أحْبَبوه جَعْدًا طويلاً ، ثم رأوا أن ينافقَ لونُ
الوجهِ لونَ الشعرِ . وأحبوا من الملاحةِ اللونَ المقاربَ
للسُّمرةِ في حُمرةِ شائعةٍ في جميعِ الوجهِ ، أما الخدودُ فكانت طويلةً
تحتَ جبهةٍ منبسطةٍ واسعةٍ وأما العيونُ فأحسَنُها عندَهم النجلاءِ
الواسعةُ الشديدةُ سوادُ سوادِها والشديدةُ بياضُ بياضِها . واستحسنوا
في العُنقِ أن تكونَ طويلةً غيرَ فاحشةٍ في الطولِ .

وكذلك أحب الجاهليون أن تكون الشفاه لعساً مائلة إلى السُّمرة ؛ والأسنان شتيبة متفرقاً بعضها عن بعض غير متراكبة ، ودقيقة . أما الأنف فكان أبداً أفقى كحد السيف مُسْتَوِيَ الأنحاء فيه شَمْمٌ .

الغزل والنسيب :

لقد جَعَلْتُ الغزل لوصف أعضاء المرأة الظاهرة والنسيب لبث الشوق وإن كان نفر من المجتهدين يَرَوْنَ أن الأمر بالعكس . ولكنني استندت في عملي إلى ثلاثة أمور :

- ١ - العرب لم يتَّفَقُوا على التفريق بين هذين ، ومنهم من جعل معناهما واحداً .
- ٢ - اشتهر عند المشتغلين بالأدب أن الغزل هو وصف الأعضاء .
- ٣ - إن باب النسيب في ديوان الحماسة لأبي تمام لا يضم إلا مقاطع في بث الشوق . فعلى هذا يُمكِّنا أن نعتمد هذا التفريق الذي سرت أنا عليه في القسم الأول من هذا الفصل .

* * *

الغزل الأموي :

الغزل في الشعر الأموي أقل منه في الشعر الجاهلي . ثم هو الغزل الجاهلي بعينه لم ينْقُضْ ولم يَزِدْ . والغزل لم يتَطَوَّر تطَوُّراً محسوساً إلا في إِيَّان الدولة العباسية . ولذلك كنا نرى مُخضرمي الدولتين الأُموية والعباسية من الشعراء لا يخرجون في تنوع غزلهم عما كان قد وَضَعَه شعراء الجاهلية .

قلة الغزل الأموي :

لا شك في أن الحجاب كان عاملاً قوياً في جهل صفات نساء معيينات ، وإذا اعترفنا بأن وطأة الحجاب لم تكن قوية في الجاهلية ، فلا مناص لنا من الاعتراف بخلاف ذلك في صدر الإسلام وخصوصاً في الطبقات الأرستقراطية . أما نفور العرب من ذكر صفات نسائهم فقد زاد في الإسلام على حميمية الجاهلية حتى تقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الشعراء أن لا يشبب أحد منهم بأمرأة إلا جلده (الأغاني ، مصر ، مطبعة التقدم ج ٤ ص ٩٧ أسفل الصحيفة) فخاف الشعراء ، وكان عمر إذا توعد نفذ وعيده بالحرف الواحد ، فأخذ هؤلاء ينصرفون أيضاً عن الغزل فإذا جاشت عواطف أحديهم في صدره صرفها إلى التغزل بغير النساء . وعلى ذلك قول حميد بن ثور :

أبى الله إلا أن سرحة مالك
على كل أفنان العصاء تروق^(١) .

فقد ذهبت عرضاً ، وما فوق طولها
من السرحة إلا عشة وسحوق^(٢) .

(١) السرحة : الشجرة العظيمة الطويلة (المعجم الوسيط ٤٢٧) النابتة على الماء ، وقد كني بها حميد بن ثور (ت نحو ٢٥ هـ) عن المرأة (تاج العروس ، الكويت ٦ ٤٦٩) . مالك (بني مالك ؟) . الفن : الغصن . العصامة : شجرة عظيمة . تروق : تزيد في الحسن .

(٢) فقد ذهبت عرضاً (كتانية عن البدانة التي تناسب الطول) . العشة : الشجرة القليلة الأغصان والورق . السحوق : المفرطة في الطول (من غير تناسب) .

فلا الظلُّ من بَرْدِ الضُّحى تستطيعُه ،
 ولا الفيءُ من برد العشيَّ تذوق^(١) .
 سقى السرحة المِحلاَل والأبرق الذي
 به السرحة غيث دائمٌ وبُروق^(٢) .
 وهل أنا إن عللتُ نفسي بسرحةٍ
 من السرحة موجودٌ على طريقٍ ?

بذلك نرى أن حميدةً استعاضَ عن التشبيب بالنساء بوصفِ
 الأشجار ، ولقد تجددَ مثل هذا التهديد بعد ذلك ، ولكن بصورةٍ
 أَخْصَّ ؛ من ذلك أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان استأذنتِ
 الوليد بن عبد الملك في الحج فأذن لها وهو يومئذ خليفةً فقدِمتُ
 مكةً ومعها من الجواري ما لم يُرَ مثله حُسناً . وكتب الوليد يتوعَّدُ
 الشعراً إن ذكرَها أحدُ منهم أو ذكرَ أحداً من معها .

وكانتْ حميةُ الناس لا تقلُّ عن حمية الخليفة في هذا الشأنِ
 فلقد ترك لنا إسماعيل بن يساري النسائي ، وكان في أيام هشام بن
 عبد الملك ، من قوله :

ما ضرَّ أهلك لو تطوفَ عاشقٌ بفناءِ بيتكِ أَوْ ألمَ مُسلماً ؟
 * يومَ أبدوا ليَ التجهمَ فيها وحموها لجاجةً وضراراً .

(١) الظل : احتجاب الشمس أول النهار . الفيء : احتجاب الشمس بعد الزوال (بعد نصف النهار) .

(٢) المِحلاَل : المكان يقصدُه جماعات كثيرة . السرحة المِحلاَل (التي يحبُّ الناس الاستظلال بها) . الأبرق : الأرض المختلفة الطبيعة (فيها طين وتراب وحجارة) . الغيث : المطر . البروق : جمع برق (لأنَّ المطر يكثُر بعد البرق - البرق هو الشارة الكهربائية التي تحيل بخار الماء الذي في الغيم ماء) .

وأمثال ذلك كثيرون يُرى في شعر المُحبين المغامرين أمثال عمر بن أبي ربيعة ووضاح اليمن وأبي ذهبل . وكأنني بسائلٍ يسألُ وهو على حقٍ في سؤاله - :

« لماذا تردد قلة الغزل (في العجالة وفي صدر الإسلام) إلى الحجاب . وهب أن الحجاب موجود ، أَفَمَا كان بإمكان الشاعر أن يصف نساء أهله . ثمَّ ألم يكن هنالك نساء بِرَزَاتٍ (يبرُزن للرجال) بأسبابٍ مختلفة؟ »

هذا السؤال صحيح ، والجواب عليه سهلٌ .

لقد أراد الشاعر أن يصف جمال النساء ، والمرأة الجميلة عند الرجل هي المرأة التي يُعجبها . تلك المرأة كانت محظوظة عن مُحِبَّها .

ثمَ لا يجوز للسائل أن ينسى السبب الثاني الذي قدَّمه ، وهو الغيرة على النساء من أن يُوصَفْنَ بشعرٍ يسيرٍ على الألسنة .

ومن أسباب قلة الغزل في العصر الأموي انصرافُ الشعراء إلى أبواب أخرى من الشعر كالنديج والهجاء خاصةً ، ففي الأغاني (١٣ : ٩٨) يَجِدُ القارئُ الفقرة التالية :

« حُريث من شعراء الدولة الأموية ، وليس بمحظوظ (مشهور) لأنَّه كان بدُويًا مُقلًا (من الشعر) غير مُتَصَدِّدٍ بالشعر للناس في مدحٍ ولا هجاء ». .

وهنالك أيضًا سبب مهم جدًا هو نشأة « النقائض » (الشعر السياسي) الذي قام على فخر الشاعر بنفسه وبقومه (أو جزءه)

وعلى هجاء الشاعر لخصمه من الشعراء ولقوم خصميه . إن هذه النقائض شغلت الجانب الأكبر من الشعراء والجانب الأكبر من الناس ، وخصوصاً حينما نرى كبار الشعراء يخوضون هذا الفن السياسي مثل الأخطل والفرزدق وجرير .

ولعل سائلاً يسأل : ألم يكن الغزل العذري فناً جديداً في العصر الأموي ؟

الجواب على هذا السؤال واضح : إن الغزل العذري نسيب (أي تعبير عن شعور المحب نحو محظوظ واحد) وأنا هنا أتناول بالبحث موضوع الغزل (وصف الأعضاء الظاهرة في المحظوظ) .

نموذج من الغزل الأموي :

الغزل الأموي لا يكاد يختلف من الغزل الجاهلي في شيء لولا بعض الفلال السياسية والاجتماعية ، ولو لا ما أحدث القرآن من رقة في اللغة لم نعرّفها من قبل حتى أنك لا تكاد تفرق بين شاعرين أحدهما جاهلي والأخر أموي . وربما كان الشاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ثم رأيت في شعره أثر البداوة . فما سبب ذلك ؟

لا شك في أن الزمن بين الجahلية وصدر الإسلام كان أقصر من أن يحدث تغييراً محسوساً في تفكير العرب وفي أساليبهم وأدواتهم ، فلقد ظلت التراكيب والكلمات واحدة تؤدي المعاني التي كانت تؤديها في أيام الجahلية . ثم أن العرب بين الجahلية والدولة الأموية لم يختلطوا بغيرهم اختلاطاً يؤثّر فيهم ، فلقد نهى

عمر بن الخطاب الجندي عن الاختلاط بأهل المدن المفتوحة . وكان العرب أنفسهم لا يختلطون بهؤلاء - حتى لو كانوا موالين ، أي مسلمين ولكن غير عرب - في أول الفتح .

كلَّ هذا حفِظَ للعربيِّ مُعْظَمَ خصائصِه الْقَبْلِيَّةِ والْفَكْرِيَّةِ وعاداته الشخصية والاجتماعية فلم يتأثرُ كثيراً (إلى ذلك الحين) بالخصائص التي كانت لشعوبٍ التي دخلت في الإسلام أو دخلت في الحكم العربي (من غير أن تدخل في الإسلام) . من أجل ذلك أصبحَ العربيُّ مُسْلِمًا في دينه ولكنه ظلَّ (إلى حدٍ ما) جاهلياً في لغته وفي عددٍ من عاداته .

وفيما يلي أشياءً من خصائصِ الغزل الأمويَّ من غير تفصيلٍ . ذلك لأنَّ التفصيلَ سيحملُنا على أن نُعيدُ أوصافَ المرأة - تلك الأوصاف التي رأيناها في الجاهلية - ولكن بأسماءٍ شعراءً أمويين .

يقول ذو الرُّمة :

| | | | |
|---------------------------|-------------------------------|------------------------------|---|
| تجلو بمسواك الأراك منظماً | عذباً إذا ضحكَت تهَلَّل ينطفِ | وكأنما نَظَرْت بعيَّني ظبيةٌ | وإذا تنوه إلى القيام تدافعت مثل التزيف ينوه ثمت يضعفُ |
|---------------------------|-------------------------------|------------------------------|---|

(١) منظماً : لؤلؤا (أسنانا) . تهَلَّل : تلالا . ينطفِ : يقطر (ملاحة وتلاؤا) . - يصف فمه .

(٢) الخشف (بالفتح والكسر والضم) : ولد الظبية .

(٣) التزيف : المحموم (أو السكران) . تحاول أن تقوم من قعودها فتعجز - لبدانتها - عن القيام بسهولة (وتحتاج إلى من ينهضها) .

ثقلت روادُها ومالَ بخصرِها كَفَلَ كَمَا مَالَ النَّقَا الْمَتَقَصِّفُ^(١)
وتعارضُ مصقولهُ وترائبُ
بيض^(٢) . . .

ولجميل بشينة :

قناة من المُرَان . . . لها مُقلتا رِيم وَجِيدٌ جَدَاهِيَّة^(٣)

ولمالك بن الريب :

وتصطاد القلوب ، على مطاتها بلا جَعْدِ الْقُرُونِ وَلَا قِصَارِ^(٤)
وَتَبَسِّمُ عن نَقَيِّ اللَّوْنِ عَذْبُ^(٥)

فأنت ترى من هذا ومما يمكن أن تُضيفه أيضاً أن هذه
الأوصاف هي تلك التي سادت قصائد الجاهليين . ولو أوردت هنا
أبيات محمد بن بشير الخارجي التي يقول منها :

تجلو بقادمتَيْ ورقاء عن بَرِّهِ حَمَّ المشاعِرِ في أطراافها أَثْرُ^(٦) .

(١) النقا : (تل) من الرمل الأبيض . المتقصف : المتكسر (الذي يتآلف من أقسام مختلطة مجتمع بعضها إلى بعض) كنابة عن كتل اللحم على جسم المرأة .

(٢) العارضة : صفة الخد . التربية : الجانب الأعلى من الصدر .

(٣) قناة : قصبة (كنابة عن طول القامة النحيفة) . المرأة : رمح صلب ولكن لدن (ينحنني) . الرئم : الغزال الأبيض . الجيد : العنق . الجداية : ولد الطيبة إذا بلغ ستة أشهر وأصبح قادراً على الركض .

(٤) المطا : الظهر . على مطاتها (شعر طويل) . القرن : الجانب من الشعر .

(٥) نقى اللون (أسنان) عذب : حلو (الريق) .

(٦) تجلو (تبدي ، تظهر) . قادمة : ريشة كبيرة في جناح الطير - ولا صلة لها هنا بالموصوف . لعل الشاعر يريد أن يقول إن أسنان المحبوبة مستوية منتظمة كاستواء الريش في جناح الطير . الورقاء : الحمامات . البرد (كنابة عن الأسنان) . حمَّ جمع أحَمَّ (أو حَمَاء) : أسود : المشعر : المنسك ، والنبات والحسنة (ولا وجه لها هنا) . أثر : علامة . - المعنى المقصد غامض .

خُود مُتَبَلَّة رَيَا مَعَاصِمَهَا قَدَرَ النَّبَات ، وَلَا طَوْلٌ وَلَا قَصْرٌ^(١)

لرأيت أن التراكيب والكلمات المستعملة موسومة بالطابع الجاهلي . ولست الآن في مقام الباحث عن أمثلة لإثبات هذا الرأي ، فهو جلي في الفرزدق والأختطر وجريج وجميع الشعراء الذين جمّع لهم صاحب الأغاني أخباراً وأشعاراً ، حتى إن عمر بن أبي ربيعة ما خرج على ما اتبّعوه لولا أغراض قصائده والنهج الذي نَهَجَه .

* * *

وهكذا نرى أن الشعر الأموي لم يختلف في الغزل عن الشعر الجاهلي ، وإن كان قد اختلف في نواحٍ أخرى فكانت له ميزات بارزة . وسبب ذلك وجود الحجاب ونفور العرب من ذكر صفات نسائهم في الشعر ثم انصراف الشعراء والناس إلى التهاجي . وقد كانت قلة اختلاط العرب بغيرهم سبباً في احتفاظهم بمميزاتهم الجاهلية .

غير أنها منذ أواخر الدولة الأموية بدأنا نرى ميزات جديدة في جميع أبواب الشعر . وسيكون غرض المقالة التالية البحث فيما جدّ في الغزل العربي . وسنجد في الغزل العباسي نوعاً جديداً نشا

(١) الخود : المرأة الجميلة . المبتلة : (القاموس ٣ : ٣٣٢) : الجميلة التي انقطعت بجمالها عن جميع نساء زمانها (أجمل أهل زمانها) . ريا معاصمتها (اللحم المكتنز الطري عند موضع السوار من يدها) . قدر النبات (معتدلة في الطول وفي البدانة . . .) .

في الدولة الأموية ورأينا إشارة إليه في الشعر الجاهلي . ولكن ، في أيام الدولة العباسية ، اتّخذ شكلاً مختلفاً عما قصده الشعراُءُ الأمويون والشعراء الجاهليون .

وكان في العصر الأموي فنٌ واضح المعالم هو « الغَزْلُ العُذْرِيّ ». ولكن هذا الفن كان في الأكثر نسبياً اختار صاحبه أن يقف فيه سعادته وشقائه على امرأة واحدة . واستعراض نماذج هذا الفن لا تزيد في وجوه الغزل التي رأيناها من قبل في الغزل العادي .

- ٣ -

الجديد في الغزل العَبَاسِيِّ

كان الشعر في الجاهلية سليقة قاله من اشتهر به وقاله من لم يشتهر به ؛ أما في العصر الأموي فكان الشعر مقدراً يأتي به الشاعر ثم لا يشتهر به إلا إذا كان فذاً ذا تأثير في قومه وتغلب على خصومه . وأما في أيام بنى العباس فقد أصبح الشعر فناً شخصياً ، مع أن أصحابه لم يستنكفوا أن يرثروا عنهم قبلهم وأغرقوا في استخدامها .

جَدَّ في الشعر العَبَاسِيِّ أشياء كثيرة سنأخذ منها ما كان خاصاً بالغزل لأنَّ الغزل هو المقصود بالبحث هنا . غير أنني لن أتعذر عصر المتنبي لأنَّ الشعر بعد عصر المتنبي قد خط سبيلاً مختلفاً لا حاجة بنا الآن إلى أن نسلكه .

الغزل الخالص :

رأينا أن الغزل الأمويًّا كان الغزل الجاهليًّا في وجوه كثيرة من معناه وبناته ، ولكن الشعراء العباسيين زادوا على ذلك الغزل أوصافاً كثيرةً (وخصوصاً في التشابه والاستعارات) استعاروها من الشعوب التي جاوروها أو كانوا قد آخthلطوا بها كالروم والفرس .

إنَّ الْعَرَبَ سُمْرُ الْوِجْهِ ، وقد كانَ مِنَ الْمُسْتَغْرِبِ عِنْهُمْ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ أَشَقَّ مَثَلًا . فَلَمَّا أَرَادَ أَبُو الْعَتَاهِيَّةَ أَنْ يَهْجُو وَالْبَةَ بْنَ الْحُبَابِ قَالَ فِيهِ مِنْ أَبْيَاتٍ :

أَتَرَوْنَ أَهْلَ الْبَدْوِ قَدْ مُسِخُوا شُقْرًا؟ أَمَا هَذَا مِنَ الْمُنْكَرِ؟

ولكتنا أصبحنا في العصر العباسى نرى الوردة يحلُّ في الغزل مكان السمرة . فبدلاً من قول مسكين الدارمى (المعاصر للفرزدق) : « لوني السمرة لأن العرب » ، يقول البختري : « على تفاح خد أرجوانى ». ثم يقول ابن المديبر (في أيام الخليفة المتوكل) :

أَدْمَوْعُهَا أَمْ لَؤْلَؤُ مَنَاثِرُ يَنْدِي بِهِ وَرْدَ جَنَّيْ نَاضِرُ؟
وبدلًا من قول عمرو بن كلثوم : « وما كمة⁽¹⁾ يضيق الباب عنها » ،
أصبحنا نرى في شعر ابن الرومي :

ظَبَّيْ كَانَ بِخَضْرِهِ مِنْ ضَمْرِهِ ظَمَّاً وَجَوْعًا .

(1) الماكمة : الكفل (بفتح فتح) ، جانب من مؤخرة المرأة .

أو في شعر البحترى :

وَمَهْزُوزَةٌ هَرَقَ الْقَضِيبِ ، إِذَا مَشْتَ تَثَنَّتْ عَلَى ذَلِيلٍ وَحْسِنَ قَوَامِ
أَمَّا أَبُو تَمَامٍ فَقَالَ قَبْلَهُمَا : « مُعْتَدِلٌ كَالْغُصْنِ النَّاضِرِ - يَا
قَضِيبًا لَا يُدَانِيهِ مِنَ الْأَسْرِ قَضِيبٌ - يَا قَضِيبَ الْبَانِ . . . » ؛ وَقَدْ
رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا الوَصْفِ عِنْدَ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ وَعِنْدَ أَبِي نَوَاسٍ قَبْلَهُ ثُمَّ
عِنْدَ بَشَارِ قَبْلَهُمَا . وَكَثُرَ عِنْدَ هُؤُلَاءِ جَمِيعًا مِثْلُ قَوْلِهِمْ : « قَمَرٌ عَلَى
قَضِيبٍ عَلَى كَثِيبٍ » (فِي تَعَابِيرٍ مُخْتَلِفَةٍ وَلَكِنْ فِي الْأَفَاظِ وَاحِدَةٍ) .
وَرَأَيْنَا الْبُحْتَرِيَّ مُولَعاً بِالْقَدْدِ الْأَهِيفِ وَالْخَضْرِ النَّحِيلِ :

يُقَوِّمُ مِنْ تَثَنِّيَاهَا آعْتَدَالٌ يَكَادُ يُقالُ مِنْ هَيْفٍ^(۱) : نَحِيلٌ .
وَلَكِنَّ هَذَا كُلُّهُ لَا يَعْنِي أَنَّ الشَّاعِرَ الْعَبَاسِيَّ قدْ هَجَرَ الصَّفَاتِ
الَّتِي كَانَ الْعَرَبُ قدْ أَحْبَبُوهَا مِنْ قَبْلٍ . إِنَّ الشَّاعِرَ الْعَبَاسِيَّ قدْ تَبَدَّلَ
فِي نَظَرِهِ إِلَى تَلْكَ الصَّفَاتِ (وَهِيَ فِي الْأَصْلِ بَدْوِيَّةُ) تَبَدُّلًا قَلِيلًا ،
فَاسْتَبَقَ الْقَسْمَ الْأَوْفَرَ مِنْهَا ثُمَّ زَادَ عَلَيْهِ مَا يُوَافِقُ ثَقَافَتَهُ الْجَدِيدَةَ - إِذَا
كَانَ عَرَبِيًّا ، أَوْ ثَقَافَتَهُ الْمُورُوثَةَ (فِي ظَنَّهِ وَخَيَالِهِ) ، إِذَا لَمْ يَكُنْ
عَرَبِيًّا .

لِنَأْخُذُ الْأَبْيَاتُ الْأَتِيَّةَ لِمُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ :

فَرِعَاءُ فِي فَرِعَاهَا لَيْلٌ عَلَى قَمَرٍ
عَلَى قَضِيبٍ عَلَى دِعْصَنِ النَّقَادِهِسِ^(۲)

(۱) الْهَيْفُ : نَحِيلُ الْخَضْرِ .

(۲) الْفَرْعُونُ : الشِّعْرُ . فَرِعَاءُ : طَوِيلُهُ الشِّعْرُ . لَيْلٌ (كَنَابَةُ عَنِ الشِّعْرِ) . قَمَرٌ (كَنَابَةُ عَنِ
الْوَجْهِ) . الدِّعْصَنُ : قَطْعَةُ مِنِ الرَّمْلِ مُسْتَدِيرَةٌ . النَّقَادِهِسُ : الرَّمْلُ الْأَبْيَضُ . الدَّهْسُ :
اللَّيْنُ .

أَزْكى مِنِ الْمِسْكِ أَنفاساً وَبِهِجْتُهَا
أَرْقُ دِبَاجَةً مِنْ رِقَّةِ النَّفَسِ .

* مَرِيضةٌ أَثْنَاءِ التَّهَادِيِّ كَأَنَّهَا
تَحَافُ عَلَى أَحْشَائِهَا أَنْ تَقْطَعَا .

تَسِيبُ آنْسِيَّاتِ الْأَيْمِمِ أَخْصَرَةَ النَّدَى
فَرْفَعَ عَنْ أَعْطَافِهِ مَا تَرَفَعا^(١) .

تَأْمَلُهَا مُفْتَرَّةً فَكَأَنَّهَا
رَأَيْتُ بِهَا فِي سَنَةِ الْبَدْرِ مَطْلَعا^(٢) .

* وَمَمْكُورَةٌ رُؤُذُ الشَّبَابِ كَأَنَّهَا
قَضِيبٌ عَلَى دِعْصٍ مِنِ الرَّمْلِ أَهْيل^(٣) .

فِيمَا تَقْدَمُ يَمْتَرِجُ الذَّوْقُ الْجَاهْلِيُّ وَالذَّوْقُ الْأَمْوَى بِالذَّوْقِ
الْعَبَاسِيُّ ، وَلَكِنْ فِي رِقَّةِ عَبَاسِيَّةٍ . مِنْ ذَلِكَ مَثَلًا أَبْيَاتُ ابْنِ عَيْنَةَ
(فِي أَيَّامِ هَرُونَ الرَّشِيدِ) :

مُنْعَمَةٌ لَمْ يَغْذُهَا أَهْلُ ثَلَةٍ
وَلَا أَهْلُ مِصْرٍ ، فَهَيَّ هِيفَاءُ فَارِدٌ^(٤) .

(١) الأيم : العجنة . أخضره : جعله يبرد (العجنة يكثر نشاطها بكثرة الحر) . تسبيب
انسياب الأيم أخضره الندى (تسير بيضاء) . العطف (بالكسر) جانب الجسم .
فرفع عن أعطافه ما ترفا (؟) .

(٢) مفتررة : مبتسمة : سنة (طريقة ، عادة ، هيئة) .

(٣) ممكورة : (المرأة) ذات ساق غليظة . رؤذ الشباب (حسنة الشباب) . الدعصص :
قطعة من الرمل المستدير . أهيل : قليل الثبوت ، متحرك للبنه .

(٤) يغذوها : يطعمها (يربيها) الثالثة : الصوف ، الغنم . المصر : المدينة الكبيرة .
هيفاء دقيقة الخصر . فارد : منفردة (لا يشبهها أحد في جمالها) - هي بدوية منيعة

وأهُوت لِتَتَشَّاشِ السِّرِّوَاقِ فَلَمْ تَقْمُ
إِلَيْهِ ، وَلَكِنْ طَاطَاتِهِ الْوَلَادُ^(٢) .

قَلِيلَةُ لَحْمِ النَّاظِرَيْنِ يَزِينُهَا
شَبَابٌ وَمَخْفُوضٌ مِنَ الْعِيشِ بَارِدٌ .
تَرَى الْقَرْطَ مِنْهَا فِي (فَلَةِ كَائِنَهِ)
بِمَهْلَكَةِ ، لَوْلَا الْبُرَى وَالْمَعَادُ^(٣) .

من هذا نجد أن ما أضيف إلى الغزل العباسى كان تشبيهًا
الخدود بالوردي والتُّفَاحِ وتشبيه باقي الأعضاء في الوجه بأنواعٍ من
الأزهار والأثمار . وأحسب أنى رأيت الحال للمرة الأولى في الشعر
العباسى . من أجل ذلك يبدو لي أن الحال خاصةً عربيةً (ولعله
عاقة جلدية) . وفي ذلك يقول الشاعر العباسى ؛ « أتحسب ذاتُ
الحال راجيةً ربًا » أو « فَغَنِي بِذَاتِ الْخَالِ حَتَّى اسْتَخْفَنِي » . ووردَ
مثلُ هذا لأبي نواسٍ .

أما وصف البنان (رؤوس الأصابع) بالتطريز (أي)
الخضاب : بلون أحمر قاتمٍ أو أسود) وبالتعظيم (بصيغتها بلونٍ

(لم تربَ عند فقراء الباذية ف تكون عجفاء ، ولا عند أهل الحضر المترفين ف تكون
مبتدلة) .

(١) أوما (أشار) إلى الشيء . انتاش : طلب ، أراد أن يصل إلى الشيء . لم تقم : لم
 تستطع القيام (النهوض لبدانتها) . طاطاته الولاد (جمع وليدة : فتاة صغيرة
 خادم) : أرخته ، خفضته .

(٢) المهلكة : المفازة (الفلاة الواسعة) . البرة (بضم ففتح) : حلقة (بسكون
 اللام) ، قرط (بالكسر) ، ما يعلق في الأذن . المعقد : القلادة في العنق . -
 لولا أنها تزين بأقراط وبعقود لظننت أن ما بين وجهها وصدرها مسافة كبيرة .

أحمر) فليس جديداً في الغزل العباسى ، ولكن وصفها بالعناب جديداً . وعلى ذلك فأينما رأيت الورد (الأحمر) والنسرین (الورد الأبيض) والخْرِيَّ (المتنور الأصفر) فإنه يكون مستعاراً من جنائن الفرس لا من بَوَادِي العرب .

الغزل المذكور :

من ألوان الغزل التي جَدَتْ في العصر العباسى هذا النوع من الغزل ، أي الغزل المذكور . وليس من غايتي هنا أن أستقصي وجوه هذا الغزل ، ولكنني أحب أن أشير إلى نشأته الغربية عن العرب ، وإلى أنه هو تَسْرُّبٌ إلى العرب في العصر العباسى .

و قبل أن أبدأ بسرد العوامل التي كَوَّنَتِ الغزل المذكور أحب أن يُفَرِّقَ القارئُ بين الغزل المذكور والغزل الذي جاء في لفظ مُذَكَّرٍ ، ولكن قُصِّيدَ به وصف أنشى ، وربما كان بين الاثنين علاقة .

إذا قرأت قصيدةً وكانت الضمائر والأفعال فيها مذكورةً فلا تحكم على قائلها بأنه يتغزل بُمذَكَّرٍ . وإذا كانت الضمائر مؤنثة أيضاً ، فليس من الضروري أن يكون الشاعر يُشَبَّهُ بأشى ، فقد تضطر الشاعر القافية أو تُلْجِئه الكِناية إلى إخفاء شخصية الموصوف . وليس آمن حينئذ في مثل هذه الحال من التلاعِب بالضمائر وبالأفعال . فهاك عدداً من العناصر التي بَنَتِ الغزل المذكور في البيئة العباسية أو دخلت في بنائه قصدًا أو عفواً .

أكثر الشعراء العباسيين موالٍ :

أكثر شعراء الدولة العباسية - على نقيض شعراء دولة بنى أمية

وشعراً الجاهلية إلا ما ندر - موالٍ ، أي مسلمون غير عرب . ومع أن هؤلاء كانوا قد أسلموا وتعربوا أو أنهم ولدوا في بيئة إسلامية من آباء أسلموا من قبل ، فقد ظلوا يميلون إلى ثقافتهم القديمة ، وكان بعضهم يفتخر بها ويفاخر بها العرب . واشتد ساعد الموالى في الدولة العباسية ونافسوا العرب حتى سادوهم في زمان ، فإذا العرب أنفسهم يُقبلون على الثقافة الأجنبية - والفارسية خاصة - بعد أن كانوا قبل جيلٍ من الدهر يستنكفون أن يختلطوا بالموالى . ولا عجب إذا رأينا صفاتٍ أجنبيةً . فارسيةً ورومية أو قبطية أو زنجية - تتسرب إلى الغزل العربي ، وأسباب الغزل يومذاك كانت أجنبية والحانات لا يُديرها غير الأجانب . أما القِيَان فكُنْ منهم فتعدّ الشعراً العباسيون ، حتى العرب الخُلُص منهم ، أن يتذوقوا الجمال الغريب فكثُر التغزل بغير المسلمين .

التغزل بغير المسلمين :

ليس في أن يتغزل الشعراً المسلمون بغير المسلمين والمسلمات ما يدعو إلى الدهشة أو إلى الغرابة ، ولكن الذي يلفت النظر أن يصبح هذا التغزل صوراً غير إسلامية لا يُنتظر من شاعر مُسلِّم أن يتقبّلها . غير أنَّ المهم هنا - من الناحية الأدبية - أن يكون جمال الغزل في الصورة التي يستخرجها الشاعر ثم يجعلها أساساً في جمال حبيه ، حتى ليُخَيَّل إليك أن الجمال ليس في المحبوب ، ولكن في تلك الصورة وحدها . من هذا قول بكر بن خارجة ، وكان معاصرًا لأبي نواس :

زَنَارُهُ فِي خَضْرِهِ مَعْقُودٌ كَائِنٌ مِّنْ كَبِّدِي مَقْدُودٌ .

وكان الزُّنار شارةً يُعرَف بها غيرُ المسلمين آثذ . وإليك هذه الصورة من شعر عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع (عباسي) .

(١) ساحر الطرف سامرِي عروسي
 غزالٌ مكحُلٌ ذي دلالٍ
 قد خلَّونا بطيئةً نجتليه
 يتثنى بحسنٍ جيدٍ غزالٍ
 وصليبٌ مُفضضٌ أبُوسٌ .
 كم لَثمتُ الصليب في العجيد منها
 كهلالٌ مكَللاً بشموسٍ .

(الأغاني - مصر مطبعة التقدم ١٧ : ١٢٩) . وعلى الصفحة السابقة نجد البيتين الآتيين :-

يا شادناً رام إذ مرّ في الشعانيين قتلي (٢)،
 تقول لي كيف أصبحت؟ (م) كيف يُصبح مثلّي؟

الفزل المذكور دخيل على العرب :

انصرف نفر من الشعراء العباسيين إلى التغزل بغير العرب
 لاحتكاكم بهؤلاء . فأنت ترى لأبي نواس مثلاً :

وغزالٌ من بني الأصفر معصوبٌ بتاج ،
 شخصُه مني بعيدٌ ، وهو مني كالمناجي (٣) .

(١) سامرِي (من السامرة ، السمرة ، السامرِيَن : قدماء اليهود) : غير مسلم . عروسي (يشبه العروس ، في ذروة شبابه وجماله وزيته) .

(٢) الشادن : الغزال الصغير . الشعانيين (عيد نصراني ، في الربيع) .

(٣) المناجي : الذي يكلّمك سراً . - يبدو أن المناجي (هنا) الهم الملازم للإنسان (؟) : مع أنَّ المحبوب قريب من المحب ، فإنَّ المحب لا ينال غايته .

ولأبي تمام :

أنا ميتٌ ، ولئن متُ لمن حبّي أموت
لغازل من بني الأصفر فيه جبروت^(١).

وقالت غريب (بفتح العين وكسر الراء) المغنية : -

بأبي كلٌّ أزرقِ أصهِبِ اللونِ أشقرِ^(٢).
وفي هذا المقام يجب ألا ننسى قصيدة ابن الرومي التي يقول
منها :

من بناتِ الرومِ لا يكذبُنا لونُها المُشرقُ عن مُنصبها^(٣).
والروم أو بنو الأصفر هم اليونان . وإذا نحن راجعنا مُجون
أبي نواس رأينا شيئاً من التغزل بالفرس، ولكنه على كل حالٍ قليلٍ
فيما رأيت أنا وقد يكون الصواب غير ذلك ، وربما استقلَّ الروم
(اليونان) بالشعر الغزلي واستقلَّت فارس بالخمريات .

الغزل المذكور الغير المقصود :

يقول طرفة بن العبد في معلقه :

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن

مُظاهرٌ سِمْطٌ لُؤلُؤٌ وزَبْرَجٌ^(٤).

وتَبِسِّمُ عن الْمَى كَائِنَ مُنَورًا

تخلَّل حَرَّ الرَّمْلِ دِعْصٌ لِهِ نَدِي^(٥).

(١) الجبروت : القوة ، القهر .

(٢) أزرق (العينين) أصهاب : أحمر (الشعر) أشقر (اللون) .

(٣) - لونها اللامع (بالبياض) يدلُّ على منصبها (مكاتبها ، نسبها) في اليونان .

(٤) و (٥) راجع ، فوق ، ص ١٩٠

ترى مما تقدم أن البيت الأول مذكرُ اللفظِ ، ولكنَّ سياقَ المُعلقة والانتقال إلى اللفظ المؤنث - وأعتقد أن الوزن هنا اضطرَّ طرفةً إلى ذلك - يدلُّان على أنَّ الموصوف أُنثى ، وإنْ كان لفظُ البيت مُذكراً .

الأبيات الآتية لِعُمَرَ بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ يَصِفُّ أُنثى في لفظ مُذكَّرٍ :

ولقد كان آهلاً فيه ظبى مُبِتَلٌ^(١) .
طَيِّبُ النَّشْرِ وَاضْحَى
أَحْوَرُ الْعَيْنِ أَكْحَلٌ^(٢) .
فِيمَا كَانَ يُؤْهَلُ^(٣) .
إِذْ فَوَادِي بِرَزِينَبِ^(٤) .
ولعمرَ أيضًا :

صاد قلبي الْيَوْمَ ظبى
في ظباءِ تهادي
عامِدًا للجَمَرات^(٥) .
وعليه الخَرُّ والقَرَّ^(٦) .

(١) أهل (بيت) مسكنون ، (في سكان) . مبتل (فريد الجمال) .

(٢) النشر : الرائحة . واضح : أبيض . أحور : شديد بياض المقلة وشديد سواد البؤبؤ . أكحل : أطراف جفونه سوداء .

(٣) إذا كان أهله قد بانوا (ابعدوا ، انتقلوا) ، فطالما كانوا يسكنون هنا (قربنا) .

(٤) موكل : وكيل عليها ، لا يفارقها ، لا يفارق ذكرها .

(٥) عرفة (فتح فتح) وعرفات (هضبة يقف عليها الحجاج) ، وهي أعظم مناسك الحجَّ .

(٦) تهادي : يسرن متعبارات . عامد : قاصد . الجمرة والجمرات : المحضب (مكان الرجم - من مناسك الحجَّ) .

(٧) الخَرُّ والقَرَّ : الحرير . الوشي : الزخرف . العبرة (بكسر فتح) : ثوب مخطط ناعم .

إِنِّي لَسْتُ بِنَاسٍ ذَلِكَ الظَّبَى حَيَاةِ

وَلِسَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ (وَهُوَ عَبَاسِي) فِي جَارِيَةٍ :
مَا عَلَى أَحْسَنِ خَلْقِ اللَّهِ أَنْ يَحْسُنَ فِعْلَهُ؟
بِأَبِي أَنْتَ وَأَمِي مِنْ مَلِيكٍ قَلَّ عَدْلُهُ،
وَبِخِيلٍ بِالْهَوَى لَوْ كَانَ يُسْلِي عَنْهُ بُخْلَهُ (١).

وَقَدْ يُضْطَرُ الشَّاعِرُ أَحيَانًا إِلَى أَنْ يَسْتَعِيرَ مِنْ مُذَكَّرٍ فَيُعَمَّدُ إِلَى
لَفْظِ مُذَكَّرٍ ثُمَّ يَلْتَفِتُ فِي أَتَيَ باللَّفْظِ الْمُؤْنَثَ كَالْقُولُ الْأَتَى :
مَاذَا يَرِيدُ السَّقَامَ مِنْ قَمَرٍ كُلُّ جَمَالٍ لَوْجَهِهِ تَبَعُ؟
مَا يَرْتَجِي - خَابَ - مِنْ مَحَاسِنِهَا؟ أَمَا لَهُ فِي الْقِبَاحِ مُتَسَعٌ؟

الغزل في المديح :

المديح بَابٌ واسعٌ مِنْ أَبْوَابِ الشِّعْرِ . وأَحَبَّ الشِّعْرَاءَ
الْعَبَاسِيُّونَ أَنْ يَزِيدُوا فِي الْأَوَانِهِ فَرَأُوا أَنَّ الْمَدْحَ بِالْجُودِ وَالْبَطْشِ
وَالسُّلْطَانِ وَالْمَجْدِ وَالنَّسَبِ أَصْبَحَتْ مُبِتَدَّلَةً، فَفَتَحُوا بَابَ المَدِحِ
بِالْغَزْلِ . وَإِلَيْكَ مَا قَالَهُ الرُّبَّيرُ بْنُ دَحْمَانَ فِي مَدْحَ هَرُونَ الرَّشِيدِ
(الأغاني ١٧ : ٧٤)

وَأَحْوَرَ كَالْفُصْنِ يَشْفِي السَّقَامَ
شَرِبَتُ الْمَدَامَ عَلَى وَجْهِهِ
وَعَاطَيْتُهُ الْكَأْسَ حَتَّى انتَشَى (٢)
وَقُلْتُ مَدِحًا أَرْجَيْتُهُ
وَيَحْكِي الغَزَالِ إِذَا مَا رَنَّا (٣)

(١) يُسْلِي عَنْهُ : يَسْبِي إِيَاهُ .
(٢) رَنَّا : نَظَرَ ، تَطَلَّعَ .

(٣) عَاطَيْتُهُ : شَرِبَتُ مَعَهُ (مِنْ كَأْسٍ وَاحِدَةٍ) . انتَشَى : مَالَ (مِنْ النَّعَسِ أَوِ السَّكَرِ) .

(٤) المُنْتَى (لِعَلَّهَا الْجَنِّيُّ : التَّمَرَّةُ ، نَيلُ الْمَطْلُوبِ) .

وأعني بذلك الإمام الذي به الله أعطى العيادة المني .
ولقد رأينا شيئاً قريباً من هذا في العصر الأموي ، قال عُويفُ
القوافي يمدح عبد الرحمن بن محمد بن مروان :

غلام رماه الله بالخير يافعاً
له سيماء لا تشق على البصر^(١) .
كأن الشريعاً علقت في جبينه ،
وفي خده الشعري وفي جيده القمر^(٢) .

وهذا وصفٌ بريء . ومثله وصفٌ تأبّط شرّاً الجاهليّ في
غلام قتله (يراجع في الأغاني : تأبّط شرّاً) . وللنابغة :
هذا غلام حسن وجهه مستقبلُ الخير سريع التمام
للحارث الأصفر والحارث الأع .. سرج والأكبّر خير الأنّام .
التأثير الأجنبي :

إن الغزل المذكور في الشعر العباسي لم يكنْ هذا فحسب ،
بل كان أيضاً إظهاراً عاطفةً شاذةً غير طبيعية . ولكنَّ هذا الميل ليس
عربياً بدليلِ فقدانه في الشعرِ الجاهليِّ والشعرِ الأموي . فمن أين
تسربَ هذا الغزل المذكور إلى الشعر العباسي ؟

لا شك في أنَّ الصورَ التي أوحَت الغزل المذكور كانت
موجودةً في البيئة العباسية ، وعلى الأخص في مراكزٍ خاصةٍ

(١) سيماء : هيئة ، شبه . لا تشق على البصر : لا تتعب البصر (له صورة جميلة) .

(٢) الشريعاً مجموع نجوم . الشعري نجم لامع . الجيد : العنق .

كضواحي العاصمة في الحانات السرية ، « وكلها كانت كذلك » ، وفي أسواق النخاسة وربما في الشوارع أيضاً . فمن هم أصحاب هذه الصور ؟

إذا اعتمدنا الشعر العباسي وأخبار البيئة العباسية رأينا الروم (اليونان) والفرس (العجم) أبطال اللهو وتجاره . فالصور التي أوحت الغزل المذكور - والغزل المؤنث المتهتك - لم توجد - على الأقل بهذه الكثرة - إلا بعد أن شاعت الثقافة اليونانية والثقافة الفارسية في بغداد وضواحيها . أما فيما يتعلق بالروم فحسبنا أن نعلم أن الغزل المذكور يُعرف في الكتب الأوروبيّة باسم الحب اليوناني (الرومي) . ولقد كان في بيئاتهم الراقية أيضاً حتى قيل له الحب الأفلاطوني ، نسبة إلى فيلسوفهم المشهور أفلاطون . وإذا كان نفر من مؤرخي الفلسفة عندهم يريدون أن يفسروا « الحب الأفلاطوني » بأنه حب عفيف مثالى ، فإن هؤلاء أنفسهم لا يستطيعون أن ينكروا أن هذا الحب بمعناه المادي كان موجوداً عند اليونان في كل مكان وفي مدرسة أفلاطون نفسها . ويدرك إخوان الصفا أن هذا الحب كان عند اليونان ضرورة من ضرورات التعليم في النظام اليوناني . ولقد ألفت البيئة اليونانية هذا الحب حتى كان أهلها يستغربون أن يتعرّف الإنسان عنه . لما تعرض غلام فارسي جميل لأغيسيلوس (الثاني - ملك سبارطة ؟) في الطريق العام فأبي أغيسيلوس أن يقبله ، كان هذا التعفف من أغيسيلوس شيئاً غريباً نادر الوقوع بين اليونانيين حتى إن مؤرخيهم نوّهوا بذلك في كتبهم وعدوه أعجوبةً من الأعاجيب . ولما درس المؤرخ الإنكليزي أدورد غيبون في كتابه القيم الواسع المشهور « تقْهُفَ

الإمبراطورية الرومانية وسقوطها» عَدَ الفاحشة (هذا الغرَّل المذكَّر) سبِّاً من أسباب سقوط تلك الإمبراطورية ، بعد أن أشار إلى انتشار هذه الصورة القبيحة في أثينا ورومية انتشاراً واسعاً .

ثمَّ أنَّ الفاحشة انتقلت إلى العصر العباسي من الفُرس . فقد كان الجاحظ قد ذَكَرَ في «كتاب المعلمين»^(١) مقطعاً أورده حمزة الأصفهاني^(٢) لما شَرَحَ حمزة الأصفهاني ديوان أبي نواس^(٣) فقال :

« . . . إنَّ الشعراً قاطبةً من أيام مولدِ الشعرِ قَبْلَ الإسلام إلى آخرِ بني أميَّةٍ كان تشبيهُم بالنساء لَا غيرَ ، إذ كانت دواعي عِشْقِهِمْ من جِهَةِ النساء . فلما أقبلتْ دُولَةُ الْمُسُودَةِ^(٤) من الشرق معَ أهلِ خراسانِ أُخْدِثَ فِيهِمُ اللَّوَاطُ لارتباطِهِمُ الْغَلْمَانَ فَشَبَّ شعراً الدولة بالذكران . وكان لِحدوثِ هذه الفاحشةِ سببٌ حكاهُ الجاحظُ في كتاب المعلمين ، رَأَى . . . أنَّ السببَ الذي أشاعَ اللَّوَاطَ في أجنادِ خراسانَ خروجُهم في البعث^(٥) معَ الْغَلْمَانِ^(٦) ، وذلك لِتَعَدُّ اصطحابِ النساء والجواري حينَ سَنَ أبو مُسلم^(٧) صاحبُ

(١) كتاب المعلمين للجاحظ مفقود .

(٢) حمزة بن حسن الأصفهاني (ت ٣٦٠ هـ - ٩٧٠ م) مؤلف مكث .

(٣) مخطوطة في مكتبة برلين الوطنية ، رقم ٧٥٣٢ . راجع «أبو نواس» للمؤلف (الطبعة الثالثة) ص ٨٥ .

(٤) أنصار الدعوة العباسية الذين اتخذوا «السود» شعاراً لهم (لونا لعلهم وثيابهم) .

(٥) البعث : الجيوش المرسلة إلى القتال .

(٦) الغلمان (هنا) الخدم .

(٧) أبو مسلم الخراساني الرئيس الظاهر للدعوة العباسية .

الدولة في تلك العساكرِ ألا يُصْحِبَها النساء خِلَافاً على جُند بنى أمية في إخراجِهِمُ النساء معهم في العساكر^(١) ، ولم يكن لهم (بد) من غلمان يخدمونهم^(٢)

وأما الحلقة بين البيئة الرومية والبيئة العربية فكانت الصورة الأولى للفاحشة في الأدب العربي ، في مُنْتَصِفِ الدولة الأموية . قيل إن خالداً القسري^(٣) كانت أمّه روميّة ، وكان هو غلاماً مُؤْنَثاً يُصَاحِبُ الْمُغَنِينَ والمُخْتَشِينَ . فلما شبَّ رُميَ (أَتَهُمْ) بإحدى صور الغزل المذكّر . ثم عَيْرَهُ أَعْشَى هَمَدَانَ^(٤) ، فوق ذلك ، بأمّه (الأغاني) .

وصناعة الغزل المذكّر كانت في العصر العباسي مِنْ اختصاص الروم ومن اختصاص الفُرس البارسيين (المجوس الذين لم يدخلوا في الإسلام) . غير أن في ديوان أبي نواس^(٥) أبياتاً رُبِّما دللت على أن نفراً من العرب كانوا يَبِعُونَ الغَزَلَ المُذَكَّر على الراغبين فيه . كما يمكن أن ترى من قولِ أبي نواسٍ (إلا أن يكون هذا القولُ تشبيهاً مُحْضَاً) :

(١) العساكر : الجوش . أراد أبو مسلم من أتباعه أن يخالفوا الأمويين الذين كان شعارهم البياض في كل شيء .

(٢) خالد بن عبدالله القسري (ت ١٢٦ هـ - ٧٤٣ م) أحد ولادة الأمويين تولى مقاطعات كثيرة . وكان يرمي بالزنادقة . هجاه الفرزدق .

(٣) هو عبد الرحمن بن عبدالله بن الحارث (ت ٨٣ هـ - ٧٠٢ م) قارئ (للقرآن) فقيه شاعر ، خرج في الغزو مراراً ، وقاتل الحجاج بن يوسف مع عبد الرحمن بن الأشعث . ثم جيء به أسيراً إلى الحجاج فقتله الحجاج .

(٤) الديوان (طبعة آصف) ٢٩٧ .

نازَّعْتُمْ قهوةً صفراءً صافيةٌ
 بشادنٍ خَبِيثٍ كالغُصْنِ مِيَاسٍ^(١) ،
 مُخَنَّثٌ اللفظ يُسْبِينِي بِمُقْلَتِهِ
 مُقْرَفَطٌ قُرْشِيُّ الوجه عَبَاسِي^(٢) .
 كَأَنْ إِكْلِيلَه تاجُ ابْنِ مَارِيَةِ
 إِذ راحَ مُعْتَصِبًا بالوردِ والأس^(٣) .
 وقد يُغْنِيكَ مِنْ سُكْرٍ وَمِنْ طَرَبٍ ،
 وَالكَأْسُ تُخْتَالُ مِنْ ساقٍ إِلَى حَاسِ^(٤) .

فإذا نحن قِيلُنا أن يكون الغلام الموصوف في هذه الأبيات عربياً ،
 فلا يَعْدُ ذلك أن يكون حالاً شاذةً لأنَّ باعةَ اللهو وأصحابَ أماكنِ
 اللهو كانوا في العصر العباسي (وما يزالون إلى اليوم) من
 الأجانِبِ ، ومن الروم (اليونانيين على الأخصَّ) .

(١) القهوة : الخمر . الشادن : الغزال الصغير . الخنث (الذي فيه أشياء من صفات النساء) . المياس : المتمايل .

(٢) مقرقط : يضع في أذنيه أقراطاً .

(٣) الأكليل شيء مضفور (مجدول) يوضع على رأس الفائزين أو الأبطال . مارية بنت أرقم بن ظالم كان لها قرطان ثمينان جداً . اعتصب : شدَّ على رأسه عصابة (بالكسر) .

(٤) ساق : ساقى الخمر . الحاسي : الذي يحسو (يشرب) الخمر .

الرقّة والكنایة في الغزل العباسی

الترف :

كان العصرُ العباسِي عصرَ رفاهيَّة وترفٍ ، فغلبَ الترفُ والرفاهيَّة على جميعِ ألوانِ الحياةِ الأخرى - في الطبقاتِ العاليةِ من المجتمع ، على الأقل . ثم إنَّ الرفاهيَّة والفراغ يدفعان المرأة إلى اللهو الباطل . وكلما ارتوى الذوَاقُ (المتذوق) من لُونٍ من ألوان اللهو دفعَهُ فضوله إلى الرغبة في اختبار لونٍ آخرٍ جديِّر . فمن أجل ذيئنك الترفُ والفراغ - عند نفْرِ من الناس - أصبحَ اللهو لوناً غالباً على البيئة العباسية .

الأوزان والقوافي :

يلاحظُ القارئُ من بعضِ الأمثلة التي وردتْ وترتُّدُ في هذه الفصول أنَّ الشعراء العباسيين أولعوا بالأوزان القصيرة المجزوءة والقوافي المتنوعة . وأنا لا أقولُ إنَّ الأقدمين لم يستعملوا هذه ، إنهم استعملوها ولكنَّ ليس إلى هذا الحد . ولقد استعملوا ذلك على الأغلب في الغزل والنسيب . قال أبو نواس :

وذاتٌ خَدْ مُورَّدٌ فتانَةٌ المتجردُ^(١)
 تأملُ العينُ منها محسناً ليس تنفَدْ .
 فالحُسْنُ في كلِّ جُزءٍ مُعادٌ مردَّدٌ :
 وبعضاً في انتهاءٍ يتجددُ .

(١) المتجرد : الجسم إذا نزع عن الثياب .

وللبحري :

أيها العاتبُ الذي ليس يَرْضى نِمْ هنِيَا فلستُ أطْعُمْ غَمْضا
ولأبِي نواسِ أيضاً في بحر قصيِّر وقافيةٌ نادرةٌ :
أكذا سريعاً صار حبلُك سيدِي ، مُتَنَقْضاً^(١) :
أبغضتني ، يا سيدِي . . .

الغزل العباسي

الرقة والعدوبة

الكلماتُ التي شاعتُ في العصر العباسي هي غيرُ تلك التي كانت منتشرةً في الأعصرِ التي سبقته. ويظهرُ لنا أنَّ الشعراءَ الفنانين - على جواز استعمال هذه الكلمة لرجالِ الفنِّ ، وقد وُضِعَتْ لِحُمْرِ الوحش - استساغوا كلماتٍ معينةً نَظَموها في قصائدهم ولكن لم يحشرُ أحدهُم في بيته كُلَّ كَلِمَةً مرتُ في ذاكرته ، بل كان يتَّخِبُ المفرداتِ انتخاباً ثم يقرَبُ التركيبَ ما أمكن من عاطفة الناس وأفهامهم .

غير أنَّ هذا لم يكنْ قاصراً على الغزل ، ولكن شاع فيه أكثر منه في كلِّ بابٍ آخر من الشعر . فجاء جانبٌ من ذلك الغزلِ شعراً مطرباً مرقضاً . من ذلك أبيات العباس بن الأحنف التي يقول منها :

(١) الحبل (كتابة عن المواصلة ، المعاشرة) . متَنَقْضاً (يقصد الشاعر. متَنَقْضاً - بتقديم النون على الناء) إذا فسد الحبل بعد إحكام فتلـه (صار ضعيفاً) : بطلت صداقتـك لي .

وكانت جارةً للحور
لها لَعْبٌ مُصَفَّفةٌ
تُنادي كُلَّمَا رَيَّغَتْ
وللسريِّ الرفَاء :

أَظْبَاءُ وَجْرَةً أَفْصَدَتْكَ
جَنَّتِ الْهَوَى وَتَنَصَّلْتُ
لِأَخْاطِرَنَّ ؛ وَمَا الْمُنْتَى
وَلَا وَضِحْنَ صَبَابَتِي .
بَسْحَرِ أَجْفَانِ فَوَائِرُ^(٢)
بِاللَّحْظَةِ مِنْ تِلْكَ الْجَرَائِرُ^(٣)
فِي الْحُبِّ إِلَّا لِلْمَخَاطِرِ
بِالدَّمْعِ فِي الدَّمَنِ الدَّوَاثِرُ^(٤)
تَالِلِهُ ، أَغْدِرُ بِالْهَوَى ، مَا دَمْتُ مُسَوِّدَ الْغَدَائِرُ^(٥)

هذه أبيات إذا أحبت أحد أن يفسرها عَجَزَ ، لأنه لا يقدِّرُ أن ينْقُلَ فكرة الشاعر إلى القارئ من طريق أسهل من الطريق التي سَلَكَها ذلك الشاعر في تلك الأبيات : كَلِمَاتٍ فَصِحَّةً (سهلة على الفَهْم) وَتَرَاكِيبٍ بَلِيغَةً (قَدْرِ الإِمْكَان) . أما الأبيات نفسها فهي

(١) يقصد الشاعر أن ابنته كانت (قبل أن تولد) ساكنة مع الحور العين (نساء الجنة) في الفردوس (الجنة) ، كناية عن جمالها وطيب نفسها . الحقة (بالكسر) : المدة الطويلة من الزمن .

(٢) وَجْرَة اسم مكان تكثر فيه الظباء . أَفْصَدَ السَّهْمَ الرَّجُلُ : أَصَابَ مَنْ مُقْتَلًا . الفاتر : الناعس .

(٣) جَنَّتِ (تلك الظباء) ، أو عيون تلك الظباء : النساء الجميلات) الْهَوَى (أي أوقعنا في الحُبِّ) . ثُمَّ تَنَصَّلْتُ : (تبرأت) باللحظ (أي ظهر في عيونها طفولة تدلُّ على براءتها) . الجريمة : الذنب (الجنائية ، الجريمة) .

(٤) وَسَادَلَ عَلَى شَدَّةِ حَبِّي بِالاستمرارِ فِي البَكَاءِ عَلَى الدَّمَنِ (دَمَنَةً بالكسر : مَكَانُ الدَّارِ) . الدَّائِرَ : الَّذِي تَهْدَمُ وَيَمْحَى آثارُهِ .

(٥) يَقْسِمُ بِاللهِ أَنَّهُ لَنْ يَغْدِرُ فِي الْهَوَى (لَنْ يَبْطِلْ حَبَّهُ) . بَعْدَ الْقَسْمِ تَحْذِفُ « لَا » التَّافِيَةُ مِنِ الْجَمْلَةِ . الغَدِيرَةُ : الصَّفِيرَةُ (الشِّعْرُ) . مُسَوِّدَ الْغَدَائِرَ : شَابٌ .

مُرقصَةٌ تَهَزُّ العاطفةَ . ولكنْ ألمٌ تُوجِدُ الرِّقةَ في الشِّعر القديمِ
(الجاهليِّ والأمويِّ)؟ بلـي ، ولكنـ ليس إلـيـ هذا الحـدـ .

التهتك في صور الغزل

لورَجُونا إلى الشعر القديم : « إلى الشعر الجاهلي » والشعر الأموي أيضاً ، لرأينا شيئاً من التهتك في صُورِ الغزل ، ولكن إلى حدّ ما من الشيوخ . أما أبواب المُجون ، التي هي في الحقيقة أقسام من الغزل والنسيب ، فكانت واسعة في العصر العباسي ؛ وحسبك أبو نواسِ وزملاؤه دليلاً على ما أريده .

الكتابية :

الكنائية (هنا) ألا يصرّح الشاعر باسم الحبيب الذي يتغزل
فيه . وهذا مسلك للشعراء قديم ، منذ أمرىء القيس ، ولكنه شائع
في العصر العباسي ثم اختيرت له كلمات خاصة به . ومن الغريب
أن التهتك في الأقوال والأفعال كان بارزاً في العصر العباسي ثم
يأتي الشاعر المتهتك في جوانب كثيرة من حياته فيحرص على أن
يكتم اسم محبوه في قصائده (كما كان يفعل نفر كثieron من
شعراء الجاهلية وصدر الإسلام) .

لنقرأ الآيات الآتية لأبي نواسٍ ففيها صورة كاملة عن الكناية :

^(١) ظفَلَةُ كَالْغَرَازِ ذَاتُ دَلَالٍ فِتْنَةٌ فِي النِّقَابِ وَالإِسْفَارِ.

(١) طفلة (فتح الطاء) : لينة . النقاب : اللثام ، غطاء الوجه . الأسفار : الكشف عن الوجه .

غير مُطلِّعٍ وغير سوء انتظار .
الشعر، فهلاً كَنْتَ في الأشعار »
بَ وَهِيَ قُلْبُهُ عن الإِسْرَارِ^(١) .
لِيس يُغْنِي لدِيكَ حَقُّ الْجَوَارِ ».

أَتَمَنِي وَمَا يَكْفِيَ مِنْهَا
ثُمَّ قَالَتْ: « جَهَرْتَ بِاسْمِيَ فِي
قُلْتُ: « إِنَّ الْهَوَى إِذَا كَانَ بِالصَّدِيقِ
أَنَا جَارٌ لَكُمْ قَرِيبٌ ، وَلَكِنْ
وَهُنَاكَ قَوْلُ النَّابِعَةِ الْجَعْدِيَّةِ :

أَكْنِي بِغَيْرِ أَسِمَّهَا ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مُحَمَّداً خَفِيَّاتِ كُلِّ مُكْتَسَمٍ .
وَلَقَدْ اتَّخَذَ الشُّعُرَاءُ لِلْكَنَاءِ الْفَاظَةَ كَثِيرَةً كَانَتْ شَائِعَةً مِنْذُ
الْعَصْرِ الْجَاهْلِيِّ . مِنْ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ : يَا ابْنَ عَمِيْ - يَا أَخْتَ فُلَانَ -
يَا حَيَاتِي وَسُؤْلِي الْخَ . وَلَكِنْ لِنَأْخُذُ مِنَ الْفَاظِ الْكَنَاءِ لِفَظِينَ
شَائِعَ اسْتِعْمَالُهُمَا وَتَنْوَعَ مَا تَدْلَأَنَّ عَلَيْهِ ، وَهُمَا « سَيِّدٌ » وَ« مَوْلَى » وَمَا
يُشْتَقُّ مِنْهُمَا .

هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ لَمْ تَظْهَرَا فِي هَذَا الْاسْتِعْمَالِ إِلَّا فِي الْعَصْرِ
الْعَبَاسِيِّ عَلَى مَا رَأَيْتَ أَنَا ؛ لَقَدْ قَرَأْتَ لِعُمَرَ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ فِي بَيْتِ
كَلْمَةَ « مَوْلَةٌ » ، وَلَكِنْ كَانَتْ بِمَعْنَى جَارِيَةٍ . ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ أَيْضًا ،
وَمَعَهَا كَلْمَةُ سَيِّدٌ لِلَّذَلَالَةِ عَلَى مَا وُضِعَتْ لَهُ فِي الْلُّغَةِ .

غَيْرَ أَنْ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ (سَيِّدٌ وَمَوْلَى) لَمْ يُخَاطَبْ بِهِمَا
الْمُحْبُوبُ إِلَّا فِي الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ - فِيمَا مَرَبَّي مِنَ النَّظَرِ فِي عَدِيدٍ مِنَ
مَصَادِرِ الْأَدْبِ . وَسَأَحَاوُلُ أَنْ أَثْبِتَ هُنَا أَكْثَرَ مَا وَقَعَتْ عَلَيْهِ فِي هَذَا
الْبَابِ فَنَرَى فِي ذَلِكَ تَطْوِرَ هَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ عَلَى لِسَانِ الشُّعُرَاءِ ،
تَذْكِيرًا وَتَأْنِيَةً وَلِفَظِيَّاً وَمَعْنَوِيَّاً :

(١) إِسْرَارٌ : كِتَابُ الْأَحْوَالِ .

أَتَى مُسْتَكِبًا رَاهِبًا يَتَضَرَّعْ .
فَإِنِّي لِعَفْوٍ مِنْكَ أَهْلٌ وَمَوْضِعٌ .

وَإِنِّي لِمَوْلَاكَ الْمُجْفَوْتَهُ
وَإِنِّي لِمَوْلَاكَ الْمُضْعِيفَ فَأَعْفُنِي ،
لَنُصِبِ (أيام المهدى) :

تُدَلُّ فَأَحْمِلَ إِذْلَالَهَا^(١)؟
أَبْدَتْ لِي الصَّدَّ وَالْمَلَامَاتِ .

أَلَا مَا لِسِيدِتِي مَا لَهَا
اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنِ مَوْلَاتِي ؟
يَا عَتَّبَ سِيدِتِي ، أَمَا لَكَ دِينُ ؟
(أبو العتاهية) :

إِنِّي ، وَعَيْشَكَ ، مَشْغُوفٌ بِمَوْلَاتِي

وَلَائِمٌ لَامَنِي جَهَلًا فَقَلْتُ لَهُ :
(أبو نواس) :

كَانَ لِعَيْنِي فِرَاقٌ مَوْلَائِي^(٢)
قُمْ ، سَيِّدي ، نَعْصِرُ جَبَارَ السَّمَوَاتِ
الْعَيْنَيْنِ جَاهَلَةً الْوِسَاحَ^(٣) .
فِي النَّاسِ يَسْعَى فِي افْتَضَاحِي .
بِالْفَضَائِلِ وَالسَّمَاحَ^(٤) ،
وُدَّاً وَلَا فِيكُمْ سَمَاحِي^(٥) .

اللَّهُ مَوْلَى دَنَانِيرٍ وَمَوْلَائِي . . .
يَا أَحَمَدُ الْمُرْتَجِي فِي كُلِّ نَائِبَهِ
يَا صَاحَ ، أَشْكُو حُلُوةَ
فِيهَا أَفْضَحْتُ ، وَحُبُّهَا
أَعِنَانِ جَارِيَةَ الْمَهَذِ
مَا لِي وَلَمْ أَكِ بِإِذْلَالِ

(١) تُدَلَّ : تَظَهَرُ الدَّلَالُ ، تَتَمَنَّعُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَقْصِدَ التَّمَنَّعَ .

(٢) لَعَيْنِي (الْحَيْنَ بالفتح : الموت) : سَبِيلَ المَوْتِي (لِشَقَائِي) . دَنَانِيرٌ : جَارِيَةٌ مَغْنِيَةٌ (ت ٢١٠ هـ) .

(٣) وَشَاحِهَا (النَّسِيجُ الْعَرِيشُ الَّتِي تَضُعُهُ الْمَرْأَةُ عَلَى كَتْفَيْهَا حَوْلَ صَدْرِهَا وَظَهَرِهَا) يَجُولُ (يَدُورُ ، يَتَحَرَّكُ) عَلَى جَسْمِهَا (لِسَحَافَةِ جَسْمِهَا) .

(٤) عَنَانٌ (ت ٢٦٦) جَارِيَةٌ شَاعِرَةٌ مُسْتَهْرَةٌ أَوْلَعَ بِهَا أَبُو نواسُ وَغَيْرُهُ .

(٥) السَّمَاحُ : الْكَرْمُ .

(٦) - مَا لِي (أَعْذَبَ بِهِ جَرْكَ) وَلَمْ أَكُنْ بِذَلِّا (مَانِحاً) وَدَيْ (لَغَيْرِكَ) وَلَا فِيكُمْ (بِكُمْ) سَمَاحِي (رَضَايَ بِأَنْ أَنْسَاكَ أَوْ يَحْبَبَ غَيْرِي) .

فَبِخَلْتِ أَنْتُ ، وَلَيْسَ أَهْلُ لِكِ مِنْ قَبْلِكِ بِالشِّحَاجِ .
إِنِّي وَمُولَاكِ الَّذِي مَا عَنْهُ لِي مِنْ نِجَاحٍ^(١) .
لَا تَلْمِنِي أَنْ أَجْزُعاً ، سَيِّدِي قَدْ تَمَنَّعَ .
ضَعْ كَذَا صَدَرَكِ ، يَا سَيِّدِي . . .

يوسف ابن الصَّيْقَل (معاصر أبي نواس) :

فَهَبْنِي ، نَعَمْ ، كَتَمْتُ الْهُوَى فَكَيْفَ بِكَتْمَانِ دَمْعِ سَرْبٍ^(٢) ؟
وَلَوْلَا آتَقَاؤُكِ ، يَا سَيِّدِي

(عن لسان إحدى حظايا الرشيد إليه) :

وَأَبْحَثْنِي ، يَا سَيِّدِي ، سُقْمًا يَحْلُّ عَنِ السَّقْمِ^(٣) .
قَدْ بَدَا شِبْهُكِ ، يَا مُولَايِ ، يَحْدُوهُ الظَّلَامُ^(٤) .

(فضل الشاعرة - أيام المتكفل) :

وَنَخْضُعُ ذُلّاً خُضْوَعَ الْعَبْدِ لِمَوْلَى عَزِيزٍ إِذَا أَعْرَضاً .
قَدْ يَعْطُفُ الْمَوْلَى عَلَى مَنْ مَلَكَ .

(لسعيد بن حميد في فضل الشاعرة) :

لَا تَشْمَتَنَّ فَإِنَّهُ مَوْلَى يُعَذَّبُ عَبْدَهُ .
رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنَّ الْصُّلْحَ قَدْ فَسَداً ،
وَأَنَّ مُولَايِ بَعْدَ الْقُرْبِ قَدْ بَعْداً .

(١) المقطرة تنتهي في الديوان (أصاف ٣٧١) مع هذا البيت . المعنى غامض .

(٢) سرب : سائل ، جار (يسيل ويجري بكثرة) .

(٣) أبحثني : سمحت لي (فقط) فيها تهكم . سقما (من الحب) يحل (يعظم) يزيد على كل مرض آخر .

(٤) قد بدا (ظهر في السماء) شبهك (البدر) يحدوه : يدفعه أمامه .

نادمٌ ذُكْرَكَ والظَّلْمَاءِ عَاكِفَةَ
 فَكَانَ ، يَا سَيِّدِي ، أَحْلَى مِنِ السَّمَرَ^(١)
 أَيْنَمَا كُنْتُ ، سَيِّدِي ،
 طَافَ بِي مِنْكَ طَائِفُ^(٢)
 مُولَاكَ ، يَا مُولَايَ ، صَاحِبُ لَوْعَةٍ^(٣) ...
 رِقٌّ لَهُ إِنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ ...
 أَيُّ خِصَالٍ حَازَهَا سَيِّدِي لَوْلَمْ يُكَدِّرْ صَفْوَهُ مُطْلَهُ .
 (أبو تمام) .

* * *

(١) السمر : حديث الليل .

(٢) طائف : الحراس الذي يطوف في الليل (منام ، خيال ، ذكرى) .

(٣) مولاك : عبدك . يامولي : يا سيدتي (المولى من أسماء الأضداد : سيد وعبد) .

التقليد في الغزل والنسيب*

لو رجعنا إلى الشعر العباسي الذي نُظم بين أوائل القرن الثاني للهجرة وأواخر القرن السادس لوجدهناه ينقسمُ قسمين أولهما ينتهي في مُتصف القرن الرابع ، هذا إذا لم ت تعرض لأبي العلاء المعري . هذا القسم الأول يغلب فيه الفكر . وأما القسم الثاني فيغلب فيه القلبُ اللغطيّ . وما دمنا ندرس الغزل فقط فإني اعتقد أن لي مسوغاً في ترك أبي العلاء : هو عدم اشتئاره بالغزل .

يرى القارئُ أنني أضفتُ كلمة النسيب إلى عنوان المقالة الحاضرة مع أنني كنت من قبل قد اقتصرتُ على الغزل (وصف الأعضاء) في البحث . إلا أنني وجدتُ الآن أن البحث في الغزل فقط ، في هذا العصر ، ينتهي بقولنا « لم يتقد في شعر هؤلاء الشعراء شيءٌ جديدٌ » ثم نطلع على النماذج من شعرهم . أما الآن فأصبح بإمكاننا أن نرى في النسيب صوراً جديدةً لها بالغزل علاقة متينة تمكنا من استخراج دراسة ذات فائدة ملموحة .

الغزل الخالص :

يُمثل هذا العصر بضعة عشرَ شاعراً منهم من هو مشهور كالشريف الرضي والطغراني ومنهم من هو أقل شهرةً كمهيار الدينليمي وسيط ابن التميمي . ومنهم من قل عن جميع هؤلاء شهرةً ، ولكن لم يقل عنهم منزلة في الشعر أمثال صردار وعمارة اليمني (وقد اتفقنا على أن نترك أبا العلاء) .

(*) الأحرار (بيروت) ٣٠ / ١ / ١٩٣٢ .

ما هي الصفاتُ الجديدةُ التي أدخلها هؤلاءُ على الغزلِ العربي؟ سؤال ليس أقرب إلى حقيقة الجوابِ عليه من «لا شيء» إننا ما بَرِحْنا نرى الصفاتِ التي أحبَّها أبو نواسٍ ومسلمُ بن الوليد وأبو تمامٍ والبحترى ترددَ بين أبياتِ التهاميِ ومهيارِ والطغرائي والأرجاني وعمارةِ اليمنيِ وأصحابِهم ، لم يزيدوا عليه واحدةً ولم يفرطوا في واحدةٍ منها أيضًا فِيهِمُوها . غيرَ أنهم أخذوا غيرَ هذه الصفاتِ وقلبُوها ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشَّمالِ ثم أعادوا الكَرَّةَ على أوجهها الباقيَةِ وجرَّبوا أن يستندوا صورَها أجمعَ ، وقد وُفقوا إلى حدٍ بعيدٍ . وبعدئذ عكفوا على دراسةِ الشعر العباسيِ والشعرِ السابق للعصر العباسيِ فوجدوا فيه صفاتٍ ضئيلةً أو شاردةً أشار إليها الشاعر الأموي أو العباسي إشارةً خفيفةً فراحوا يولدون منها معانٍ جديدةً أو يفصّلون منها صفاتٍ مستحدثةً حتى لِيُخَلِّ إليكَ أن هذه مظاهرٌ جديدةٌ في شعر هذا الدورِ . ولكنك لا تلبثُ - إذا أنعمتَ النظرَ في شعرِ مَنْ سَبَقَهمْ - أن تجدَ إشاراتٍ لا تقبلُ الترددَ في أنها منشأ تلكِ الصفاتِ . وقبلَ أن أتقدّمَ إلى سردِ هذه التواحي الجديدةُ أوردُ عدداً من الأبياتِ في الغزلِ عامَةً حتى يَعْرِفَ القارئَ منحى هؤلاءِ الشعراءِ .

الأبيات التالية لصدرِ :

| | |
|--|--|
| جزْ باللُّوى إِنْ كُنْتَ تَؤْثِرُ أَنْ تَرِى | حَدَقَ الْمَهَا وَسَوَالِفَ الْآرَامِ ^(١) |
| وَتَأْنَ فِي نَظَرِ الْخَدُودِ فِيهَا | صُورُ تُبَيِّحُ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ . |

(١) جاز : مرَّ . اللوى : الرمل المستدير .

وَوَدَدْتُ لَوْ قَبَلْتُ سَهْمَ الرَّامِي^(١)
وَنَظِيرِهِ فِي الْقَلْبِ حَبْ نَامٌ^(٢).

ناضَلْنَا بِنَوَافِذِ مَسْمُومَةٍ
وَكَتَبْنَا فِي الْأَيْدِي خَضَابًا نَامِيًّا ،
وَالْأَبْيَاتُ التَّالِيَّةُ لِلْأَرْجَانِيَّ :

تَمَاءِلَ مَيَالَ الغَصْنِ وَهُوَ رَطِيبٌ .
بَهَا يَحْسُنُ الْمَرْعَى لَهُ وَيَطِيبُ .
فَخُوطُ وَأَمَا تَحْتَهُ فَكَثِيبٌ^(٣) .
وَمُعْتَنِقُ الْعُشَاقِ مِنْهُ رَحِيبٌ^(٤) .

يَتَيهُ بَعْزٌ : كَلَمَا هَزَهُ الصَّبَّا
وَرَوْضَةُ وَرَدٍ بَيْنَهَا أَقْحَوَانَةُ
مِنَ الْهَيْفِ أَمَا فَوْقَ عَقْدِ قِبَائِهِ
يَضِيقُ مَشْقُ الْجَفَنِ مِنْهُ إِذَا رَنَا ،

أَمَا الْبَيْتَانُ التَّالِيَّانُ فَلَابِنُ عُنَيْنٍ :

وَاهِيفٌ عَسَالٌ الْقَوَامُ كَأَنَّهُ

قَضِيبٌ عَلَى دِعْصٍ مِنَ الرَّمْلِ قَدْ نَمَا^(٥) .

تَحْمَلُ فِي أَعْلَاهُ شَمْسًا أَظْلَلَهَا

بَلِيلٌ وَأَبْدِيٌّ مِنْ ثَنَاءِيَّاهُ أَنْجُمًا^(٦) .

فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ صُورَةٌ أَعْتَدْتُ أَنَّهَا صَادِقَةٌ فِي تَمْثِيلِ
الْغَزْلِ فِي هَذَا الدُّورِ : فِيهَا مِنَ الصَّفَاتِ شَيْءٌ جَدِيدٌ وَلَكِنَّ فِيهَا
صِنَاعَةً وَتَقْليِيًّا لِلْمَعْنَى الَّتِي أَتَى بِهَا الشَّعْرَاءُ فِي الدُّورِ السَّابِقِ وَفِي
الْدُورِ الَّذِي قَبْلَهُ .

(١) ناضل فلان فلانا : (رماء بالسهام) . بنوافذ (سهام) تنفذ (تؤثر فينا) من عيونهن .

(٢) كتبن خضابا : صبغن (أيديهن) بالحناء أو بغيرها . خضاب نام : شديد الحمرة أو
السوداد . حب نام (شديد ، يزداد يوما بعد يوم) .

(٣) الأهيف : الطويل النحيف . الخوط : الغصن الناعم . الكثيب : التلة من الرمل .

(٤) رنا : تطلع . معتنق العشاق (الصدر) . رحيب : واسع .

(٥) عسال : ميال ، يتمايل . الدعص : قطعة من الرمل مستديرة .

(٦) شمس (كنية عن الوجه) . ليل (كنية عن الشعر) . وأسنانه بيض كالنجوم .

قوالب جديدة لمعانٍ مسبوقة :

يُعِجِّبُنَا في هذا الدور أن نفراً من شعرائه أخذوا معانٍ الأولين وصقلوها . فمنهم من أخرج طائفَ ، ومنهم من كا فأسَ .

في العصر العباسي الأول كثُرت الصورُ الجديدةُ إلى حد قصبيٍّ فكنتَ تجدُ أحياناً للشاعر معنىًّا مبتكرًا في كلَّ بيتٍ من أبياتِ قصيدةٍ له . وكان يَرْوَعُكَ من ذلك في أكثر الأحيان جِدَّةُ المعنى لا طريقة سبكيه . وطالما راعَكَ الاثنتانِ .

إن أبا نواس وأبا تمام والمتنبي ومعاصريهم امتلأت أيديهم بالمعاني الجديدة والصور المستحدثة فراحوا يَنظِّمونها وقد يجعلونها ركاماً (بعضه فوق بعض) ، حتى ليَصْحَّ لك أن تقول إن قصيدةً واحدة لأبي تمامٍ لا تُفهَمُ حَقَّ الفهم إلا إذا فسَرْتُ في مجلدِه . أما الآن فقد افتقر الشعراً وقتلتِ المعاني بين أيديهم فأخذوا يَصْقلُون ما ورثوه وينفُونه ثم يجعلون منه صوراً جذابةً تحملنا على وضعيتها في مصاف ما أبدعه شعراً هرون الرشيد ، فلنُصْغِّر قليلاً إلى سبط بن التعاويذِي :

كَبِيْدِي ناراً تلظى :
قُلْ لمن أصلى هواها
يا قضيب البان قدأ ،
وغزال الرمل لحظاً
أنت أحلى من لذىذِ
النوم في عيني وأحظى .
أنت من أعزب خلقِ
الله أخلاقاً ولفظاً .
فمتى أقبلْ نُصحاً
فيكِ أو أقبلْ وعظاً .
فَلِمَ أعرضتِ يقظى ؟
قد بذلكِ الوصولَ في الطيفِ
ما أرى لي - والموداتُ
حظوظٌ - منكِ حظاً

بعد ما ضيَّعتْ رَغبَاً لِكِ أَيامِي وَحْفَظَاً .
أَهُّ من رِقةِ خَدَّ جَعَلْتُ قَلْبِكِ فَظَا .

لا يضيرُ هذه الأبيات أنَّ كُلَّ معانٍها مسبوقةً ، فإنَّ فيها طرحاً
مُرققاً . ولكنْ يجبُ ألا ننسى أنَّ سِبْطًا من أعلامِ هذا الدورِ وأنَّ
نفراً من الشعراءِ غيره قد مَسَخُوا معانٍ مِنْ تَقْدِيمِهم مسخاً يَجْزِمُ بِأنَّ
المعنى في صورته الأولى كان في كثير من الأحيان أجملَ منه في
صورته التالية .

التشابيه البعيدة :

استند الشعراء الصور القرية لهذه المعاني ولم يقدروا على
ابتكارِ معانٍ جديدةٍ ، ولكنهم أحبوا الابتكارَ أو ، قُلْ ، خَطَرَ على
بالهم فراحوا يُوغلون في التشبيه حتى لَيَنْقُطُ ما بينَ تشبيههم وبينَ
المَلَوْفِ أو يَحْمِلُ القارئَ على التفويتِ ، فإذا الأرجاني يقولُ :
غَدُوا دُرَرًا أَصْدَافُهُنَّ هُوَادِجُ ، وَلِيسُ لَهَا إِلَّا السَّرَابُ بِحَارٌ^(١) .

وقال الغزي :

بَدَا صَنَمًا وَقَالَ : هَوَاكَ شِرْكُ ، وَقُتلُ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الْجِهَادِ .

ولابن الخطاط :

خَلِيلِيُّ ، قَدْ هَبَ اشتياقي هَبوبِها حُسُومًا فَهَلْ مِنْ ذِرْوَةٍ تَتَلاقَاهُ^(٢)

(١) - يكون اللآلئ في الأصداف في البحار . وهؤلاء النساء الجميلات مكونات في الهوادج التي تسير في السراب (البواقي) .

(٢) منذ خمسين سنة قرأت هذا البيت (مخترات البارودي ٤ : ٣٤٥) وفيه « من ذِرْوَةٍ تَتَلاقَاهُ » . وفي عام ١٩٥٨ أصدر خليل مردم (ت ١٩٥٩ م) - رئيس -

وقد تضيقُ السبيلُ بأخذِهم فَيُعِيدُ في بيتٍ ما قاله في بيت آخرٍ؛ فَلَنْمَثِلْ على ذلك بأبياتٍ للأرجاني (الديوان ٣٢٣ : ٣٣٦) :

يشكو إلى من الهوى ما ناله ،
وأبى غريق أن يغيث بليلًا^(١) .
يشكو إلى من الصباة صاحبِي
وأبى غريق أن يغيث بليلًا .
فحيث لاحظت منه حسبيت خالا^(٢)
* تُبین سوادها الأبصارُ فيه
* يظن خيالاتِ أهداها عذاراً على خدّه الناظر ونا^(٣) .

ولم يقنع نفرٌ من هؤلاء بتربيد معانيهم ، بل استعاروا من
غيرهم أو أغروا . فقال الأبيوردي :

المجمع العلمي العربي بدمشق - «ديوان ابن الخطاط» ، فظهر هذا البيت فيه (ص ٧٣) «.... من زورة تتلاه». وفي الديوان «الحسوم : التتابع». وفي القاموس (٤ : ٩٦) : الحسوم : الشرم والدووب (الاستمرار والتتابع أو المتابعة) . ومع أنني أردت (واريد الآن) أن أقرأ «من ذروة تتلاه» (بالتون والفاء) ، فإننا لا أقصد أن أجادل في قراءات البيت المختلفة ، ولكنني أريد أن أشير إلى لجوء نفر من شعراء هذا الدور إلى الإيغال في التشابيه والاستعارات حتى تغمض أبياتهم ويصعب ضبطها من حيث اللغة على الأقل (أنظر مثلاً : هبوبها ، إلى أين يرجع الضمير فيها - وليس قبل هذا (في الديوان) بيت يصبح رجوع هذا الضمير إليه (يحسن أن نقرأ : هبوبها - أي هبوب «اشتباهي») .

(١) الغريق (في البحر) لا يستطيع مساعدة الذي ابتلى ثيابه بالماء (صاحب المصيبة الكبيرة لا يستطيع نفع صاحب المصيبة الصغيرة) .

(٢) إذا نظرت العيون إلى ذلك الوجه انعكس على صفحته (لصفاء ذلك الوجه) بمؤوها (الأسود) ، فتظن أن هنالك خالا في كل بقعة من وجهه (أو وجهها) تقع عليها عينك .

(٣) الأهداب : الشعر النابت على أطراف الأجناف . العذار : الشعر النابت على صفحتي الخد . في هذه الصورة وبالغة غير مستحبة . (أهدابه لكتافتها تلقي خيالاً على وجهه) .

وفضَّ ختام السرِّ بيني وبينها كلامٌ يؤدِّيهُ البنانُ المطَرَّفُ^(١) .

وللفرزدق من قبل :

يُلْغَنا عنها بغيرِ كلامها إلينا من القصرِ البنانُ المطَرَّفُ .

وقال الأرجانيَّ من هذا الدور : -

صلي واغنمي شُكْري فما وردةُ الربِّي
تدومُ على حالٍ ولا وردةُ الخدَّ .

ألا يوحى هذا إليك قول المتنبي : -

وصلينا نصلُّك في هذه الذِّي
بما فإنَّ المَقام فيها قليل .

وللأرجانيَّ أيضًا (الديوان ٢٤٠) :

ترِيك بعينِيهَا المَهَأة إذا رَأَتْ

ويعطِيك لِيَتَّها الغزالُ الذي يعطُو^(٣)

وقد قال البحيري «... يعطيك القضيبُ قوامها ويريك
عينيها الغزالُ الأحمرُ .

(١) البنان : أطراف الأصابع . المطَرَّف : المنصبوع (بلون أحمر) .

(٢) في الديوان (ص ٢٤٠) «لَيَتَّها» (بناء منقوطة بثلاث نقط) وبلا تشكيل . ومنذ
خمسين سنة قرأتها «لَيَتَّها» بالتأءمة المنقوطة ب نقطتين من فوقها . واللبيت (بكسر
اللام) صفحة (جانب) العنق . - في ذلك الحين كان عندي ستَّ وثلاثون ساعة
تدرِيس في الأسبوع . وكان بيتنا في المنارة (أقصى الغرب من بيروت) ومكان
عملي في الحرج (على نحو ستَّة كيلومترات من بيتنا) . يعْطُو : يرفع رأسه فيظهر
طول عنقه .

وأتنى الأبيوردي أيضاً فأخذ المعنى المأخوذ عن البحترى
وقال :

وبمهجتي هيفاء يرفع جيدها رشاً ويُخْفِضُ ناظرَيْها جؤذُرُ .
وله « وللهوى . . . رسائل بلغتها فاه » مأخوذه من الشريف
الرضي « عندي رسائل شوق . . . لولا الرقيب إذن بلغتها فالك » .
وهذا النوع من الاحتذاء كثيرٌ ظاهر بينَ ولكن يحتاج إلى مساحة
واسعةٍ إذا نحن أحببنا أن نأتي بجميع الشواهد عليه . وكان هنالك
مائحة آخر في شعر هذا الدور : إنه انحط في المثانة عن طبقةٍ شعر
أبي نواس وزملاه .

التعفف في الحب :

مال الشعراً في هذا الدور من العصر العباسي إلى شيءٍ من
الفسق والتهتك (في الألفاظ ، على الأقل) . ثم لما كثُر الترفُ
وظهرت أبهةُ الدولة وفاضت الأموال قلَّ التدين وظهر الفسادُ في البرَّ
والبحر . ثم زالت العظمة السياسية وتخلَّخت البيئة الاجتماعية
وتتساهم الناس في جوانب من الحياة . في مثل هذه الحال يُطْلُ
على الناس خطرُ التشتيت والزوال فتستشعرُ النفوس شيئاً من الرهبة
وتتوجلُ القلوبُ فيرجع الناس إلى التمسك بأهداب التقوى في ظاهرِ
أعمالِهم وأقوالِهم - وفي قرارَة نفوسِهم أيضاً - مما هو في الحقيقة
ردَّة (أو ردَّ فعلٍ ، كما يُقال أحياناً) عما سبقَ من التحلُّل من
قوانين الطبيعة وقواعدِ الاجتماع ومناهجِ الأخلاق .

والشعر مرآةً من مَرَائِي الحياة أو مَرَاياها ، يتأنَّرُ بمظاهِرِ الحياة

فَيُعِرُّ عنها تعبيراً صادقاً حيناً وتعبيرًا مُضطئناً في بعض الأحيان . ومع أن الشعراً قد أحبوا أن يسلكوا طريق العفة الصحيحة ، فإن نفوسهم ظلت تنازعهم إلى التمتع بما يتمتع به المُنفلتون من قيود المجتمع . فلو جعلنا الشريف الرضي مثلاً في هذا الميدان ، وهو من نعرف خلقه المتين الكريم وعفته الصحيحة القوية ، لرأيناه يزجي غزله هذا في ألفاظ جمهورية توجب الشك والتهمة ، ولكنَّه يحوم فيها على مدارك عفيفٍ ومعانٍ كريمة . ولا شك في أنَّ غزل الشريف الرضي كان غزلاً مُضطئناً لا يُفهَم إلا إذا نحن حملناه على غير ظاهره ، ولا عجب ، فإنَّ غزله من عمل خياله لا من واقع حياته . من ذلك مثلاً قوله :

بِتَنَا ضَجِيعِينَ فِي ثَوْبِيْ هُوَيْ وَتَقَيْ
يَلْفَنَا الشَّوْقُ مِنْ فَرْعَ إِلَى قَدَمَ^(۱)
وَبِتَنَا عَفَّةً بَأْيَعْتَهَا بِسَدِي
عَلَى الْوَفَاءِ بِهَا وَالرَّاغِي لِلذَّمَمِ
وَأَكْتُمُ الصَّبَّاحَ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةً^(۲)
حَتَّى تَكَلَّمَ عُصَفُورُ عَلَى عِلْمَ
غَيْرِ الْعَفَافِ وَرَاءَ الغَيْبِ وَالْكَرَمِ
فَقَمْتُ أَنْفِضُ بُرْدَادًّا مَا تَعْلَقَهُ
ثُمَّ أَنْشَيْتُنَا وَقَدْ رَابَتْ ظَواهِرُنَا
وَفِي بُواطِنَتِنَا بُعْدُ مِنَ التَّهَمِ .

ثُمَّ يَعْجَبُ الطُّغْرَائِيُّ بالشَّرِيفِ الرَّضِيِّ إِعْجَاباً عَظِيمًا فَيَمْضِي
خَيَ النَّسْجَ عَلَى مِنْوَاهِهِ فِي الْأَغْرَاضِ وَالْمَعَانِي - مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرْزَقَ
الْطُّغْرَائِيُّ حُلُوَ الْكَلَامِ الَّذِي كَانَ لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ - وَلَكِنْ تَقْلِيدُ
الْطُّغْرَائِيُّ لِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ فِي الْبَحْرِ وَالْقَافِيَّةِ وَفِي الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ
أَوْجَبَ لِلْطُّغْرَائِيِّ شَيْئاً مِنْ حُلُوَ الْلَّفْظِ . قَالَ الطُّغْرَائِيُّ :

(۱) الفرع : الشعر .

(۲) علم : جبل (مكان مرتفع) نكلم عصفور على علم (كتابة عن طلوع النهار) .

سِرْبٌ مِنَ الْإِنْسِ رَكِبَنَ الْفُصُونَ عَلَى
حِقْفِ النَّقا وَسَرَنَ الْوَرَدَ بِالْعَنْمٍ^(١).

بَخْلُنَ حَتَّى بِإِهَادِ السَّلَامِ لَنَا ،
وَالْبُخْلُ فِيهِنَ مُحْسُوبٌ مِنَ الْكَرْمِ .

وَلِيلَةِ السَّفَحِ وَالرَّكْبِ الْهَجُودِ ثَنَّا
عَلَى الْأَكْفَ مَثَانِي الْجُدُلِ وَاللُّجُمِ^(٢) ،

بِتْنَا وَبَاتَ الصَّبَا وَهُنَّا يُغَازِلُنَا
وَفَرَشْنَا الرَّمَلَ وَشَتَّهُ يَدُ الدِّيَمِ^(٣) .

وَاللَّيلِ يَكْتُمُ سَرَّيْ ، وَالصَّبَا كَلْفَ
بِتَشْرِ ما كَادَ تَطْوِيْهِ يَدُ الظُّلْمِ .

ظَنَّنَا بَنَا السُّوءَ وَارْتَابُوا فَنَزَّهَنَا
بَرْدُ الْمَضَاجِعِ عَمَّا رَابَ مِنْ تُهْمِ^(٤) .

أَفْدِي غَرِيمًا طَوِيلَ الْمُطْلِ ، ذَمَّتُهُ
وَإِنْ لَوَى الدَّيْنَ ظُلْمًا - أَوْتَقَ الدِّمْمَ^(٥) .

(١) الفصون (كتابة عن الأجسام فوق الخصر). الحقف (بالكسر) : ما استطال واستدار من الرمل (كتابة عن الكفل -فتح فتح). النقا : الرمل الأبيض. سترن الورد بالعنم (وضعن على خدوذهن الحمراء كالورد عنما، أي لونا أحمر اصطناعيا).

(٢) الركب : الذين يسافرون معا. الهجود : النلام. الجدل (بضم فضم) جمع جديل (الزمام : اللجام) المجدول . - الصورة غير واضحة لي.

(٣) وهنا : بعد متصرف الليل . وشته : زخرفته. الديمة : المطرة الخفيفة.

(٤) نزّهنا برد المضاجع (لأننا لم نتم فسخن أماكن نومنا).

(٥) الغريم : الخصم ، الدائن والمديون (من الأصدقاء) . المطل : تأخير وفاء الدين. لوى الدين : مطله (آخر وفاه ، أو تعهد بوفاته ولم يفعل).

ما زلت أرقى من رفق وأسحره
حتى تبسم عن حلو الجنى شبِم^(١) :

ورق لي قلبه القاسي ، ومكثني
مما أريده فلم آثم ولم ألم^(٢) .

وسائل عن جوى قلبي فقلت له :
ما أنت عندي على سرّ بمعهم ؟
طاب الجوى في الهوى حتى أنسُت به .
 فهو المراة يحلو طعمها بفمي^(٣) .

لم يفعل الطغرائي هنا شيئاً أكثر من إذابة خالص معاني
الشريف الرضي في بحر من الألفاظ : التقليد ظاهر ، والمعاني
قريبة ، ولكن الكلام الحلو الذي كان للشريف الرضي لم يتطرق
للطغرائي ..

وحاول الطغرائي مثل ذلك في الأبيات السينية التالية فكان
أشد بعده من حلاوة الكلام في شعر الشريف الرضي وأقلّ وضوهاً
في المعاني :

خليلي هل من مسعد أو معالج
فؤاداً به دواء من الحب ناكس^(٤) .

(١) حلو الجنى (الشعر) شبِم (بارد) كناية عن الفم .

(٢) آثم : ارتكب ذنباً . ألام فلان : أنت ما يلام عليه .

(٣) الجوى : عذاب الحب .

(٤) مسعد : مساعد ، معين (على حمل الحب) . معالج : مداو . الناكس (المرض)
الراجي (ويكون أشد من المرض الباديء) .

وَهُلْ تَرْجُو وَانِ الْبُرْءَ مَا أَكَنَّهُ ؟
 فَإِنِي ، وَبَيْتِ اللَّهِ ، مِنْهُ لَا يُسْعِ^(١) .
 هُوَ لَا يُدِيلُ الْقَرْبَ مِنْهُ وَلَا النُّوِي ،
 وَلَا هُوَ مِنْ طُولِ التَّقَادُمِ دَارِسٌ^(٢) .
 سَرِي حِيثُ لَا يَدْرِي الضَّمِيرُ مَكَانَهُ
 وَلَا تَهْتَدِي يَوْمًا إِلَيْهِ الْهَوَاجِسُ^(٣) .
 إِذَا قَلْتُ هَذَا يَوْمًا أَسْلُو تَرَاجِعْتُ
 عَقَابِيلُ مِنْ أَسْقَامِهِ وَوَسَاوسُ^(٤) .
 فِي سَرْخَتِي وَادِي الْعَقِيقِ سَقَائِمًا
 - وَإِذْ لَمْ تُظِلَّنِي - الْغَمَامُ الرَّوَاجِسُ^(٥) .

هذه الأبيات وما يمكن أن نستشهد به من مثلها تُباين ما عهدنا
 عليه شعراء الدور الأول . فلم يكن لأبي نواس مثلاً وقت يُبَشِّرُ
 شوقه ، هو لم يحتاج إلى ذلك قطّ لأنّه كان بإمكانه - وإمكان
 معاصريه أيضاً - أن يصل إلى حبيبه بأدنى وسيلة إلا فيما شذ وندر .
 أما في هذا الدور فشعراء يُدْلِلُ على أن منفذ العاطفة كان على
 غير ما عَهَدْنَاهُ من قبل في أيام المَهْدِي والهادي والرشيد والأمين
 من خُلُفاء بنى العباس ، يوم كان الشاعر جريئاً في وصف لياليه

(١) أَكَنَّهُ : أَخْفِيَهُ ، أَكْتَهُهُ . بَيْتُ اللَّهِ : الْكَعْبَةُ .

(٢) الْهَوَى الَّذِي يُبَيِّنُ لَا يُنْصَفُ مِنْهُ (لَا يُشْفَيَهُ) الْقَرْبُ (مِنَ الْمُحْبُوبِ) وَلَا النُّوِي (الْبَعْدُ عَنْهُ) . ثُمَّ إِذَا طَالَ عَلَيْهِ الزَّمْنُ لَا يَدْرِسُ (لَا يُمْحَى ، لَا يُنْسَى) .

(٣) الْهَوَاجِسُ : الْخَاطِرُ (الْخَيَالُ) .

(٤) أَسْلُو : أَنْسِي . عَقَابِيلُ جَمْعُ عَقْبَوْلُ (بِضمِّ فَسْكُونِ فَضْمَمِ) : بَقِيَةُ الْعَلَةِ .

(٥) السُّرْحَةُ : الشَّجَرَةُ الْعَظِيمَةُ الطَّوِيلَةُ (كَنَابِيَّةُ عَنِ الْمَرْأَةِ) . الرَّاجِسُ : الَّذِي لَهُ صَوْتُ (رَعْدٌ) . إِذَا كَثُرَ الْبَرْقُ وَالرَّعْدُ فِي الْغَيْمِ يَكْثُرُ سُقُوطُ الْمَطَرِ مِنْهُ .

والناسُ عامةً جريئين في الفتُك والمَجَانة، ومع كُلّ هذا التصْنُعِ فقد
ظلَّ في الشعر شيءٌ كبيرٌ من الرقة فالطرب . وعلى ذلك قولٌ مهياً
الديلمي :

أترَاهَا ، يوْمَ صَدَتْ أَنْ أَرَاهَا ،
عَلِمْتُ أَنِّي مِنْ قَتْلِي هُواهَا ؟
سَنَحَتْ بَيْنَ الْمُصْلَى وَمِنْيَ
مَسْنَحَ الظَّبَابَةَ تَسْتَقْرِي طَلَاهَا^(١)
قالَ وَاشِيهَا ، وَقَدْ رَاوَدَهَا
رَشْفَةَ تُبَرِّدُ قَلْبِي مِنْ لَمَاهَا^(٢) ،
لَا تَسْمُهَا فَمَهَا . إِنَّ الَّذِي حَرَمَ الْخُمْرَةَ قدْ حَرَمَ فَاهَا^(٣) .
أُعْطِيْتُ مِنْ كُلَّ حُسْنٍ مَا آشَتَهْتُ ، فَرَآهَا كُلُّ طَرْفٍ فَاشْتَهَاهَا .

إنني لا أدرِي إذا كان هذا الشِّعر يدل على عواطف قائلِيه أو أنه تصْنُع أو تقليد للشِّعراء العذريين في صدر بنى أمية كجميل بشنة وكثير عزة . إنني أعتقد أن هنالك صلة بين هاتين الطائفتين ولكنني لا أدرِي مبلغ الهوى في قلوب شعراء الدور الذي نبحث فيه الآن .

الأماكن المقدسة :

رأينا آنفًا أنَّ الشاعر في هذا الدور يتصنَّع في غزله ونبيه وأنه يَعْفَّ عَمَّا كان يفعله زُملاءُ أبي نُواسٍ وعَمَّا كانوا يقولونه أو يفكرون فيه . فمن الأدلة على ذلك أنَّ الشِّعراء أصبحوا لا يذَكُّرون المحبوب باسمه وصفاته الخاصة أو يُشيرون إلى مجالسِ لهوٍ مُعْيَّنةٍ

(١) سَنَحَتْ : لاحت ، ظهرت . المصلى (قرب الكعبة) . مني : منزلة شرق مكة ،
وهما من مناسك الحجَّ . تستقرى : تطلب ، تبحث عن ضائع . الطلا
(بالفتح) : الصغير . من الناس ومن البهائم . - باضطراب ولهمة .

(٢) من لَمَاهَا = من شفتيها اللمياوين (السمراوين) .

(٣) سَامَهَا : طلب (أن يشتري شيئاً) . الذي حرم الخمر (الله) . فوها = فمها .

أو حوادث شخصية ، بل أصبحوا مثاليين ينظرون في شعرهم إلى مثل أعلى ورتبة أسمى فكانتونا عما يجول في ضمائرهم بأسماء الأمكنة المقدسة . وهذا شيء جديد لم يظهر ، حتى هذا الدور ، في هذا المعنى فكثر ذكر الخيف ومني والبطحاء والعقيق في الحجاز ثم ذكر كاظمة في العراق . وهذه كلها أماكن مقدسة عند المسلمين ، فهي مناسك لهم أو مشاعر ، أي مشاهد لأدوار من حياة الأنبياء والأولياء . ومن الشعراة من توسع في القياس على ما مر ، فذكر الشام وقرأها كما ذكر غير الشام أيضاً . وليس لتعيين البلد أو المكان في ذلك البلد « خصوصية » تتعلق به ما دام كل اسم إنما هو كناية عن مدرك من مدارك العاطفة الدينية . وعندني أن الشاعر العباسي المتأخر قد مال إلى ذكر أسماء الأماكن في أشعاره تقليداً لشعراء الجاهلية الذين كانوا يقفون على الأطلال ، كقول أمرئ القيس :

فَقَابِكْ مِنْ ذَكْرِ حَبِيبٍ وَمِنْزِلٍ بِسْقُطِ اللَّوِي بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٌ
 إن « سقط اللوي » (مُنْحَنِي الرمل) و « الدخول » و « حومل »
 أماكن ذكرها الجاهلي في شعره - بأسباب كثيرة - وكانت تلك
 الأماكن مشاهد جاهلية أو وثنية ، فنقل الشاعر العباسي المتأخر
 أسماء الأماكن من الجاهلية إلى الإسلام ومن الوثنية إلى التوحيد .
 ومن ذلك مثلاً قول السري الرفاء :

حُيَيْتَ مِنْ طَلَلِ أَجَابَ دُثُورُهُ يَوْمَ الْعَقِيقَ سُؤَالَ دَمَعِ سَائِلٍ^(١)

(١) الطلل : مكان الخيمة المهجورة ، بقايا البناء . الدثور : الامحاء . في « سائل » تورية : اسم فاعل من سال يسئل ومن سأل يسأل . - ظهر الحزن عليه كما ظهر =

نَحْفِي وَنَنْزِلُ ، وَهُوَ أَعْظَمُ حُرْمَةً
مِنْ أَنْ يُزَارَ بِرَاكِبٍ أَوْ نَاعِلُ^(١) .
مَا كَانَ أَعْذَبَ مُجْتَنِاهُ ، وَأَهْلُهُ
بَيْنَ الْعَذِيبِ وَبَيْنَ بُرْقَةَ عَاقِلٍ^(٢) .

وَكَذَلِكَ قَالَ مِهِيَارُ الدِّيلِمِيُّ :
سَافِرَاتٌ بِمَنِي لَوْلَا التُّقَى خَمَرَتْهُنَّ شِفَاهُ بِالْقَبْلِ^(٣) .

وَلِلشَّرِيفِ الرَّضِيِّ :
شَدَّ مَا هِبَجْتَ الْجَوَى وَالْبَرَحَا^(٤) ،
يَا نَسِيمَ الصُّبْحِ مِنْ كَاظِمَةِ ،

السلاح في أعضاء المعجبوب

لَمْ يَبْقَ الْغَزَلُ وَالنَّسِيبُ هادئَيْنِ ، بل أَصْبَحَ الْمُتَغَرِّلُ يُرَى
السَّلَاحُ وَالْمَرَضُ وَالْمَوْتُ فِي أَعْصَاءِ مَحْبُوبِهِ مَخْبُوءَةً تَنْتَظِرُ فُرْصَةً
لِلْفَتْكِ بِهِ . تِلْكَ ظَاهِرَةً تَبْدُو غَرَبِيَّةً جَدًا ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَغْرَقَ فِيهَا
نَفْرُ مِنَ الشُّعَرَاءِ إِغْرَاكًا شَدِيدًا (ولكن اقتصرتْ مِنْذَ العَصْرِ الْجَاهِلِيِّ
إِلَى مَبْدَأِ الدُّورِ الثَّانِي مِنَ الْعَصْرِ الْعَبَاسِيِّ عَلَى السَّهَامِ فِي
الْعَيُونِ) .

غَيْرَ أَنَا إِذَا رَجَعْنَا إِلَى الشِّعْرِ الْقَدِيمِ ، فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَثُلاً ،

= على الواقف به (؟) .

(١) نَحْفِي : نَخْلُعُ نَعَالَنَا وَنَنْزِلُ إِلَيْهِ (عَنْ مَطَابِيَاتِهِ) حَفَةً ، إِذَا لَا يَجُوزُ (لِحَرْمَتِهِ عَنْدَنَا) أَنْ
نَسِيرَ فِيهِ بِنَعَالَنَا أَوْ وَنْحَنَ عَلَى الإِبْلِ وَالْخَيْلِ .

(٢) الْمُجْتَنِي : الْمَثْرُ (تَقْبِيلَهُ؟) . الْعَذِيبُ وَبِرْقَةُ عَاقِلٍ مَكَانَانِ .

(٣) سَافِرَاتٌ : كَاشِفَاتٌ عَنْ وَجْهِهِنَّ . مِنْ تَقْعِ شَرْقَ مَكَّةَ ، وَهِيَ مِنْ مَنَاسِكِ الْحَجَّ .
خَمَرَتْهُنَّ : غَطَّتْ وَجْهَهُنَّ شِفَاهُ الْمُحَبِّينَ عَنْدَ تَقْبِيلِهِنَّ .

(٤) شَدَّ : مَا أَشَدَّ . الْجَوَى : عَذَابُ الْحَبَّ . الْبَرَحُ (بِفتحِ فَسْكُونِ) : الشَّدَّةُ ،
الْعَذَابُ ، وَحَرَّكَهَا الشَّاعِرُ لِلضَّرُورةِ .

وَجَدْنَا فِيهِ طَرَفًا مِنْ ذَلِكَ . وَأَشْهَرُ مَا يُمْكِنَ أَنْ يُشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُ أَمْرِيَءِ
القِيسِ ، يُخَاطِبُ عُنْيَزَةً :

أَغْرَكَكِ مِنِي أَنَّ حُبَّكِ قاتِلِي
وَأَنِكَ مَهْمَا تُأْمِرِي الْقَلْبُ يَفْعُلُ .
وَمَا ذَرْفْتُ عَيْنَاكِ إِلَّا لِتَضْرِبِي
بِسَهْمِيْكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُقْتَلٍ^(١) .

وَقَالَ الْمَرَارُ بْنُ مُنْقِذِ الْعَدَوِيَّ :

ثَرَكْتُنِي لَسْتُ بِالْحَيِّ وَلَا
يَسْأَلُ النَّاسُ : أَحْمَى دَاؤِهِ
وَهِيَ دَائِي ، وَشِفَائِي عِنْدَهَا
مَيْتُ لَاقِي وَفَاءَ فَقْبِرُ .
أَمْ بِهِ كَانَ سُلَالُ مُسْتَسِرُ^(٢) ؟
مَنْعَتْهُ فَهُوَ مَلْوِيُّ عَسِرُ^(٣) .

وَقَالَ إِبْرِيزُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ :

لِيَالِي لَا تَطِيشُ لَهَا سِهَامٌ وَلَا تَرْنُو لِأَسْهُمِ مَنْ رَمَاهَا^(٤) .
وَقَبْلَ أَنْ يُوَغَّلَ الْعَصْرُ الْعَبَاسِيُّ كَثُرَ فِيَهُ الْكَلَامُ عَلَى أَنْوَاعِ
السِّلَاحِ فِي أَعْصَاءِ الْمَحْبُوبِ ، فَقَدْ رأَيْنَا أَبَا تَمَّامٍ يَقُولُ : « أَغْمِدْ
عَنِ الْمُهَاجِاتِ^(٥) سِيفَ النَّاظِرِ » أَوْ يَقُولُ : « فِي طَرْفِهِ سِيفُ
حُسَامٍ » . ثُمَّ يَقُولُ الْبُحْرَنِيُّ :

وَبِحَقِّ إِنَّ السِّيَوَفَ لَتَنْبُو تَارَةً ، وَالْعَيْوَنُ بِاللَّهْظَةِ تُدْمِي^(٦) .

(١) ذَرْفَتْ عَيْنَاكِ (بِكِيتْ) . مُذَلَّلٌ . ضربت بسهميك في أعشـار قلبـي : جـرحت قـلبـي كـله بـسـهام عـينـيك أو سـلـبت قـلبـي كـله (استـعـارة من لـعـبـ المـسـيرـ ...) .

(٢) السـلالـ : مـرض السـلـ . مـسـتـسـرـ : خـفـيـ .

(٣) مـلـويـ : (دينـ) مـمـطـولـ (تـعدـنيـ وـلاـ نـفـيـ بـوـعـدـهاـ ليـ) .

(٤) هيـ تـصـبـ بـسـهـامـ حـبـهـاـ مـنـ تـرـيدـ ثـمـ لـاـ تـابـهـ بـأـسـهـامـ الـحـبـ مـنـ أـحـدـ (لـاـ تـأـثـرـ بـأـحـدـ) .

(٥) الـمـهـجـةـ : دـمـ الـقـلـبـ ، الـقـلـبـ ، الـحـيـاةـ .

وكذلك قال ابن الرومي :
 يَعْدُو فَتَكُثُرُ بِاللَّحَاظِ جِرَاحُنَا فِي وَجْهِنَّمِهِ، وَفِي الْفَوَادِ جِرَاحُهِ^(١).
 ويبدو أن التعبير عن ذلك يظل عاماً مدةً طويلةً ، فقد قال
 المتنبي (في الطور الأول من حياته) :
 رَامِيَاتِ بِأَسْهُمِ رِيشُهَا الْهُدُ بُ تُشَقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ^(٢).

ويقول مهيار الدينمي :
 فَهَلْ ظَنَّ مَا قَدْ حَرَمَ اللَّهُ مِنْ دَمِي
 مُبَاحًا لَهُ، أَوْ نَامْ قَوْمِي عَنِ الْوَتَرِ؟
 خَلِيلِي هَلْ مِنْ وَقْفَةٍ وَالْتَفَاتَةٍ
 إِلَى الْقُبَّةِ السُّودَاءِ مِنْ جَانِبِ الْحِجْرِ؟^(٣)
 وَهُلْ مِنْ أَرَانَا الْحَجَّ بِالْحَيْفِ عَائِدُ
 إِلَى مِثْلِهَا أَمْ عَدَهَا حِجَّةَ الْعُمُرِ؟^(٤)
 فَلَلَّهِ مَا أَوْفَى الشَّلَاثَ عَلَى مِنْيَ
 لِأَهْلِ الْهُوَى لَوْ لَمْ تَحْنَ لِيَلَةَ النَّفَرِ؟^(٥)

(١) السيف التي هي من حديد لا تقطع ما يضرب بها في بعض الأحيان . أما عيونهن فتجرح دائماً وتدمي أيضاً (تؤلم) .

(٢) نَظَرْنَا إِلَيْهِ يَدِيمِي خَدُودَهُ (تحرّمَ خدوده من الخجل) أَمَّا عيونه فتجرح قلوبنا .

(٣) القبة : الخيمة من جلد (وتكون للأمراء). الحجر : اسم لأماكن كثيرة ، ثم مكان قرب الكعبة من جهة الشمال (ضدَّ الجنوب) ، ولكنَّ في تعينه خلافاً .

(٤) أَتَرَانَا نَرَاهُ مَرَّةً ثَانِيَةً أَمْ أَنْ حَجَّتْنَا تِلْكَ كَانَتْ حِجَّةَ الْعُمُرِ (مرَّةً واحدةً في الحياة) .

(٥) ما أكثر المبيت ثلاثة ليالٍ في مني (مع المحبوب) للمحب ، لم تقترب ليلة النفر (تفرق الحجاج) - الصورة غير واضحة ، لأنَّ النفر هو النزول من عرفة . والمبيت في مني يكون بعد النزول من عرفة .

وقال ابن نباتة السعدي :

على افتقاري أن تغنى مَعانيها^(١).

ونظرة يُدْرِكُ الجُولانَ رائتها ،

تُمِيتُ عَلَّةَ نفسٍ أو تُداوِيهَا.

أشتاقُ غُوطةً دارياً وَيُعْجِبُنِي

لهفي على شَرْبةٍ من ماء جُوسيةٍ

ونفعَةٍ من رُبى لِبنَانَ خالصَةٍ

إلا أن الذي بدأ بالتلغرل في الأماكن المقدسة والنسيب بها
كان الشريف الرضي ؛ ونسج كل من جاء بعده على منواله، ومنهم
ابن سِنان الْخَفَاجِي، قال :

أنها تُضْمِرُ حُزْنًا مِثْلَ حُزْنِي؟

أيُّها العادي بها ، إن لم تُجْبِنِي.

يسْمَحُ الْدَهْرُ بها من بَعْدِ ضَنَّ

أرْضِينَا بِشُنَيْاتِ اللَّوْيِ

أَتُظْنُ الْوُرْقَ، فِي الْأَيْكِ تُغْنِي

لَا أَرَاكَ اللَّهُ نَجْدًا بَعْدَهَا

يَا زَمَانَ الْخَيْفِ، هَلْ مِنْ عَوْدَةٍ

عَنْ زَرْوَدِ؟ يَا لَهَا مِنْ صَفْقَةِ غُبْنِ!

وقد كَثُرَ ذِكْرُ الأماكن المقدسة عند الكثرة من شعراء هذا
الدور . أما المرأة التي اتَّخذَها هؤلاء الشعراء المثلَ الأعلى ، وَكَثُرَوا
بها عن تلك الأماكن ، فَهِيَ العاشرة (ليلي) حبيبة قيس بن الملوح
(مجنوبي ليلي) . إن ليلي هذه قد أصبحت المثلَ الأعلى للجمال
(المادي والروحي) والهدف الأسمى لِبَثِ الشَّوْقِ . فللشريف
الرَّضِي : « أَلمَ خَيَالُ العاشرة بعد ما » وللتهامي :

اسفح بنجد ماء عينك إنما للعاشرة كُلُّ نجد دارُ.

(١) أن تغنى (يكثُر سُكَانُها وتزدهر) المعنى : المكان العاشر بالسكنى . غوطة داريا شرق دمشق .

(٢) الورقاء : الحمامات . . الأيك : مكان فيه شجر كثيف . لبست الحمامات التي تهدل
(فتح فسكون فكسر : تصوت) حزينة مثلي (لأن صوت الحمامات يشبه البكاء
أحيانا) .

ولمهيارِ الديلمي : وفي الرَّكِب سمراءٌ من عامرٍ ». وقال صرَّدرُ :

وما ذاك إلا أنَّ غزلَانَ عامرٍ يُقْنَ بِأَنَّ الزائرينَ صُقورَهَا
ولابن حيوس « وأذكر بيساءً من عامر ، وكم من بني عامر في
اليمن » وللأرجاني « واهًا لعصر العامري بالحجمي » وأمثال ذلك .
ولم يبحَلِ الطُّغَرَائِي على العامري » « مجنون ليلي » فقال :

ويا أيها الغادي تَحَمَّلْ رسَالَةً
على ما بها ، إنَّ الْحَدِيثَ طَوِيلٌ.
وقل للأولى : حُلوا الحجمي . سُقِيَ الحجمي !
عزاءً لكم . فالعامري قتيل .

هذا كله يُذُلنا دلالةً صريحةً على أن اتجاه الغزل أصبح دينياً
عذرِياً ، ومهد السبيل للشعر الصوفي . ويجب ألا ننسى أننا رأينا
إشارة إلى هذا من قبل ، وخصوصاً في شعر البُخْتري ، ولكنها لم
تشعَّ وتُصبِّحْ ميزةً ظاهرةً إلا في أيامِ الشريف الرضي وما بعدها .
وكثُرَ قولُ المتنبي في العيون والجفون - ويبدو أنَّ الأمرَ ظلَّ
قاصرًا على ذلك مُدَّةً - فمن قول المتنبي أيضاً :

إنَّ التي سَفَكَتْ دَمِي بِجُفُونِها لم تَدْرِ أَنَّ دَمِي الَّذِي تَقْلَدَ⁽¹⁾
أمَّا التفصيل فبدأ في طورٍ متأخِّر ، حينما بدأ الشاعر يكثر من
استعمال الألفاظ الدالة على السلاح ثم يخص كل عضو من أعضاء

(1) ... لم تعلم أن أحمرار خودوها من دمي الذي سفكته بسهام عيونها .

المحبوب بآلة قاتلة أو جارحة . لقد قال الغزي :

صُدْغُه نَابِلٌ وَحَاجِبُه قَوْ

سُّ وَالْحَاظِه نِصَالُ الْبَيْلِ^(١) .

حَسْنٌ ، وَهُوَ آلٌ لِلقتال؟

كِيفَ يَحْظِي بِالسِّلْمِ مِنْ كُلَّ شَيْءٍ

أَمَا صَرَدْرُ فَقَالَ :

إِنْسَانُهَا الطَّمَاحُ فِيهَا يَكْلِمُ^(٢)

مَا كَانَ يَجْرِي فِي مَاقِيْهَا الدَّمُ^(٣)

تُضْلِى وَلَا أَنَّ الْوَاحِظَ أَسْهُمُ^(٤)

فِي كُلِّ يَوْمٍ لِلْعَيْنِ وَقَائِعٌ

لَوْلَمْ يَكُنْ جَرْحِي غَدَاء لِقَائِهِمْ،

لَمْ أَدْرِ أَنَّ الْحَبَّ حَوْمَةً مَأْزِقِ

وَلِلتَّهَامِيَ :

فَهِيَ الْأَسْنَةُ فِي الْعَسَالَةِ الْذُبْلِ^(٥)

تُرْدُهُ عَنْكَ إِلَّا أَسْهُمُ الْمُقْلِ^(٦) .

إِيَّاكَ إِيَّاكَ تَطْرِيقًا بِأَعْيُنِهَا

لِكُلِّ سَهْمٍ يُعْدَ النَّاسُ سَابِغَةً

وَلِلتَّهَامِيَ أَيْضًا :

وَهَرَزْنَ مِنْ تِلْكَ الْقُدُودِ رِمَاحًا.

وقْتٌ يَكُونُ الْحَسْنُ فِيهِ سِلَاحًا.

أَبْرَزْنَ مِنْ تِلْكَ الْعَيْنِ أَسْنَةً

يَا حَبْذا ذَاكَ السَّلَاحُ وَجَبَدَا

(١) الصدغ : جانب الوجه الأعلى . نابل : (مقاتل) يرمي البال (السهام) . السهم

يكون عادة من خشب . أمّا نصلة (رأسه) فقط فيكون من حديد .

(٢) يكلم : يجرح .

(٣) لو لم يحرجن قلوب العشاق ، لما كانت أطراف عيونهن حمرا .

(٤) الحومة : الموضع الذي يستند فيه القتال . المازق : الضيق ، الشديد . صَلَيَ فلان

بالنار : تعرض لها فأحرقه .

(٥) تطريقا - كذا في الأصل (وليس في القاموس معين يوافق قصد الشاعر) . الملموح

أن الشاعر يقصد « إدامه النظر ». السنان (الحديدة في رأس الرمح) العسال

(الرمح الصلب اللدن (الذي يتحني) الذابل (الرفيق) .

(٦) السابغة : الدرع .

وله أيضاً «رأيَتْ سِيفاً غيرَ لَحْظِكَ صارماً؟» .
 وللأرجاني «سَلَّنَ سُيوفاً من جفونٍ . . .» .
 وأمثاله كثيرٌ في شعرِ كُلّ شاعِرٍ بعدَ المتنبيِ .

المبالغة

بنيَّ كثيُّرٌ من شعر هذا الدور على الجَلْبة اللفظية فبالغُ
 شعراوِه في التشبيه . فبدلاً من قولِ البحترى « . . . وجَنَاتٍ
 يُتَبَسِّبُنَ إلى الورَد» ، رأينا الطُّغْرائِي يقولُ : «إن السِّيوفَ مثلَ
 الخدوَدَ والرِّماحَ مثلَ القدُود» . ونحن نذَكُّرُ أنَّ أباً نواسَ كان قد
 قالَ : «ربَّ ليلٍ كأنَّه فَرعٌ ليليٌ» . ولكن المبالغة لم تصبح ميزةً إلَّا
 في عصرٍ متأخرٍ . لقد بكى أبو تمام وبكى المتنبي وبكى أبو نواسَ
 أيضاً . ولكن هل بَكَوا بمثلِ هذا؟

قال الأرجاني :

أَتَرَعْتُ في حُجْرِي غَدِيرًا للبَكَا فَعَسَى يَلُوحُ خَيَالُهَا في مَاءِ^(١) .
 وَلِسِبْطِ بنِ التَّعَاوِيذِي :

وَنَجْلَاءُ كَالسِيفِ الْحَاظِهَا إِذَا نَظَرْتُ، بَلْ مِنَ السِيفِ أَمْضَى.

وَلِعِمَارَةِ الْيَمِنِيِّ :

ظَبَّيُّ أَعَارَ اللَّيلَ طَرَّةَ شِعْرِهِ وَأَمَدَّ ضَوْءَ الصَّبْعِ بِالإِشْرَاقِ^(٢) .

(١) ملأت حضني بدموعي (من كثرة بكائي) ، لعلَّ خيالك يتافق له أن يتراءى في تلك الدموع فأراه أنا .

(٢) الطَّرَّةُ من الشِّعرِ في مقدم الرأس - سواد الليل من شعره ، وبياض الصَّبْعِ من وجهه .

واختتم الاستشهاد بهذا البيت لابن نباتة السعدي :
 إذا تفَكَّرت فيه عند رؤيته
 صَدَقَت قول الْحُلُولِينَ في الصُّورِ^(١)
 ولهم أمثال ذلك في النحو والضعف والحب .

الاستكانة

المحب في هذا الدور المتأخر مستكين استكانةً لا شرف فيها . لقد رأينا المحب الجاهلي جريئاً مجاهاً ، والمحب الأموي جريئاً مغامراً ، والمحب العباسي جريئاً فاتكاً . أما المحب في هذا الدور فجبان مستكين ووهاك ما قاله ابن نباتة السعدي :

وبدرِ تمامِ بَتَ الْثِمْ رَجْلَهُ
 وَأَكْبِرَهُ عنْ أَنْ أَقْبَلَ خَدَّهُ .
 تعشقتُ فيه كلَّ شيء يحبه
 من الجُوْر حتى صرت أعشقُ صدّه^(٢)

أما مهيار الديلمي فقال :
 ناهضتُ جَبَكَ ، والنحوُ يخوّنني ،
 وكتمت سِرَّكَ والدموعُ تشي بي^(٣) .
 وحملتُ حتى قِبَلَ مات إِياؤه ،
 وجَرَّعْتُ حتى قيلَ غيرُ ليِّبِ^(٤) .

(١) الحلوّيون هم الذين يعتقدون أن الله يحل في البشر . . . (لم تتضح لي الصورة الشعرية) .

(٢) الجُوْر : الظلم .

(٣) ناهض فلان فلانا : قاومه .

(٤) حملت : تحملت ، صبرت .

ولابن الخطاط :

عَنَانِي الغرَامُ بحَبِّ السَّقَا م شوقاً إلى ذلك العائد^(١).
وقد كنتَ جَلْدًا أَبِي القيَا د لو أن غَيرَ الهوى قَائِدِي.
ففي هذا دلالة على ما نرمي إليه .

التغزل بالعرب

كان شعراء الدور الأول من العهد العباسي قد انصرفوا عن التغزل بالعرب إلى التغزل بالروم والفرس . ويظهر أن هذا كان له رد فعل ، فرجأ الشاعر إلى التغزل بالعرب والبدويات أيضا . وعلى ذلك قول المتنبي « هام الفؤاد بأعرابية » ، أو قوله :

كَمْ زُورَةٌ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةٌ
أَدْهَى ، وَقَدْ رَقَدُوا ، مِنْ زُورَةِ الْذِيْب
مَا أَوْجَهَ الْحَضَرِ الْمُسْتَحْسَنَاتِ بِهِ
كَأَوْجَهِ الْبَدَوَيَاتِ الرَّعَابِيبِ :
حُسْنُ الْحُضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ ،
وَفِي الْبَدَاوِةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ^(٢) .

وَيَرِينَا مَهِيَارُ الدِّيلِمِيِّ شَيْئاً كَثِيرًا ، مِنْهُ :
بَا أَخْتَ فَهْرٍ وَالْمُحَبَّةُ بَيْتَنَا
نَسْبٌ ، وَإِنْ نَادَاكَ غَيْرُ نَسِيبٍ.

(١) الغرام (الحب) عناني (جعلني شديد الشوق ؟) إلى السقام (المرض) تشوقا إلى أن يعودني (يزورني في مرضي) محظوظي .

(٢) حسن الحضارة (في المدن) . النظرية : معالجة الوجه والعيون الخ باستخدام المساحيق كالأبيض والأحمر والكحل الخ .

لولاكِ لم أئِمُّ الخلابَ ولا صَبَيْتُ
نفسي لأَحْلَامِ الْكَرَى المَكْذُوبُ^(١).

ومآل الشعراً ، في هذا الدور (وفي شعرِهم ، على الأقلّ) ، إلى حُبِّ العربِياتِ ، والبدُوياتِ مِنْهُنَّ خاصَّةً ، فقال مهيارُ الديلمي : « يا ابنةَ الجَمْرَةِ من ذي يَزِينٍ »^(٢) ، كما قال أيضًا :

لولاك ، والأيَّامُ دَوَالَةٌ ، ما استعبدَ الفُرسَ الأَعْارِبُ^(٣) .

ثمَّ إذا نحن التفتنا إلى النسِيبِ رأيناه أيضًا مملوءاً باللوانِ البدية من جِمالٍ وقبَابٍ وهَوَادِجَ^(٤) ثمَّ بصفاتِ العربِ في الحِجَازِ ونَجَدٍ ، مما يُدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ شعراً هذا الدور قد أُعْجِبوا (أصالةً أو تقليداً) بالجمالِ العربيِّ على ما كان في الجاهليَّةِ وفي العصرِ الأمويِّ .

خلاصة ما تقدَّمُ :

يبدو لنا مما تقدَّمَ أنَّ الشعراً في الدور الثاني من العصرِ العباسيِّ (وما بعدهُ قليلاً) لم يختلفُ في اتجاهِهِ العامَّ عما سبَقَهُ ،

(١) شام : تطلع إلى الأشياء . الخلاب (الأشياء التي لا حقيقة لها) . صبا : اشتاق . الكري : النوم . (ما كنت علت نفسِي بأنَّ أراكِ في نومي - وهذا شيء باطل) .

(٢) الجمرة : النار المتنَقَّدة (القبيلة القوية التي لا تنضم إلى أحد ، ثقة بقوتها ، أو الجماعة من ألفِ رجل ، الخ) . ذوي زن : من ملوك اليمن .

(٣) الدَّوَالَةُ (ليست في القاموس : مرَّة لهؤلاء ومرَّة لأولئك) . (بالضم : مرَّة لهؤلاء ومرَّة لأولئك) . الأَعْارِبُ جمع الأَعْرَابِ (البدو) .

(٤) القبة : الخيمة الكبيرة من جلد . الهودج بيت النساء المروفع على الإبل .

بل ظلًّ هو إياه ، لولا تلك القوالب اللُّغوية الجديدةُ التي سُبِّكَ فيها . فمن تلك القوالب ما حَسَنَ المعانِي السابقةَ ، ومن تلك القوالب ما أَسْفَ^(١) بالمعانِي السابقة . ثُمَّ فَشَّتَ^(٢) المُبالغات وكُثُرَتِ التشابيَّةُ البعيدةُ عن المَأْلُوفِ والنافرةُ من الأسلوب المعقول . من هذه الوجهةِ فقط كان هذا العصرُ في الغَزَلِ - وفي بقية أبوابِ الشعر أيضًا - عصرَ تقليدِ .

ثُمَّ يتَضَعُ لنا أنَّ الفتَكَ (الجُرَأَةَ على الغزل الصريح ، قولًا وعَمَلًا) والمَجانَةَ^(٣) أيضًا قد أَحْدَثَا رِدَّةً في نفوسِ الشعراَءِ العَبَاسِيَّينِ المُتأخِّرينَ إلى الغزلِ العَفِيفِ يُسِّجُونَهُ على مِنْوَالِ الشعراَءِ الْعُدُّرِيَّينَ في عصْرِ بني أمِيَّةَ في تعاييرِ عصْرِ بني العَبَاسِ . بعد ذلك راحوا يَكْنُونَ عن عواطفِ النَّسِيبِ في نفوسِهم بأسماءِ الأماكنِ المُقدَّسَةِ في الحِجَازِ خاصَّةً ، مما شَفَّ عن رَجْعةِ دِينِيَّةِ في نفوسِ هؤُلَاءِ فَارُونَا في شعرِهم المِثالِيِّ جانِيًّا من خَصائصِ الشِّعْرِ الصُّوفِيِّ .

وهنالك تشبيهُ أعضاءِ المحبوب بأنواعِ السلاحِ . ولقد كانوا قد سُبِّقوا إلى ذلك - منذُ أيامِ الجاهليَّةِ - ولكن بما يتعلَّقُ بالعيون فقط . فتوسَّعَ شعراَءُ العصْرِ العَبَاسِيِّ في ذلك توسُّعًا شديداً . ومع هذا كُلَّهِ فقد ظلَّ في شعرِهم كثِيرٌ من المُرْقِصِ والمُطْرِبِ .
ويُلَاحِظُ القارئُ أنَّني لَمَسْتُ الشِّعْرَ الصُّوفِيَّ لمساً خفيفاً ، في

(١) أَسْفَ : تدَنَّى ، انحطَّ .

(٢) فَشَّا : انتشرَ .

(٣) المَجانَةَ : قَلَّةُ الْحَيَاةِ .

جانبٌ ضيقٌ منه ، لأنَّ التوسيعَ في الشعر الصوفي ينْقلُنِي إلى جوانبَ من الغزل والنسيب لم تكن مقصودةً في بحثي السابق .

الغزل بما هو غزل :

حينما ندرُسُ الغَزَلَ في الأدب العربي ، أو في غير الأدب العربي ، فإننا نعني بالصفات التي أحبَها الرجل في المرأة . هذه الصِفاتُ لم تختلفْ (في نَظَرِ الرجل) ، على مَرَّ الزَّمن ، اختلافاً كبيراً . إنَّ التعبيرَ عن هذه الصِفاتِ كان يختلفُ (على لسانِ الرجل) بين عَصْرٍ وآخَرَ ، لأنَّ الإِنْسَانَ عادَةً يُعبِّرُ عن أفكاره وآرائه بتعابيرٍ يألفُها المُعاصرُونَ له .

والكلامُ في المرأة - كالكلامِ في كُلِّ موضوعٍ آخرَ - بحرٌ لا ساحلَ له . ولقد كنتُ أخذتُ نفسيَ باستعراضِ مظاهِرِ الجمالِ الماديِ في المرأة في الشعر العربي ومررتُ في هذا الاستعراضِ من الجاهلية إلى القرنِ السابعِ للهجرة (من القرن السادس إلى القرن الثالث عشرَ للميلاد) : ولم يكن من المفاجيء لي (كما أرى الآن ، بعدَ خمسينَ سنةً) أنَّ الشاعرَ الإِنسانَ كان ينظرُ إلى المرأة من خِلالِ نفسِه (من خلال حاجته إلى المرأة) . وحُججتي اليومَ أنَّ الشاعرَ الجاهليَ والشاعرَ الْأَمْوَيَ والشاعرَ العَبَاسيَ - وبكلمةٍ ثانيةً : الرجلُ في هذه الأعْصُرِ الثلاثةِ - لم يُحبَّ المرأة لأنَّها امرأةٌ فحسبُ ، بل أحبَّ صِفاتٍ مُعينَةً حَرَصَ على أن يراها في المرأة ، كما يُحبُّ الرجلُ خصائصَ مُعينَةً يُريدُ أن تجتمعَ في البيتِ الذي يَبنِيه (أو يسكنُه) وفي الثوبِ الذي يلبِسُه (أو يشتريه ثم لا يلبِسُه) وفي الطعامِ الذي يأكلُه (أو يَضَعُه على مائده) . أو كما

يُفضل قِطعة العملة الجديدة اللامعة الواضحة على غيرها ، حينما يُريد أن يَقْبِضُها أو يَخْزِنُها أو يُنْفَقُها ، على قِطعةٍ من فِئتها أَقْلَ جِدَّاً ولَمَعاناً وَوُضُوهاً ، مَعَ أَنَّ قِيمَةَ الْقِطْعَتَيْنِ فِي جَيْهِهِ أَوْ فِي صُندوقِهِ أَوْ فِي السُّوقِ وَاحِدَةً .

إنَّ الإِنْسَانَ العادِيَ - من أَجْلِ ذَلِكِ - يُحِبُّ مَا يَتَرَاءَى فِي خِيَالِهِ وَلَا يُحِبُّ فِي الْعَادَةِ ، مَا يُبَصِّرُهُ بَعْيَنِهِ وَلَا مَا يُدْرِكُهُ بَعْقِلِهِ . ولو كان للجمالِ ، مَثَلًا ، عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ ، معيارٌ وَاحِدٌ (في خِيَالِ جَمِيعِ النَّاسِ) لَتَعْشَقَ جَمِيعُ الرِّجَالِ امْرَأَةً وَاحِدَةً ، وَلَتَعْشَقَتْ جَمِيعُ النَّسَاءِ رَجُلًا وَاحِدًا . ولَكِنَّ الَّذِي نَرَاهُ فِي الْوَاقِعِ أَنَّ رَجُلًا يَجْمَعُ عَدْدًا كَبِيرًا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ فِي الرِّجَالِ يَتَزَوَّجُ امْرَأَةً (أَوْ يَعْشَقُ امْرَأَةً) لَيْسَ فِيهَا مِنْ صِفَاتِ الْجَمَالِ شَيْءٌ يُقْرَرُ بِهِ الْآخَرُونَ (لَأَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ قَدْ رَأَى بِعَيْنِيهِ هُوَ أَوْ بِخِيَالِهِ هُوَ أَشْيَاءَ فِي هَذِهِ الْمَرْأَةِ رَبَطَتْهُ بِهَا رَبْطًا مُحْكَمًا) . وإنَّ أَحَدَنَا لَيَعْجِبُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ أَدْوَرَدَ الثَّامِنَ مَلِكَ إِنْكِلَتِرَةَ قدْ فَضَلَ أَنْ يَتَرُكَ عَرْشَ بَرِيْطَانِيَّةَ الْعَظِيمِ بِمَا يَتَبَعُ بَرِيْطَانِيَّةَ الْعَظِيمِ مِنْ إِمْپَراَتُورِيَّةٍ وَاسِعَةٍ فِي أَنْحَاءِ الْعَالَمِ عَلَى أَنْ يَتَرُكَ امْرَأَةً كَانَ قَدْ أَحَبَّهَا (هيَ بَسَّيِّ سِمْبِسُونَ) - وَكَانَ رَجُلَانِ مِنْ قَبْلِهِ قدْ تَزَوَّجاَهَا ثُمَّ طَلَّقاَهَا .

وَمَعَ هَذَا كُلَّهُ فَإِنِّي جَامِعُ لَكَ - فِيمَا يَلِي - تَلْكَ الصِّفَاتِ التِّي أَحَبَّهَا الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ فِي الْمَرْأَةِ . غَيْرَ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ صَادِقًا مُخْلِصًا فِيمَا أَقُولُ . إِنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ التَّالِيَّةِ هِيَ التِّي أَعْلَانَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ أَنَّهُ يُحِبُّهَا فِي الْمَرْأَةِ . ولَكِنْ كَمْ كَانَ الشَّاعِرُ الْجَاهِلِيُّ يُصْرِّ

على أستيفاء تلك الصفات في المرأة التي كان يُتاح لها أن يجتمع بها ؟

إن الإنسان الجاهلي قد أحب في المرأة تلك الصفات التي لا تزال محبوبة في كل زمان ومكان إلى يومنا هذا ، مع اختلاف يسير فيما يتعلق بضخامة المرأة ، وإن كان نظر الرجل قد اختلف ، بالإضافة إلى ضخامة جسم المرأة - بالمقدار فقط . إن هنري الثامن ملك إنكلترة لما جاء إليه بالمرأة التي يحب عليه أن يتزوجها ، بحسب القوانين المتعلقة بالعرش الإنجليزي وبمصالح المملكة الإنجليزية (ولم يكن هو الذي اختارها) ، لم يزد على أن قال : تلك بقرة هولندية .

وإليك ، الآن ، الصفات التالية :

يحسن أن تكون المرأة أقرب إلى الطول - منها إلى القصر (على أن تكون دائمًا أقصر من الرجل) ثم تكون مماثلة الجسم (مفصلة الأعضاء مجذولة العضلات غير مسترخية) مرتفعة الصدر دقيقة الخصر عظيمة الكفلين (وتلك صورة كانت قريبة جدًا إلى ما أحبه رجال القرن التاسع عشر عندنا وفي أوروبه أيضًا) . أمّا الغريب في ضخامة المرأة (في العصر الجاهلي وفي العصر الاموي أيضًا فهـي أن تكون من السمنة بحيث تعجز عن أن تقوم من قعودها وحدها) .

ومع أن السمرة كانت لون العرب ، فقد أحب الشاعر الجاهلي أن يكون الوجه أبيض مائلاً إلى الصفرة (كلون الروم : اليونان) أو إلى الحمراء (كلون الفرس) . ثم أحب الخد الأميس

المُستطيل (ولم يُحبَ الرأس المكُور) . وأحَبَ ، العُنق الطويلة . أمَّا الشَّعْرُ فَأحَبَهُ أَسْوَدَ كثِيفاً طَويلاً مَعَ سَعَةٍ في الجبين . وكذلك أَحَبَ الْحاجِبَيْنِ الرَّقِيقَيْنِ (كأنَّما خُطَا بالقلم) . وأمَّا العينان فَأَحَبَ فيهما أَنْ تكونا كَبِيرَتَيْنِ واسعتين شَدِيدَتَها بِيَاضِ الْمُقْلَتَيْنِ وشَدِيدَتَها سَوَادِ الْحَدَقَتَيْنِ وَأَنْ تكونَ الْأَهْدَابُ في الأَجْفَانِ كثِيفَةً مُتَزَاحِمَةً حَتَّى تَبَدُّلَ مَنَابِتُ تِلْكَ الْأَهْدَابِ الطَّوَالِ سُودَاءً كأنَّما كُحِلتَ بِالْإِثْمِ (الْكُحْلِ) .

وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ الْفَمُ صَغِيرًا وَشَفَتَاهُ رَقِيقَتَيْنِ سَمْرَاوَيْنِ (أو شَدِيدَتَيِ السُّمْرَةِ) ، كَمَا يَحْسُنُ أَنْ تَكُونَ اللَّثَّةُ عَجْفَاءَ (غَيْرَ مَتَضَخَّمَةَ) حَمْرَاءَ (كَالرَّمْلِ الْخَالِصِ) أَوْ مَائِلَةً أَيْضًا إِلَى السُّمْرَةِ ، مُبْتَلَةً غَيْرَ جَافَّةً وَلَا كثِيرَةَ الْبَلَلِ . وَأَحَبُّوا فِي الْأَسْنَانِ اعْتِدَالَ حَجْمِهَا وَنَقَاءَ لَوْنِهَا وَتَفَرُّقَهَا قَلِيلًا وَأَنْ تَكُونَ مُؤْشَرَةً (خَطْوَطُهَا ظَاهِرَةً) ، كَمَا تَكُونُ أَسْنَانُ الْأَطْفَالِ الصَّحِيحَةُ قَبْلَ أَنْ يَتَرَكَّمَ عَلَيْهَا مَا يَمْنَعُ رُؤْيَةَ تِلْكَ الْخَطْوَطِ) مَعَ طِيبِ رَائِحَةِ الْفَمِ عُمُومًا وَحَلَاوةِ الْرِيقِ .

وَحَسُنَ عَنْدُهُمُ الصَّدْرُ إِذَا كَانَ رَحِيبًا وَكَانَ النَّدْيَانِ فِيهِ لَا يَزَالُ نَاهِدَيْنِ مُكَوَّرِيْنِ . وَأَمَّا الْذِرَاعَانِ وَالسَّاعِدَانِ وَالسَّاقَانِ فَقَدْ أَحَبَ الْجَاهِلِيَّ فِيهَا كُلُّهَا أَنْ تَكُونَ مُمْتَلَئَةً رِيَّاً (وَنَاعِمَةً تُغْطِي الْعِظَامَ التَّابِعَةَ لَهَا) بِحِيثُ يَعْضُّ السَّوَارَانِ عَلَى الْمِعْصَمَيْنِ وَيَعْضُّ الْخَلْخَالَانِ عَلَى مَوْضِعِهِمَا مِنْ أَسْفَلِ السَّاقِ فَوْقَ الْقَدْمِ .

إِذَا نَحْنُ نَظَرْنَا إِلَى هَذِهِ الصِّفَاتِ مُتَفَرِّقةً (مَا عَدَ الْبَدَانَةَ الْمُفْرَطةَ) لَمْ نَشُكْ فِي أَنَّهَا صِفَاتٌ مُحَبَّةٌ إِلَى النَّفْسِ فِي الْأَعْصَرِ كُلُّهَا وَالْأَمَاكِنِ كُلُّهَا . وَلَكِنَّنِي لَا أَعْرِفُ إِذَا كَانَتْ كُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ

يمكُن أن تجتمع في جسمِ امرأةٍ واحدةٍ ، ولا أستطيع أن أقول - ما دام الجمال هو التناصُب بين الأعضاء ، في الشكل والوضع واللون - إنَّ مِثْلَ هذا الجسم إذا اجتمعت فيه كُلُّ هذه الصفات على ما قيل فيها يمكن أن يكون جميلاً . نحن نعلم أنه كان لليونان مقاييس لجمال الأجسام ، ولكن الموازنة بين المقاييس العربية الجاهلية والمقاييس اليونانية القديمة يحتاج إلى دراسةٍ مُستقلةٍ .

إنَّ العربيَّ الجاهليَّ قد أحبَّ الصِّفات التي كانت في المرأة المُعاصرة له في بيته ، كما يُحبُّ الرجلُ الْجِرْمَانِيُّ في بيته المرأة الجيرمانية ، وكما يُحبُّ الزنجيَّ المرأة الزنجية ، كما يحبُّ الصينيَّ المرأة الصينية . أما إذا وَجَدْنَا رجُلاً فرنسيًّا يُرْغَبُ في امرأة زنجية ، أو رجُلاً صينيًّا يَتَدَلَّهُ بامرأة دنماركية ، أو رجُلاً زنجياً تقتصرُ رغبته على امرأة صينية ، فذلك يكون في الأدوار الشاذة النادرة من حياة الفرد ، حينما يكون ذلك الفرد لا يزالَ قِلْقاً . إنَّ في الصلة بين الرجل والمرأة عاملًا نفسيًا خيالياً يُطْغى في كثيرٍ من الأحيان على العامل المادي الطبيعي . وهذا العامل النفسي متقلبٌ جدًا ثم هو مُختلفٌ بين الفرد اختلافاً كثيراً ، كما يختلفُ في الفرد الواحد نفسه بحسبِ أحواله الطارئة .

بيانات العلم في دراسة المؤرخ والفلسفة

إذا كان من غير الممكن أن تبني دراستنا في الأدب والفلسفة على أسس المنطق وقواعد العلم بناءً تاماً ، فإن من غير المعقول أن نجني هذه الأسس وقواعد في دراسة الأدب والفلسفة مجانية تامة .

إن العرب لم يألفو بعد في تاريخهم الحديث معاناة العلوم الرياضية والطبيعية . إننا لا نزال في واقعنا الحاضر أميل إلى الاتجاه الشخصي في معالجة الأمور ؛ ومن هذه الأمور أمرُنا العلمية والأدبية والفكيرية . وإذا كان اليوم في عدد من بقاع الوطن العربي نفرٌ من العلماء ومن الذاهبين في الأمور مذهب العلم، ومذهب العلم الرياضي والطبيعي ، فإن مثل هذا المذهب لم يصبح بعد ثقافة عامة لجيئنا المعاصر ولا هو الطابع الغالب على الباحثين في الموضوعات الأدبية والفلسفية .

إن هذا الإنفصال الذي نراه بين جانب العلم وجانب الأدب

(*) هذا الفصل كان قد أعد (٢ / ٥ / ١٩٦٢ م) ليكون محاضرة .

خاصةً ، في مُعَظِّمِ الكتب التي تملأ الأسواق والمكاتب ثم تُسيطر على توجيه الناشئين ، راجع إلى افتراضٍ خاطئٍ مثبتٍ هنا وهنالك هو أنَّ الإِنسان يُولَد مُتَجَهًا نحو العلم أو نحو الأدب . من أجل ذلك نَجِدُ بينَ الْمُشْتَغِلِينَ بالأدب نَفْرًا كثيرين يعتقدون أنَّ لا استعدادَ لهم للإنتاج العلمي ولا للاتجاه العلمي ، وأنَّ عقليتَهُم أدبيةٌ مقطوعةٌ الصلة بالمناهج المنطقية مرتبطةٌ بالوُجدان الخالص والذوق الشخصي . ويقتضي هؤلاء بما تجسّم في خيالهم فينطليقون يُجَيلُون وُجَادَانَهُمْ وأذواقَهُمْ في تُراثنا الفكري يختارون الروايات التي تلائم أذواقَهُمْ تلك ، ثم يُصدِّرون الأحكامَ التي تستهوي وُجَادَانَهُمْ . ويتفقُّ أن يُرْزَقَ نَفْرًا من هؤلاء أسلوبًا برَاقًا شائقاً فِيُضفي أسلوبَهُمْ هذا على تلك الأحكام ليَسأَلُوا من الصواب الظاهر .

ويعظم هذا السوء حينما يَصِلُ الناشئون إلى مرحلة التعليم العالي ويَقْفُون ، إذا قَيْضَ لَهُمْ أن يَقْفُوا ، على عَتْبةِ الجامعة . إنَّ مُعَظِّمَ هؤلاء الناشئين يختارون أن يتسبُّوا إلى الْكُلِّيَاتِ التي تعلم الموضوعات الاجتماعية من الأدب والفلسفة والاجتماع والسياسة ، لا لأنَّهم ذُوو مواهبٍ تلائمُها الموضوعات الاجتماعية ، بل هرَبًا من قُيودِ العلم ومناهجِ التنظيم الفكري من تلك التي تفرضُها الكليةُ العلمية في الهندسة والطب والكيمياء والطبيعتيات والرياضيات الخالصة .

ويَسْعَ هذا السوء أحياناً على أيدي الأساتذة أنفسِهم . حينما يتقدَّم طالبٌ إلى دخول الجامعة ثم يَجِدُ الأساتذة أن هذا الطالب ضعيفُ الاستعدادِ فإنَّهم يُنْصَحُونَهُ بأنْ يَتَحَوَّلَ عن

دراسةِ العِلْمِ والطِّبِّ والهِنْدَسَةِ إِلَى دراسَةِ الْأَدَابِ . إنَّ فِي مُثْلِ هَذِهِ النصيحةِ إِسَاعَةً إِلَى الطَّالِبِ نَفْسِهِ وَإِلَى الْعِلْمِ مَعًا . إِذَا كَانَ الطَّالِبُ ضَعِيفًاِ الْاسْتِعْدَادِ فَإِنَّهُ سَيَكُونُ طَالِبًاِ ضَعِيفًاِ أَيْنَمَا حلٌّ : فِي كُلِّيَّةِ الْهِنْدَسَةِ أَوْ فِي كُلِّيَّةِ الْأَدَابِ . وَلَنَا فِي وَاقِعِ الطُّلَابِ الَّذِينَ هُم مِنْ هَذَا الصِّنْفِ مِنَ النَّاسِ أَدْلَهُ قَاطِعَةً قَبْلَ تَخْرُجِهِمْ فِي الجَامِعَاتِ وَيَبْعَدُ أَنْ يُعْطُوا الشَّهَادَةَ . غَيْرَ أَنَّ الطَّالِبَ الَّذِي لَا يَنْجُحُ فِي الْكُلِّيَّاتِ النَّظَرِيَّةِ يُمْكِنُ أَنْ يَنْجُحَ فِي مِيَادِينِ الْحَيَاةِ الْمُخْتَلِفَةِ : فِي التَّجَارَةِ وَفِي الصِّنَاعَةِ الْيَدِوِيَّةِ وَفِي الإِشْرَافِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَفِي دَوَائِرِ الدُّولَةِ فِي عَدْدٍ مِنَ الْأَحْيَانِ . أَغْرِفُ مِنْ حَيَاتِي الْمَدْرَسِيَّةِ الْقَدِيمَةِ شَابًاً كَانَ قَدْ رَجَعَ مِنَ الْوَلَيَّاتِ الْمُتَّحِدَةِ يَحْمِلُ شَهَادَةَ الدَّكْتُورَاهُ فِي التَّرْبِيَّةِ . وَتَقْدَمُ هَذَا الشَّابُ فِي ذَلِكَ التَّارِيخِ السَّاحِقِ إِلَى جَمِيعِ الْمَقَاصِدِ الْخَيْرِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي بَيْرُوتِ فَتَعَاقَدَتْ مَعَهُ الْجَمْعِيَّةُ وَقَلْبُهَا يَطْفَئُ سَرُورًا بَأْنَهَا وَقَعَتْ عَلَى كُنْتِرٍ : عَلَى شَابٍ يَحْمِلُ شَهَادَةَ الدَّكْتُورَاهُ فِي التَّرْبِيَّةِ .

وَعُهِدَ إِلَى الأَسْتَاذِ الْجَدِيدِ أَنْ يُعَلَّمَ فِي صَفِ الْفَلْسَفَةِ . ثُمَّ رَأَى الْمَدِيرُ أَنَّهُ قَدْ تَسْرَعَ قَلِيلًا ، فَإِنَّ هَذَا الأَسْتَاذَ لَيْسَ لَهُ اخْتِبَارٌ كَثِيرٌ فَيَحْسُنُ أَنْ يُعَهِّدَ إِلَيْهِ بِالصَّفَّ الَّذِي هُوَ دُونَ صَفَ الْفَلْسَفَةِ مُبَاشِرًا . ثُمَّ تَدْرَجَ حَضُورُ الْمَدِيرِ بِهِذَا الأَسْتَاذَ الْجَدِيدِ فِي صُفُوفِ الْمَدْرَسَةِ هُبُوطًا حَتَّى وَصَلَ بِهِ إِلَى صُفُوفِ الْحَدِيقَةِ . وَفِي آخرِ السَّنَةِ رَأَتْ جَمِيعِ الْمَقَاصِدِ أَنْ تُعَفِّيَ هَذَا الأَسْتَاذَ مِنَ التَّدْرِيسِ فِي مَعَاهِدِهَا . غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ يَمْنَعْ هَذَا الأَسْتَاذُ الْقَدِيمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْيَوْمَ مِنْ أَصْحَابِ الْأَعْمَالِ النَّاجِحِينِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ يَمْلِكُ ثَرَوَةً لَا بَأْسَ بِهَا . لَقَدْ أَصْبَعَ هَذَا الرَّجُلُ خَمْسَ سَنَوَاتٍ مِنْ حَيَاتِهِ فِي تَحْصِيلِ

شهادة الدكتوراه في التربية ثم أضاع من حياته ومن حياة الطلاب في كلية المقاصد عاماً سادساً . إن التعليم الجامعي ليس في الحقيقة حقاً لكل طالب ، ولكنَّه امتيازٌ للقادرين عليه . إن الطالب الذي لا يستطيع النجاح في العلوم لا يستطيع أن ينجح في ميادين الآداب وإن كانت الجامعات تُعطيه شهادة في عدد من الأحيان .

إن العلوم الرياضية والطبيعية تُكسي الذهن تنظيماً واقتداراً على معالجة الأمور . ونحن بحاجة إلى هذا التنظيم والاقتدار سواء علينا أكُنا ندرس الهندسة أم الطب أم الأدب أم فن الرسم . إن العقل واحد ، ولكنَّه يُوجه نشاطه مُختلفاً .

لعلَّكم بهذه المقدمة الطويلة العامة ، فأريد أن أنتقل الآن إلى أربعة أمثلة من دراسة الأدب ودراسة الفلسفة ، ما دام نفرُ كثيرون من الدارسين يُعاملون الفلسفة مُعاملة الأدب .

ومع أن الفلسفة ليست في ميزان العلم أعلى مقاماً من الأدب ولا هي في ميزان الاجتماع أدنى رتبة ، فإنَّ نطاق العلم والفلسفة من جانبِ ثمَّ نطاق الاجتماع والأدب من جانبِ آخر مُختلفان .

لنبذل بالآدب من حيث يبدأ تاريخ الآدب :

في تاريخ الآدب أن أمراً القيس تلقى نعي أبيه وهو يشرب الخمر بمكان اسمه دمون فقال : « اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ ». وهذه رواية وردت في عدد من كتب الآدب فأخذها معظم الدارسين المُحدثين وقلوها في كتبهم ومحاضراتهم . ومع أن هذه الرواية غير معقولة ، فلم يكن بإمكان أحدٍ أن يردها ، ذلك لأن تاريخ الآدب من العلوم

النَّقْلِيَةِ الَّتِي تَعْتَمِدُ الرِّوَايَةَ وَحْدَهَا أَو التَّعْلِيلَ إِذَا أَمْكَنَ ، وَلَكِنْ
بِالاستنادِ إِلَى الرِّوَايَةِ .

وَفِي عَامِ الْأَلْفِ وَتِسْعَمِائَةِ وَثَلَاثَةِ عَشَرَ صَدَرَ دِيوَانُ عَبْيَدِ بْنِ
الْأَبْرَصِ الْأَسْدِيِّ ، وَهُوَ شَاعِرٌ مُعَاصِرٌ لِأَمْرِيَءِ الْقَيْسِ وَأَسْنُّ مِنْهُ .
وَكَانَ عَبْيَدُ مِنْ زُعْمَاءِ بَنِي أَسْدٍ الَّذِينَ ثَارُوا عَلَى حَجْرٍ وَالِّدِيْ أَمْرِيَءِ
الْقَيْسِ وَقَاتَلُوهُ وَقَاتَلُوهُ . وَيَبْدُو أَنَّ امْرَأَ الْقَيْسِ وَإِخْوَةَ امْرَأِ الْقَيْسِ
كَانُوا فِي الْمَعْرِكَةِ مَعَ أَبِيهِمْ يَقَاتِلُونَ بَنِي أَسْدٍ وَيَدْافِعُونَ عَنْ مُلْكِهِمْ
فِي نَجْدٍ . وَلَقَدْ خَاطَبَ عَبْيَدُ بْنَ الْأَبْرَصِ امْرَأَ الْقَيْسِ فَقَالَ لَهُ :
وَلَقَدْ أَبْحَنَا مَا حَمِيَّتْ ، وَلَا مُبِيَحٌ لِمَا حَمِيَّنَا .
هَذَا ، وَلَوْ قَدَرْتُ عَلَيْكَ رِماْحُ قَوْمِيْ مَا انتَهَيْنَا !
ثُمَّ إِنْ عَبِيدًا عَيْرَ امْرَأَ الْقَيْسَ هَرَبَهُ مِنَ الْمَعْرِكَةِ فَقَالَ لَهُ :
وَرَكْضُكَ لَوْلَاهُ لَقِيتَ الْذِي لَقُوا ؛ فَذَاكَ الْذِي أَنْجَاكَ مِمَّا هُنَالِكَا !

فَسَقَطَتْ بِذَلِكَ الرِّوَايَةُ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِدَمَوْنَ وَوَجَبَ أَنْ تَحَلَّ
مَحِلُّهَا هَذِهِ الرِّوَايَةُ الَّتِي يَرْوِيُهَا مُعَاصِرُ لِأَمْرِيَءِ الْقَيْسِ . وَمَعَ ذَلِكَ
فَلَا يَزَالُ الدَّارِسُونَ ، بَعْدِ سَبْعِينَ عَامًا مِنْ صُدُورِ دِيوَانِ عَبْيَدِ بْنِ
الْأَبْرَصِ يَتَعَلَّقُونَ بِرِوَايَةِ دَمَوْنَ ، كَأَنَّهُمْ لَمْ يَقْرَأُوا دِيوَانَ عَبْيَدٍ قُطُّ .
وَلَعَلَّ مُعَظَّمَهُمْ لَمْ يَقْرَأُ هَذَا الْدِيْوَانَ .

وَفِي دراسَةِ حَيَاةِ طَرَفَةَ بْنِ العَبْدِ الْبَكْرِيِّ يُجَانِبُ مُعَظَّمُ
الْدَّارِسِينَ سَبِيلَ الْعِلْمِ ، فَيَذَكُّرُونَ أَنَّ عَمْرَو بْنَ هَنْدِ مَلَكَ الْحِيرَةِ
غَضَبَ عَلَى طَرَفَةَ وَعَلَى خَالِهِ الْمُتَلَمِّسِ وَكَتَبَ لَهُمَا كِتَابَيْنِ إِلَى
الْمُكَعْبَرِ عَامِلِهِ عَلَى الْبَحْرَيْنِ وَأَوْهَمَهُمَا أَنَّهُ أَمْرَ لَهُمَا فِي ذِيْنِكَ

الكتابين بجائزه يُقْضانها من المُكَبِّر . وتزعمُ الرواية أن المُتَلَمِّسَ شَكَ في الكتاب الذي يحمله ففضَّه ثم دفعه إلى صبيٍّ من صبيان العِيرة فإذا في الكتاب أمرًا للمُكَبِّر بقتل المُتَلَمِّس . فقال المُتَلَمِّسَ عند ذلك لابن أخيه طَرَفَة ؛ «ما في كتابك إلا مثلُ الذي في كتابي ». فلم يشأ طَرَفَةُ أن يصدق خاله . فمَرَّ المُتَلَمِّسُ كتابه ونجا بنفسه . ومضى طَرَفَةُ لِطِيبِه حتى وَصَلَ إلى المُكَبِّر ، فإذا في كتابه أيضًا أمرًا للمُكَبِّر بقتل طَرَفَة . وأمرَ المُكَبِّر طَرَفَةَ في الْهَرَبِ فلم يشأ طَرَفَةُ أن يَهُرُبَ وَأَثَرَ الموت على شَرِيطةِ أن يَسْقِيَه المُكَبِّرُ حَمْرًا ثم يَفْصِدُ أَكْحَلَه حتَّى يموت .

وإلى جانب هذه الرواية التي تُجَانِبُ العقلَ كُلَّ المجانبة رواية ثانية تذكر أنَّ طَرَفَةً كان صديقاً لعمرٍو بن مامَةَ أخي عمرو بن هنـد لـأبيه ، وأنَّ طَرَفَةً وعمرـو بن مامـةَ ذهـبـاً إلى الـيـمـنـ في تجـارـةـ لـلـإـبـلـ فـخـرـجـتـ عـلـيـهـماـ مـغـارـةـ قـتـلـاـ فـيـهاـ كـلـاهـماـ . ولـكـنـ مـعـظـمـ الدـارـسـينـ يـرـوـنـ ما يـجـانـبـ العـقـلـ أـحـقـ بـالـاهـتمـامـ إـمـاـ يـنـاسـبـ العـقـلـ ، لأنـ الأـدـبـ لـيـسـ منـ الـعـلـومـ التيـ تـسـتـنـدـ إـلـىـ العـقـلـ فيـ رـأـيـهـ .

وأغربُ من ذلك في شأنِ طَرَفَةِ عندهم أن طَرَفَةَ عاشَ سِتَاً وعشرينَ سَنَةً .

إنَّ طَرَفَةَ ماتَ باكراً بلا رِيبٍ ، ويبدو لي أنه كانَ قد جاوزَ الثلاثينَ من عمره لما قُتِلَ في غارةِ الـيـمـنـ . غيرَ أنَّ كـثـيرـينـ منـ الدـارـسـينـ يـصـرـونـ عـلـىـ أنـ طـرـفـةـ تـوـقـيـ فيـ السـادـسـةـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ عـمـرـهـ وـيـسـتـشـهـدـونـ عـلـىـ صـحـةـ قـوـلـهـ بـيـتـيـنـ لـلـجـرـنـقـ أـخـتـ طـرـفـةـ فـيـهاـ قـيلـ ، هـمـاـ :

عَدَّنَا لَهُ سِتًاً وَعِشْرِينَ حِجَّةً ، فَلِمَ تَوَفَّاهَا إِسْتَوْى سَيِّدًا ضَحْمًا .
فُجِّعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهِ عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا ولِيدًا وَلَا قَحْمًا !

لِنَفْرِضِ الْأَنَّ الْبَيْتَيْنِ لِلْخَرْبِقِ ، وَأَنَّ الْخَرْبِقَ هَذِهِ هِيَ أَخْتُ طَرْفَةَ ، وَأَنَّ هَذِينِ الْبَيْتَيْنِ قَدْ قِيلَا فِي طَرْفَةَ بْنِ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ . فَفِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ تَقُولُ الشَّاعِرَةُ إِنَّ مَنْ تَعْنِيهِ قَدْ سَادَ فِي قَوْمِهِ لَمَّا بَلَغَ السَّادِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ . وَلَيْسَ فِي الْبَيْتِ ذُكْرٌ لِلْمَوْتِ ، إِلَّا إِذَا كَانَ هُؤُلَاءِ يَظْنَوْنَ أَنَّ « تَوَفَّاهَا » (فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ) مَعْنَاهَا « مَاتَ » . إِنَّ كُلَّ مَا فِي هَذَا الْبَيْتِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْمَعْنَى بِهِ قَدْ سَادَ قَوْمَهُ لَمَّا أَتَمَ السَّادِسَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنَ الْعُمُرِ ، وَهَذَا مَعْنَى « تَوَفَّاهَا » .

أَمَا فِي الْبَيْتِ الثَّانِي فَفِيهِ أَنَّ الشَّخْصَ الْمُذَكُورَ قَدْ مَاتَ فِي سَفْرَةٍ كَانَ يَرْجُى أَنْ يَعُودَ مِنْهَا غَانِمًا . ثُمَّ أَنَّ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْمَرْثِيَّ لَمْ يَكُنْ وَلِيدًا ، وَلَا كَانَ أَيْضًا قَحْمًا ؛ وَالْقَحْمُ هُوَ الْكِبِيرُ السَّنَ جِدًا ، كَمَا فِي الْقَامُوسِ .

لِنُغَادِرُ الْأَنَّ أَرْضَ الْأَدْبِ إِلَى أَرْضِ الْفَلْسَفَةِ وَلِنَسْتَرِخْ قَلِيلًا
عَلَى تُخُومِ الْأَرْضِيَّنِ .

لِأَحَدِ شِيوُخِ الْأَدْبِ فِي الْعَصْرِ الْحَاضِرِ قَوْلٌ هُوَ أَنَّ الشِّعْرَ لِغَةُ
الْعَاطِفَةِ وَأَنَّ النَّثَرَ لِغَةُ الْعُقْلِ ، وَدَلِيلُهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْفَلْسَفَةَ الْيُونَانِيَّةَ
كُتِّبَتْ بِالنَّثَرِ .

إِنَّ هَذَا القَوْلَ خَلِيقٌ أَنْ يُحْلَلَ فِي كِتَابِ .

أَنَا لَا أَنْكُرُ ، وَلَا يَجُوزُ لِغَيْرِي أَنْ يُنْكِرَ ، أَنَا إِذَا أَرْدَنَا أَنْ نُعَبِّرَ
عَنْ عِوَاطِفَنَا فَإِنَّا نَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ عَادَةً بِالشِّعْرِ ؛ وَأَمَّا إِذَا أَرْدَنَا أَنْ

نُعالج موضوحاً فكريّاً فإننا نلجم في ذلك إلى النثر . غير أن ذلك ليس قاعدةً فاصلةً .

لما فرّع اليونانيون القدماء أنواع الشِّعر وجدوها أربعةً : الشعر الغنائي والشعر الملحمي والشعر التمثيلي والشعر التعليمي . والشعر التعليمي الذي عَرَفَتْهُ الأُمُّ المُتَحَضَّرَةُ كُلُّها لا صِلَةَ له بالعاطفة . ومع ذلك فاسمه شِعرٌ . وأيَّ عاطفةٍ في قول ابن مالك في الفيَّاض المشهورة في تَعْدَادِ الأماكن التي تُكسَرُ فيها همزةُ « إن » :

وأكْسِرْ في الابدا ، وفي بَدْءِ صَلَهُ ، وحيثْ « إن » ليمينِ مُكملةً
وَكَسَرُوا من بَعْدِ فِعْلٍ عُلْقاً باللامِ كاعْلَمْ إِنَّه لَذُو تُقَىٰ !
ثم إن ابن خلدونٍ ، وهو من نعلمُ في تاريخ الفكر وفي إصابة
الرأيِ ، كان يُنْزِعُ عن ديوانِ المتنبي صِفةَ الشِّعر فيقول : « وكان منْ
لَقِيَتهِ منْ شُيوخنا لَا يَعْدُونَ المتنبيَ فِي الشِّعْرَاءِ » ! إنَّ شعرَ المتنبي عند
ابنِ خلدونٍ ، وعندَ شُيوخِ ابنِ خلدونٍ ، كان ضرباً منْ ضُروبِ
الحكمة وباباً منْ أبوابِ العقل . وكذلك القول المشهور : « أبو تمامٌ
ومتنبي حكيمان ، والشاعرُ البحترىٰ » دليلٌ آخرٌ على أنَّ الشِّعر لمْ
يُكنْ دائمًا لُغَةَ العاطفة ، بل كان في كثير من الأحيان ، عندَ نفرٍ من
النَّقاد ، لُغَةُ العقل . وإذا كَنَّا نحن جمِيعاً نُفَضِّلُ الشِّعرَ الذي هو من بابِ
العاطفة على الشِّعرِ الذي هو من بابِ العقل ، فإنه لا يجوزُ في بابِ
العلم أنْ نُخُصَّ الشِّعرَ بالعاطفة وحدها ، أو أنْ نُخُصَّ العاطفة
بِالشِّعرِ وحدهِ .

وبعْدُ ، فَمَنِ الذي روَى لنا أنَّ الفلسفة اليونانية لم تُكُنْ إِلا في
النثر . إنَّ اليونانيينَ الأوَّلينَ لم يُفَرِّقوا عندَ تدوينِ الفلسفة بينَ النثر

والشعر . إن اكتنافاًس مؤسس المذهب الإيلي ثم برمينيذس زعيم ذلك المذهب ثم أندلُيس فيلسوف الطب والعلوم الطبيعية ، وهم من المشاهير في تاريخ الفلسفة القديمة قد اختاروا أن يدعونا فلسفتهم شِعراً . وكذلك كريتياس السُّفْسَطَائِي ويامبليخوس الذي كان من عُنجر ، في سهل البقاع ، على نحِوِّ خمسمترًّا من مدينة بيروت ، قد دونا فلسفتهم في الشعر أيضاً .

إن الشعر أصدق بالعاطفة ، لا ريب في ذلك ؛ وإن طبيعة النثر أقرب إلى العقل ، ما في ذلك شك ؛ ولكننا لا نستطيع أن نُوافق الذين يريدون أن يُقيموا بينها ستاراً حديدياً .
ونأتي الآن إلى النثر .

لما صَدَعَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالدعوة ونَزَّلَ عليه القرآن الكريم وَجَمِيعَ العرب الجاهليون ثم قالوا عن محمد إنه شاعر وعن القرآن إنه شعر . وما كان العرب غافلين عن موقع البلاغة ولا جاهلين أن هذا الذي يقرأونه في المصحف أو يسمعونه من الرسول نفسه ومن القراء كان نَثِراً لا صِلَةَ بينه وبين أوزانِهِ المألوفة . ومع ذلك فقد كان هذا الذي يسمعونه من القرآن عندهم شِعراً لا شك فيه البتة، ورددوا قولهم هذا حتى دافع الله تعالى عن رسوله الكريم فقال فيه : « وما عَلِمْنَا الشِّعْرَ وما يَنْبَغِي لَهُ ! » .

ثم ما نقولُ نحنُ عن هذا الفيض الذي يزيدُ على الفيض من النثر الخيالي ومن القصص الغرامية التي تضيق بها مكاتبنا وتَضَعُ ؟ أهي من منطق العقل أم من عُرَائِسِ الخيال ؟ أهي من الكلام المشور أم من الكلام المنظوم ؟

وبعد أن أُسْتَرْحَنَا قليلاً على تَخْوِيمِ الفلسفة نرى أن نُوَغْلُ في
أرضِها قليلاً .

يتكلّم نفرٌ من الدارسين على الفلسفة الإسلامية ويجعلونها
فلسفة تُوفيقية بين العقل والدين .

إن التوفيق بين العقل والدين فكرة عظيمة جميلة ؛ ولكن هل
كانت الفلسفة الإسلامية التي نعرفها فلسفةً توفيقيةً بالمعنى الذي
يقصده هؤلاء الدارسون ؟ لِسْتَتَعْرُضُ آراء نفرٍ من فلاسفة الإسلام
في هذا الموضوع .

إن الفارابي يجعل السُّكُنَى في مدينته (دولته) الفاضلة قاصرةً
على الذين يذهبون مذهبَه في التفكير : وكان الفارابي من الذين
يؤمنون بالفِيَضِ ، أي بأنَّ هذا العالم فاضٌ من الله ضرورةً وبغير
تَرَاطٍ في الزَّمْنِ ، وليس في وجود العالم إرادةٌ قديمةٌ أو خِيرَةٌ ، ولا
فارقٌ في الزَّمْنِ بينَ وجود الله وفيض العالم منه . وكذلك يرى
الفارابي أنَّ الْخَلُودَ رُوحِيٌّ وأنَّ الْأَجْسَامَ لَا تُبْعَثُ ، ثم هو يرى أنَّ
النُّبُوَّةَ إنما هي للقُوَّةِ الْخَيَالِيَّةِ . وإنَّ إِخْرَانَ الصَّفَا يَرَوْنَ أنَّ جَمِيعَ الْأَدِيَانِ
ناقصةٌ ، وأنَّه لا بدَّ من سَدٌّ نقِصَّها بالفلسفة . أما ابنُ سِينَا فيعتقدُ أنه
كُلُّمَا حَدَّثَ في الْأَرْضِ جَسَدٌ صَالِحٌ للحياة حَدَّثَ لَه نَفْسٌ خَاصَّةٌ
بِهِ . وهو لا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ جاءَتِ النَّفْسُ وَلَا مَا يَحْدُثُ لَهَا بَعْدَ
مُفَارِقَتِهَا لِلْبَدْنِ . ثم أنه يرى أيضاً أنَّ الْحُكَمَاءِ الإِلَهِيِّينَ يَرْغِبُونَ في
خَلْوَةٍ غَيْرِ الْخَلْوَةِ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الْأَدِيَانِ . وأما الغَزَالِيُّ فَجَعَلَ هَمَّهُ
تَهْدِيَمَ الْفَلْسَفَةِ ثُمَّ كَفَرَ الْفَلَاسِفَةَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ . وَنَسِيَتْ عَلِيَّةَ
الْكَلَامِ . إنَّ الْأَشْعُرِيَّةَ مِنْ عَلَمَاءِ الْكَلَامِ كَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا اخْتَلَفَ

العقلُ والنَّقلُ فَاتَّبَعَ النَّقلَ ؛ والنَّقلُ هو الَّذِي جَاءَ بِهِ الدِّينُ . وأمَّا خُصُومُهُمُ المُعْتَزِلُونَ فَكَانُوا يَقُولُونَ : إِذَا اخْتَلَفَ الْعُقْلُ وَالنَّقلُ فَاتَّبَعَ الْعُقْلَ .

وَتَتَنَقَّلُ بِنَا الْفَلَسْفَةُ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَمُرَ بِنَا عَلَى فِيلُوسُوفٍ حَاوَلَ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْفَلَسْفَةِ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ أَنْصَارُ هَذِهِ الدِّعَوَى . إِنَّ ابْنَ باجَهَ يَرَى أَنَّ الْوُجُودَ غَيْرَ مُتَنَاهٍ ، وَأَنَّ الْبَشَرَ أَنْفُسَهُمْ خَالِدُونَ أَزْلًا وَأَبَدًا . أَمَّا ابْنُ طَفَيْلَ فِي كِتَابِهِ الْوَحِيدِ : « قِصَّةُ حَيٍّ بْنَ يَقْظَانَ » عَلَى النَّشَوَةِ الْمُرْتَجَلِ لِلْبَشَرِ مِنْ بَاطِنِ الْأَرْضِ بِقَوَاعِدِ طَبِيعَيَّةٍ ، ثُمَّ إِنَّهُ جَعَلَ الْفَرَدَ الْفَائِقَ الْفِطْرَةَ يُعْلَمُ نَفْسَهُ وَيَسْتَغْنِي بِعُقْلَتِهِ عَنِ النَّبَوَةِ . وَأَمَّا ابْنُ رَشِيدٍ فِي كِتَابِهِ مِنْ آرَائِهِ فِي هَذَا الْبَابِ رَأَيُّ وَاحِدٌ ، هُوَ أَنَّهُ إِذَا ظَهَرَ خِلَافٌ بَيْنَ الْفَلَسْفَةِ وَظَاهِرِ الشَّرْعِ فَعَلَيْنَا أَنْ نَفْهَمَ الْفَلَسْفَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا وَأَنْ نَتَطَلَّبَ لِظَاهِرِ الشَّرْعِ تَأْوِيلًا يَقْبِلُهُ الْعُقْلُ .

فَأَيْنَ نَجِدُ لِهُؤُلَاءِ الْفَلَسْفَةِ قَوْلًا فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْفَلَسْفَةِ وَالدِّينِ يُرَادُ بِهِ أَنْ تَكُونَ غَايَةُ الدِّينِ وَغَايَةُ الْفَلَسْفَةِ وَاحِدَةً أَوْ أَنْ يَكُونَ طَرِيقَاهُمَا مُتَوَازِيْنِ ؟ بَلْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُؤُلَاءِ الْفَلَسْفَةِ قَدْ جَعَلُوا الْفَلَسْفَةَ مُوَافِقَةً لِلدِّينِ وَاعْتَقَدوْنَ ذَلِكَ وَنَحْنُ نَجْدُ أَنَّ الْفَقِهَاءَ قَدْ كَفَرُوا الْفَلَسْفَةَ أَجْمَعِينَ . حَتَّى الغَزَالِيُّ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ إِنَّ كُتُبَهُ قَدْ حُرَّقتُ فِي الْمَغْرِبِ لِأَنَّ الْفَقِهَاءَ وَجَدُوا فِيهَا تَفْلِسْفًا وَوَجَدُوا أَنَّ هَذَا الْتَّفْلِسَفَ لَا يَوَافِقُ الدِّينَ بِحَالٍ .

غَيْرَ أَنَّ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَ الدِّينِ وَالْفَلَسْفَةِ عَنْهُ الْفَلَسْفَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ قَدْ حُدِّدُوا يَتَعَبِّرُ كَانُ يُوصَفُ بِهِ نَفْرُ مِنْ أُولَئِكَ

الفلسفه ، هو : « وَكَانَ ابْنُ طَفِيلٍ » ، مثلاً ، « يَجْمَعُ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالشَّرِيعَةِ » .

ولكلمة « الجَمْعُ » في الفلسفه الإسلامية معانٍ مختلفة : فالجَمْعُ عند المُتَصوَّفين هو ذَوِيَّاً شَخْصِيَّاً إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ الْفَرِدُ فِي الْعِزَّةِ الْإِلَهِيَّةِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللَّهُ . والجَمْعُ عند الفارابي قريبٌ من مَعْنَى التوفيق الذي قَصَدَهُ أَوْلَئِكَ الدَّارِسُونَ . للفارابي رسالتُه « الجَمْعُ بَيْنَ رَأْيِيِّ الْحَكَمَيْنِ أَفْلَاطُونَ الْإِلَهِيِّ وَأَرْسَطُورَ طَالِيسَ » يَذَهَّبُ فِيهَا إِلَى أَنَّ كَثِيرًا مِنْ آرَاءِ هَذِينَ الْفِيلِسُوفِيْنَ يَخْتَلِفُ التَّعْبِيرُ عَنْهَا عَنْدَ أَفْلَاطُونَ وَأَرْسَطُورَ ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودُ مِنْهَا عِنْدَهُمَا وَاحِدٌ . ولقد استطردَ أَوْلَئِكَ الدَّارِسُونَ ، بِشَيْءٍ مِنَ التَّنْجِيمِ ، إِلَى أَنَّ الفارابي تَكَلَّمَ عَلَى التَّوْفِيقِ بَيْنَ أَفْلَاطُونَ وَأَرْسَطُورَ حَتَّى يَوْقَنَ بَيْنَ الْدِيْنِ وَالْفَلْسَفَةِ ، رَعْمًا لِعَمْرٍ أَبِيكَ لِيْسَ بِمَزْعَمٍ ، كَمَا يَقُولُ عَنْتَرَةُ عَنْ أَوْلَئِكَ الْذِيْنَ يَرَوْنَ إِنَّ حُبَّ عَنْتَرَةَ لِعَبْلَةَ كَانَ عَرَضًا سَطْحِيًّا لِأَنَّهُ كَانَ يَكْرُهُ أَهْلَهَا وَيُقَاتِلُهُمْ :

عُلِّقْتُهَا عَرَضًا وَأَقْتُلُ أَهْلَهَا ؛ رَعْمًا ، لِعَمْرٍ أَبِيكَ لِيْسَ بِمَزْعَمٍ

ونعود إلى الجَمْعُ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالشَّرِيعَةِ .

أما عند فلاسفه المغرب ابن باجَه وابن طُفِيلٍ وابن رُشدٍ ، وعنده فيلسوف المشرق ابن سينا أيضاً ، فإنَّ الجَمْعَ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالشَّرِيعَةِ إنما هو السُّلُوكُ فِي الْحَيَاةِ مَسْلَكَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ : مَسْلَكًا مَعَ النَّاسِ وَمَسْلَكًا إِذَا كَانَ الْفِيلِسُوفُ وَحْدَهُ أَوْ مَعَ أَنْدَادِهِ . وَعُمَدةُ الجَمْعِ بَيْنَ الْحِكْمَةِ وَالشَّرِيعَةِ ، أَوْ بَيْنَ الدِّيْنِ وَالْفَلْسَفَةِ ، أَوْ بَيْنَ الْمَعْقُولِ وَالْمَنْقُولِ ، أَوْ بَيْنَ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ ، هُوَ أَنْ يَعْتَقِدَ الْفِيلِسُوفُ أَنَّ الدِّيْنَ

ضروري في الحياة وأن الفلسفة أيضاً ضرورية في الحياة . غير أن للدين نطاقه الواسع في المجتمع، إذ هو الوازع الاجتماعي الوحيد والصحيح ؛ ولا سيل إلى أن يُحمل البشر على عمل الخير في الدنيا ، عند هؤلاء الفلاسفة ، إلا بالدين . فعلى الفلسفه أيضاً أن يتمسكوا بظاهر الدين أيضاً ، كما يفعل سائر الناس ، حتى لا يُفسد الوازع الاجتماعي بين البشر . وأما في نطاق الفكر وفي الحياة المعلقة بين المفكرين من ذوي الفطرة الفائقة فالآراء الفلسفية هي المعتمدة وحدها . وهكذا يجمع الفيلسوف بين الشريعة في حياته مع الناس إلى الحِكمَة إذا كان معه أنداده . فإذا كان هذا هكذا ، فمن أين جاء التوفيق بين الدين والفلسفة بالمعنى الذي قصده النفر الذين عَيَّنَاهُم ؟ وأيُّ فلاسفة الإسلام ، كلُّ فلاسفة الإسلام ، ذكر أن الدين والفلسفة شيء واحد ؟ بل أيُّ فقهاء الإسلام رضي أن تُصبح الفلسفة ، كما يفهمها الفلاسفة ، على مستوى واحد مع الدين ؟

ولقد يعرض أحد على هذا القول فيقول : « ولكن الشرع لا يخالف العقل ». إن هذا صحيح ، والشرع لا يمكن أن يخالف العقل أبداً . إلا أن موافقة الشرع للعقل باب آخر من أبواب البحث . ثم إن هذا لا يحملنا على القفز إلى أن الدين هو الفلسفة وأن الفلسفة هي الدين ، وإلى أنه يمكن أن تحل محله أو يحل محلها في التفكير والحياة .

لست الآن في مقام من يريد أن يفصل القول بين الفقهاء وال فلاسفة في صلة الدين بالفلسفة ، ولكنني في مقام من يأخذ على

نفرٌ من الدارسين المعاصرین مُعالجهُم للقضايا الفلسفية أحياناً
مُعالجةً هَوْنَا غير ناظرين إلى مقاييس العلم ولا إلى المناهج
المنطقية عند البحث . إن التزاوج المريض بين الدين والفلسفة ، أو
بين العَقْل والنَّفْل ، قد بدأ مع علماء الكلام قبل أن ينتهي القرنُ
الأول للهِجرة ثم استمر قُرُوناً كثيرةً بعد ذلك ، ومع ذلك فإن نفراً
من الدارسين المعاصرين لا يزالون يذكرون التوفيق بين الدين
والفلسفة على معنى لم يَرِدْ عند فلاسفتنا ثم يزعمون أنه لا يُخالفُها
وأنها لا تُخالِفُهُ . هذا مع العلم اليقين بأن جميع فلاسفتنا بلا
استثناء اعتقدوا الدين وأحلوه مكاناً ساماً ، غير أنهم جعلوه شيئاً
غير الفلسفة ، حتى أن ابن رشيد جعل الحِكمة صاحبة للشريعة ثم
جعلهما أختين رَضِيَعَتِين ، ولكنه لم يقبل أن تَحَلِ إحداهما محل
الأخرى ؛ ولا يجوز لنا نحن ذلك .

إن الذي أرمي إليه من كُلِّ ما تقدم أن أقول :

إذا نحن جئنا إلى تاريخ الفلسفة فيجب علينا أن تروي عن
الفلسفه آراءهم على وجهمها ، لا أن نُنسب إليهم آراءنا نحن . إن
نفراً كثيرين من الدارسين يسلكون مع الأسف مذهبًا مُجانبًا
للصواب : يكتب قوم عن الفارابي أو عن المتنبي فلا ترى في ما
يكتبون إلا آراءهم ؛ أما رأيُ الفارابي أو رأيُ المتنبي فيكون في
غيابةٍ من مَنَازِعِهِمْ هم وفي خيالِهِمْ هُواهُمْ هم .

إن الدراسات الأدبية والفلسفية لا تزال في الشِّرق العربي
متاخرةً جدًا عَمَّا وصلت إليه مثيلاتها في الغرب الأوروبي والأميركي
بعاملين أساسيين لا حيلة لنا نحن اليوم فيهما :

أولاً : إن الدراسة الأدبية والفلسفية في الغرب بدأت بعد أن خطوا الغرب خطىً واسعاً في العلوم الرياضية والطبيعية والنفسية ، فاستفاد الدارسون الغربيون عند معالجة الموضوعات الأدبية والفلسفية من الجهود التي كان علماؤهم قد بذلوها في ميادين العلم الخالص . أما نحن فلم يُتَّح لنا بعد مثل ذلك . من أجل ذلك ترانا نتَكَبِّرُ في دراساتنا الأدبية والفلسفية على العنصر الشخصي والأسلوب الإنساني إلا قليلاً . وكثيراً ما يشعر الباحثون عندنا بهذا النقص من أنفسهم فيعتذرون عنه بتصور مختلفة لا تكون عذرًا لهم بل حججاً عليهم . منذ خمسة وثلاثين عاماً أو تزيد زار ابراهيم عبد القادر المازني مدينة بيروت فدعنته كلية المقاصد وأختفت به . وأذكر أن الأستاذ المازني لما نهض ليُعبر عن عاطفته نحو كلية المقاصد بدأ بالقول عن نفسه إنه حمار في الرياضيات . لقد أراد المازني أن يجيء بنكتة لأن أحد الطلاب المتكلمين كان قد عرَّجَ على الرياضيات في كلمته . غير أن تلك النكتة المزعومة كانت مؤلمة جدًا لأنها دلت على اتجاه عنيٍّ نحو التطليق البات بين الأدب والعلم . وكان أشد إيلاماً من النكتة أثرها في الناشئين على جانبي طريق الأدب ؛ فلقد سمعت تلك الجملة تردد من على المنابر وفي الصحف ردحاً غير قصير من الزمن بعد ذلك .

ثانياً : هنالك فضل لمؤرخي الأدب والفلسفة في الغرب على مؤرخي الأدب والفلسفة عندنا لا نملك فيه حيلةً أيضاً : ولقد أقيم بناء الدراسات الأدبية الفلسفية في الغرب بعد أن قام علماء الغرب بنشر المخطوطات نشراً علمياً وبإعداد دراساتٍ وافيةٍ ومُفهَّسةٍ لجميع مصادر الأدب والفلسفة وبتأليف قواميسٍ فنيةٍ لكل

فنَّ من فنونِ المعرفة الإنسانية . من أجل ذلك نرى أنَّ أحكام الدارسين في الغرب تأتي عادةً أقربَ إلى الشُّمول والصِّحة والدقة ، حينما يريدُ الدارسون منهم ذلك ، لأنها تكون مبنيةً في الأصل على مصادر مدرسوةٍ مُفهَّسةٍ . أما عندنا فالأمرُ مختلفٌ من ذلك جدًا . قد يضطرُّ أحدهُنا إلى دراسة شاعر فلا يجدُ لديوان ذلك الشاعر إلا طبعةً رديئة أو لا يجدهُ له ديواناً الْبَتَّة . ولو لا أنَّ أوروبَة قد أصدرت عدداً من أمَّهات المصادر العربية ثم جاءت القاهرةُ تُحاوِل إتمام تلك المهمَّة الشاقَّة ، في طبعات عِلْمِيَّة كثيرةً أو قليلاً ، لما كان بإمكانِ أحدهُنا اليومَ أن يُثْقِل من حُكْمِ يُصدِّره على أديب أو فيلسوف . ومعَ هذا كُلُّه فإنَّ عددًا من الدراسات التي يقومُ بها أدباءٌ لا يزالُ يوحِي بأنَّ هؤلاء الأدباء لم يُكلِّفوا أنفسَهم عناء التقليب لهذه المصادر التي جهَّذَتْ أوروبَة والقاهرةُ في إخراجها مخرجاً كريماً قدرَ الإمكان ، ذهاباً بأنفسِهم عن معانٍ شِيءٌ من العلم الذي ظنوا أنَّ لا مَدْخَلَ له في الأدب . إنَّ امرأَ القيس لا يزال عندَ هؤلاء مُقيماً في دَمَونَ يشربُ الخمرَ بينما كان أبوه وإخوته يخوضون المعركة الفاصلةَ بينَ الحياة والموت في ثورةٍ بني أسدٍ على حُكْمِ كِنْدَةٍ في نجد . ثم تمتلىءُ أعينُ أولئك الدارسين وقلوبُهم فرحاً لأنَّ ذلك الفتى قد شدَّ الرِّحالَ إلى قبائلِ العرب ثم إلى القُسْطَنْطِينِيَّة مُحاولاً أن يُسْتَرِّدَ مُلْكَ أسرته . ويُضطَرُّ هؤلاء إلى أن يُلْحِموا بينَ صورة الفتى الخليعِ الذي يشربُ الخمرَ في دَمَونَ في مساءِ الْثُلَاثَاء وعزيمةً ذلك الفتى نفسه على التأثيرِ لمقتَلٍ أبيه ورَدَّ المُلْكِ إلى أسرته في صبيحةِ الْأَرْبَعَاء فيلجأون إلى عصَا الأسلوب السِّحْرِيَّة ويُقْبِلُون بها طبيعة امرئِ القيسِ بينَ عَشِّيَّةٍ وضاحِها ثم

يَجِدُونْ مُتَسْعًا لِلقولِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا الرِّوَايَةُ الْجَمِيلَةُ
عَنْ امْرِيَءِ الْقِيسِ : الْيَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًّا أَمْرٌ !

وَمَعَ الإِقْرَارِ بِأَنَّ الْدِرَاسَاتِ الْفَلْسُفِيَّةِ قَدْ خَطَطْتُ فِي الْبَلَادِ
الْعَرَبِيَّةِ خُطُوطًا وَاسِعَةً فِي عَدِيدِ مِنِ النَّوَاحِي ، فِي الْجَمْعِ وَالتَّبْسيطِ
وَالنَّفْدِ أَيْضًا ، فَوَقَّ مَا اتَّفَقَ لِلْدِرَاسَاتِ الْأَدْبُورِيَّةِ ، فَإِنَّ الْدِرَاسَاتِ فِي
الْفَلْسُفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ نَفْسِهَا لَا يَمْكُنُ أَنْ تَدْنُوْ مِنَ الْكَمَالِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ
تَتَحَقَّقَ لَهَا الْأَمْوَرُ التَّالِيَّةُ :

(أ) : التَّوْسُعُ فِي نَشَرِ الْأَصْوَلِ الْفَلْسُفِيَّةِ عَنْدَ الْعَرَبِ مَعَ
الْفَهْرِسِ لِلْأَلْفَاظِ الْفَلْسُفِيَّةِ وَالآرَاءِ الْفَلْسُفِيَّةِ . إِنْ قِسْمًا مِنْ ذَلِكَ قَدْ
تَحَقَّقَ فِعْلًا ، وَلَكِنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي تُبْنِي عَلَى أَصْلٍ نَاقِصٍ تَظَلُّ
نَاقِصَةً .

(ب) : اسْتِيَافُ عَرْضِ الْفَلْسُفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَرْضًا مُوضِوعِيًّا
شَامِلًا ، وَخُصُوصًا لِأَنَّ فَلَاسِفَتَنَا قَدْ جَاءُوا بِآرَائِهِمُ الْمُتَالَفَةِ فِي كُتُبٍ
مُتَفَرِّقَةٍ أَحِيَانًا وَفِي أَماَكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْكِتَابِ الْوَاحِدِ أَحِيَانًا أُخْرِيَ .

(ج) : تَمْرُسُ الدَّارِسِينَ بِجُوانِبِ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْعِلْمِ . إِنَّ
الْفَلْسُفَةَ تَارِيَخُ الْفِكْرِ الإِنْسَانِيِّ . وَالْفِكْرُ يَتَنَاهُ الْعِلُومُ الْرِّياضِيَّةُ
وَالْطَّبِيعِيَّةُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ وَالْفَنِيَّةُ . إِنَّا لَمْ يَكُنْ دَارِسُ الْفَلْسُفَةِ مُلِمًّا
بَعْدِ مِنْ هَذِهِ الْعِلُومِ إِلَمَامًا يَسِيرًا عَلَى الْأَقْلَلِ ، فَإِنَّ مُعَالَجَتَهُ لِلْفَلْسُفَةِ
سَتَظْلُلُ قَاسِرَةً عَلَى جَانِبٍ وَاحِدٍ ، هُوَ الْجَانِبُ الْوُجْدَانِيُّ أَوِ
الشَّخْصِيُّ ؛ وَسَتَكُونُ جَمِيعُ درَاسَاتِهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ نَاقِصَةً ،
وَخُصُوصًا فِي مَا يَتَعَلَّقُ بِفَلْسُفَةِ الْأَنْدَلُسِيِّينَ . إِنَّ مَقْدَارًا مُعِينًا مِنِ
الْرِّياضِيَّاتِ لَا بَدَّ مِنْهُ فِي تَفْهِمِ فَلْسُفَةِ ابْنِ باجِهِ ، وَإِنَّ الْوُصُولِ

إلى فلسفة ابن طفيلٍ لا يتيّسرُ إلَّا معَ قَدْرٍ وافِي من العلوم الطبيعية المُختلفة وشيئاً من الهندسة خاصةً . أما فلسفة ابن خلدون الاجتماعيَّة فتحتاجُ في فَهْمِها وفي قَدْرِها حقًّا قَدْرِها إلى معارفٍ متعددةٍ من رياضيَّةٍ وطبيعيَّةٍ ونفسيةٍ واجتماعيَّةٍ وإنسانيَّةٍ .

(د) : اعتمادُ منهجٍ عربيٍّ في دراسة الفلسفة العربية ، ذلك لأنَّ الفلسفة العربية مع صِلَتها الوثيقَة بالفلسفة اليونانية فإنَّها قد جاءت لِتَعُلُّ عدَداً من المشاكل التي تبدَّلت للعقل العربي في إطارٍ يتَّألفُ من عواملٍ لم يكن بعضُها في إطارِ البيئة اليونانية . ثم إنَّ الفلسفة العربية قد حَرصَت على أن تُعَلَّل عدَداً من القضايا التي نَبَتَتْ في الإسلام ، وفي زَمِنٍ اختلفتْ فيه المُثُلُ العُليَا عَمَّا كانت عليه في أيام الإغريق . والدارسون العربُ الذين يعتمدُون اليوم مناهجَ للدراسة إنما يعتمدون مناهجَ أوروبية ؛ والمناهجُ الأوروبيَّة قد بُنيَتْ في الأصلٍ على الاتجاهِ في نَقْدِ العَهْدِ القديم أو على أحوالِ في الغربِ مُخالفةٌ للأحوالِ التي عاش فيها فلاسفتنا . فاعتمادُنا مناهجَ الغربيين وحدهما في دراسة فلسفتنا لا يُمْكِنُ أن يَفي بالغَرض المطلوب منَّا في دراسة فلسفتنا . ومع الإيمانُ بأنَّ الاستفادةَ من المناهج المنطقية التي أقامها الدارسون الغربيون واجبٌ لا شكَّ فيه ، فإنَّ على العرب أن يستكملوا العُدَّةَ في هذه المناهج حتى تُصبحَ وافيةٌ بدراسة فلسفتنا أيضاً .

هذا شأنُ الدراسة الفلسفية . أما الدراسة الأدبية عند العرب فلا تزالُ أسوأً حظاً : إن للفلسفة شيئاً من الهيبة في نفوس العُقَلاءِ فلا يَهُجُّ عليها إلَّا من آنسَ من نفسه شيئاً من الاستعدادِ . وأما دراسةُ الأدب فمالٌ سائبٌ .

ينهضُ بينَ الحينِ والحينِ طالبٌ يسألني سؤالاً يدور حولِ
الوهمِ التالي :

لماذا لا نجدُ في الشعر العربي إلا المدح والرثاء والهجاء
وهذا الغزل التافه ، ثم لا نجدُ فيه شعراً إنسانياً يصور خوالج النفس
البشرية تصويراً واقعياً صحيحاً ؟ فأقول للطالب السائل : ومن أين
عرفت أن الأمر كما تقول ؟ فيقول لي : عرفته من الشعر الجاهلي
والشعر الأموي والشعر العباسي ! أليس هذا ما ندرسه في منهاج
البكالوريا ؟

وأجيبُ الطالب السائل بما يردُّ الأمر إلى قريب من نصابه ؛
ثم ألتفتُ إلى نفسي فأرى أن هذه المشكلة بعينها ليست مشكلة
طلاب فحسب ، إنها أيضاً مشكلة أساتذة مؤلفين ، وإلا فمن أين
 جاء ذلك الطالب بهذا الحكم الفطير ؟

إن كثيرين من الدارسين ، وخصوصاً في هذا البلد ، يتجنّون
على الأدب العربي مثل هذا التجنّي . هم يقولون : ليس في الشعر
العربي طابع إنساني عام ، ليس فيه قصص وجداً ، ليس فيه
ملحمة ، ليس فيه تمثيل . إنه أدب فطري قاصر . إن الشعر العربي
ربما ، إنه تعابير متحجرة وألفاظ جوف !

لا أحب أن أغفل هذه الحملة الكاسحة على الأدب العربي
كيلا أنصرف إلى جدالٍ جانبيٍ يخرج بنا عما نحن بسبيله من غير
أن يزيد الموضوع وضواحاً . غير أنني أريد أن أشير إلى أن التقصير
واقع في تاريخ الأدب العربي ، حتى في كتب كثيرة من تلك التي
ألفها معجبون بالعرب ومحبون للأدب العربي .

إن التاريخ يتناولُ في الأكْثَرِ مَعَالِمَ الحضارة ويسيرُ على الطريق السُّلْطاني ، وقلما يَحْفَلُ بِيَنِيَاتِ الطريق . والمشاهيرُ فقط هُمُ الذين يَجِدُونَ مَكَانًا في مَوْكِبِ التَّارِيخِ . وكَلَّما كَانَ الرَّجُلُ أَبْعَدَ شُهْرَةً كَانَ مَكَانُهُ في مَوْكِبِ التَّارِيخِ أَقْرَبَ إِلَى الصَّدَارَةِ . وما كَانَ تَارِيخُ الْأَدَبِ يَدْعُوا فِي ذَلِكَ .

لَمَّا بدأ الاهتمامُ بالأدب العَرَبِيِّ وبتأريخِه ونقدِه ، مِنْذِ العَصْرِ الْعَبَاسِيِّ ، بدأ ذلك الاهتمامُ بالشِّعْرِ وبأصحابِ الْمُعَلَّقاتِ مِنَ الشُّعُراءِ لِشُهُرِتِهِمْ ولهُمْ مَكَانٌ شِعْرِهِمْ فِي تَارِيخِ اللُّغَةِ وفِي مَعْرِفَةِ الْأَنْسَابِ وِمَفَاحِرِ الْقَتَالِ . وَكَانَ الشُّعُراءُ قَدْ أَولَّعُوا أَيْضًا بِأَصْحَابِ الْمُعَلَّقاتِ فَقَلَّ دُوَهُمْ . مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَصْبَحَ مُعَظَّمُ الشِّعْرِ الْأَمْوَيِّ يُجْرَى فِي عِنَانِ الشِّعْرِ الْجَاهْلِيِّ الَّذِي يَمْثُلُ الْمُعَلَّقاتِ ، فَكَانَ عِنَانًا شِعْرُ النِّقَائِضِ . ثُمَّ جَاءَ الْعَصْرُ الْعَبَاسِيُّ وَاسْتَمْرَرَ الإعْجَابُ بِالْقَدَماءِ فَاسْتَمَرَ التَّقْلِيدُ لِشَكْلِ الْقُصْيَدَةِ الْجَاهْلِيَّةِ .

وَلَقَدْ مَثَّلَ هَذَا الشِّعْرُ الَّذِي جَرَى ذَلِكَ الْمَجْرَى جَانِبًا مُهَمَّاً مِنَ الْحَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ الْقَدِيمَةِ . وَأَوْلَعَ النَّاسُ بِهَذَا النَّوْعِ مِنَ الشِّعْرِ الْقَدِيمِ قِرَاءَةً وَنَظَمًّا لِأَنَّهُ كَانَ يُمَثِّلُ الْجَانِبَ الْقَومِيَّ مِنْ حَيَاةِ الْعَرَبِيَّةِ . لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الشِّعْرُ خِزَانَةً الْعَقْرِبِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَكِتَابَ التَّارِيخِ وَصُورَةً الْبِيَةِ وَدِيَوَانَ اللُّغَةِ وَمِلَاكَ الْعِزَّةِ . غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ إِلَى جَانِبِ هَذَا النَّوْعِ الْعَامِ مِنَ الشِّعْرِ الْعَامِ نَوْعًا آخَرَ خَاصًّا يَدُورُ عَلَى الْعَاطِفَةِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالْوَاقِعِ الْبَشَرِيِّ . وَلَكِنْ شُعُراءُ هَذَا النَّوْعِ الثَّانِي لَمْ يَسْتَطِعُوا أَنْ يُجَارُوا شُعُراءَ النَّوْعِ الْأَوَّلِ فِي الشُّهُرَةِ فَمَضَى تَارِيخُ الْأَدَبِ يَفْسَحُ الْمَجَالَ لِلْأَوْلَيْنِ وَيُضِيقُهُ عَلَى الْآخِرِينَ .

وبما أن التاريخ لا يحفل إلا بالمشاهير ، كما رأينا قبل قليل ، فقد غُمِرَ شُعراء النوع الثاني في غمَار المشاهير من شُعراء النوع الأول . ثم جاء الدارسون المعاصرون فساروا على الطريق المُعَبَّد ووسعوا اهتمامهم بالمشاهير وحدَهم فغاب الشعراءُ الشخصيون في خضم المُنَازعِ القومية ، وكان ذلك فخراً لنا أيضاً . ولكن لم يكن من الصواب أن نُهمل الشُعراء الشخصيين .

وكان الدارسون المعاصرون منا قد اطلعوا على شيءٍ قليلٍ أو كثيَرٍ من الأدب الغربي ونقدِه فوجدوا فيهما أشياءً لم تكن موجودةً عندنا ففَقَرُّوا إلى استنتاج يخطُرُ للإنسان عادةً في مطلع حياته العملية ، وهو أن كُلَّ ما زادَ في شيءٍ كان نَقْصاً في شيءٍ آخر . وبما أن في الشعر الغربي ملاجمَ فقد عابوا على الشعر العربي خُلُوهُ من ملاجمَ المعنى المألف عند الإفرنج . وبما أن في الشعر الغربي مسرحياتٍ فقد نَعَوا على الشِعْرِ العربي فقره في هذا الباب . ثم إنهم انطلقوا يُبرِزُون ما نَقص في الشعر العربي من خصائصِ الشعر الغربي وفنونه حتى تجسَّم في خيالِهم تقصيرُ الشعر العربي عن الشعر الغربي جُملةً .

والواقع أن في الشعر الغربي خصائصَ وفنوناً ليست في الشعر العربي ، كما أنَّ في شِعْرِنا العربيَّ خَصائصَ وفنوناً أكثرُ عدداً لم يَعْرِفها الشِعْرُ الغربيُّ قطُّ ، ذلك لأنَّ كُلَّ شِعْرٍ كان يُصوَرُ بيئةً أهلِه وثقافتهِ ، فلم يكن من المُنتظرِ أن تكون خصائصُ الأدب العربيَّ شبِهَةً بخصائصِ الأدب الأوروبيَّ ، كما أن خصائصِ الأدبِ الْجِرْمانِيَّ تختلفُ اختلافاً كبيراً من خصائصِ الأدبِ اللاتينيِّ . هذا

مع العلم اليقينيَّ بأنَّ الخصائص والفنون في الشعر العَبَاسيِّ العَرَبِيِّ تختلفُ عنها كُلُّها في الشعر الأُمُوَيِّ العَرَبِيِّ . وكذلك الخصائص في الأدب الإنكليزي مثلاً تختلفُ في العصر الفيكتوري منها في عصر هنْرِي الثامن وأليزابيث الأولى . ومثل ذلك الأدب الفرَنْسيُّ ، فإنَّ خصائص الرومانسيِّين وفنونهم فيه تختلفُ من خصائص البرُنَاسِيِّين وفنونهم .

إنَّ الاختلافَ بينَ أمرين لا يجعلُ أحدهُما أفضَلَ من الآخر ضرورةً ، ولكنَّ مثلَ هذا الاختلافِ ضروريٌّ جدًا وطبيعيٌّ أيضًا حتى يكونَ لدينا مساحةً حينما نشيرُ إلى أدباءٍ في لغتين مُختلفتين أو إلى عَصريِّين أدباءٍ في لُغةٍ واحدةٍ . وقد يجمعُ العصرُ الواحدُ في اللغة الواحدةِ خصائصَ وفنوناً مُختلفةً أو متناقضةً في بعضِ الأحيان كالذِي نراه مثلاً في شعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ وشِعْرِ معاشرِه الفرزدقِ ، أو في شِعرِ عبدِ الحميد وشِعرِ تلميذهِ عبدِ اللهِ بنِ المُقْفعِ .

غيرَ أنَّ التوسيعَ في هذا الموضوع يقتضي التَّيهَ في فِيافي المُقارناتِ وِخَصْمَ الاستشهاداتِ ، فلنُرجِعَ إلى انتقاداتِ شُباننا المتأدبينِ الذين يَنْعُونَ على الشِّعرِ العَرَبِيِّ ، قبلَ أيامِهم خاصةً ، خُلُوهُ من العُنصرِ الشخصيِّ المُعَبَّرِ عن خَلُجَاتِ النَّفْسِ وَخَواطِرِ الْخِيَالِ وَعِنِ الرُّؤْيِ الْحَمْرَاءِ الْمُجَنَّحةِ وَحَبَّاتِ الرَّمْلِ الظَّمَائِيِّ إلى غَمَزَاتِ النَّجُومِ ، وما إلى ذلك من أَوْهَامِ العِشْرِينَ وأَوْهَامِ ما دونَ العِشْرِينِ .

إنني في موقفي هذا أريدُ أيضًا أن أطمئنَ هؤلاءَ بَأنَّ في الشعرِ العَرَبِيِّ فنوناً أكثرَ عدداً مما يَتَوَهَّمُونَ ، وليسَ للأدبِ العَرَبِيِّ

من ذَنْبٍ إِذَا كَانَ مِنْهَاجُ الْبَكَالُورِيَا لَا يَأْتِي بِهَا مَفْرُوضَةً عَلَى الطُّلَّابِ
الَّذِينَ يُهِمُّهُمْ أَنْ يُهُرَّعُوا إِلَى تَسْوِيدِ الْأُوراقِ فِي شَهْرِ حَزَبْرَانَ أَوْ فِي
دُورَةِ ثَانِيَّةٍ فِي شَهْرِ تَشْرِينِ اُولَى أَوْ فِي دُورَاتِ لَوَاحِقٍ .

كَانَ مَالِكُ بْنُ الرَّئِبِ التَّمِيمِيُّ قَدْ خَرَجَ فِي جُيُوشِ الْفَتْحِ إِلَى
خُرَاسَانَ مَعَ وَالِيهَا سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ ، فِي أَيَّامِ مُعاوِيَةَ بْنِ
أَبِي سُفْيَانَ . وَمَرِضَ مَالِكٌ هَذَا فِي مَرْوِ عَاصِمَةِ خُرَاسَانَ مَرْضًا أَيْقَنَّ
مَعَهُ بِالْمَوْتِ فَوَصَّفَ حَالَهُ تَلْكَ فِي قَصِيَّدَةِ طَوْبِلَةٍ جَاءَ فِيهَا :

تَذَكَّرَتْ مِنْ يَيْكَيِّ عَلَيَّ فَلَمْ أَجِدْ
سُوَى السِّيفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِيِّ باِكِيا ،
وَأَشَقَّرَ خَنْدِيزَ يَجْرِي عَنَاهُ
إِلَى الْمَاءِ لَمْ يَتُرُكْ لَهُ الْمَوْتُ سَاقِيَا^(١) .

صَرِيعُ عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ بَقْفَرَةٍ
يُسَوِّونَ قَبْرِيَ حِيثُ حُمَّ قَضَائِيَا
فِيَا صَاحِبِيِّ رِحْلِي ، دَنَا الْمَوْتُ فَأَنْزَلَاهُ
بِرَابِيَّةٍ ؛ إِنَّي مُقِيمٌ لَيَالِيَا .

أَقِيمَا عَلَيَّ الْيَوْمَ أَوْ بَعْضَ لَيْلَةٍ ،
وَلَا تُعْجِلَانِي ، قَدْ تَبَيَّنَ مَا بِيَا !

وَقُومَا إِذَا مَا اسْتَلَ رُوحِي فَهَيَّئَا
لِي السِّدَرَ وَالْأَكْفَانَ ثُمَّ ابْكِيا لِيَا ،
وَخُطَا بِأَطْرَافِ الأَسْنَةِ مَضْجَعِي
وَرُدَا عَلَى عَيْنَيِّي فَضْلَ رِدَائِيَا .

(١) الخندiz : الطويل الضخم من الخيل . أشقر : لونه مائل إلى الحمرة .

ولا تَحْسُدَنِي ، بارك الله فيكُما ،
 من الأرض ذات العَرْضِ أَنْ توسيعًا لِيَا
 خُذاني فجُرَانِي بُرْدِي إِلَيْكُما ،
 فقد كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ صَعْبًا قِيادِيَا !
 يقولون : « لا تَبْعَدْ » وَهُمْ يَدْفِنُونِي ؛
 وأين مَكَانُ الْبَعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا !
 ويقولُ نَفْرُ من الدارسين : وما فعلَ مالِكُ بْنُ الرَّبِّ ؟ لقد
 قالَ سقراطٌ في سَاعَةِ موتِه أَحْسَنَ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ ، وَقَبْلَ مَالِكَ بْنِ
 الرَّبِّ أَيْضًا .

هذا أيضًا تحاملٌ ظاهِرٌ : إنَّ مالِكَ بْنَ الرَّبِّ ماتَ فِي نَحْوِ
 الْثَّلَاثِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَقَدْ كَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ شَابًا بَعِيدَ الْهَوَى تَبِيعًا
 لِلنَّفْسِ ؛ وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ وَبَعْدَهُ شَاعِرًا . أَمَا سُقْرَاطُ الْحَكِيمُ فَكَانَ
 كَبِيرَ السَّنَّ نَاضِحًا ، ثُمَّ كَانَ فِي لِسُوفَا . وَلَقَدْ نَسِيَ الْمُعْتَرِضُونَ مَا هُوَ
 أَهْمَّ مِنْ ذَلِكَ : إِنَّ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْنَا مِمَّا رُوِيَ أَنَّ سُقْرَاطَ قَالَهُ فِي
 سَاعَةِ الْمَوْتِ قَدْ قَالَهُ - فِي الْحَقِيقَةِ - تِلْمِيذُهُ أَفْلَاطُونُ . وَنَحْنُ
 لَا نَعْلَمُ ، عَلَى الْقَطْعِ ، مَا قَالَ سُقْرَاطُ فِعْلًا فِي سَاعَةِ
 موتِهِ . وَلَعَلَّ أَفْلَاطُونَ قَدْ حَسَنَ آرَاءَ أَسْتَاذِهِ وَزَيَّنَهَا وَزَادَ فِيهَا
 جَرْيًا عَلَى عَادِيَّهِ فِي مَا يَنْسِبُهُ إِلَى سُقْرَاطَ ، مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي
 تَارِيخِ الْفَلَسْفَةِ اليونانيةِ . أَمَا الشِّعْرُ الَّذِي مَرَّ بِكَ فَهُوَ قَوْلُ مالِكَ بْنِ
 الرَّبِّ نَفْسُهُ .

إنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الدارسين يُجَانِبُونَ الْعِلْمَ فِي دراساتِهِمُ الْأَدْبِرِيةِ
 وَالْفَلَسْفَةِ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدونَ أَنَّ الْأَدْبَرَ شَيْءٌ وَالْعِلْمُ شَيْءٌ آخَرَ . لَا

رَبِّ في أن الإنتاج الأدبي والإنتاج العلمي شيئاً مُختلفان ، ولكن دراسة الأدب لا يجوز أن تكون مقطوعة الصِّلة بالأسس التي تَجْرِي عليها دراسة العلم . إن الدراسة منهج ، والمنهج ابن المِنْطَقِ وصُنُوْفُ العلم . وليس يرفع من شأن الأدب أن يكون جاهلاً بالعلم ، كما لا ترضى للعالم أن يكون غافلاً عن قيمة الأداب والفنون . إن الحياة نفسها لها لَيْسَتْ لوحًا مُسْتَعْرِضاً ، ولكنها بناء متعدد الجوانب . والنظر إلى الحقيقة كالنظر إلى الواقع كلاماً صحيحاً في نطاقه ، وكلاماً ضروريًّا في الحياة وللحياة .

رَعَمُوا أن جمعيةً دُوليةً أعلنت عن مُباراة موضوعها : الجَمْلُ . فاشترك في تلك المباراة فرنسيٌّ وألمانيٌّ وإنكليزيٌّ . أما الفرنسي فذهب إلى السوق واحتوى مؤونة عام من الطعام والخمر ثم حبس نفسه في غرفته وجلس يكتب . وبعد عامٍ كان قد كتب في الجمل كتاباً جميلاً شائقاً . وأما الألماني فإنه ذهب إلى المكتبة العامة واستعار منها كل كتاب يتعلّق بالإبل . وبعد عامٍ انتهى من وضع كتاب جمع فيه كل شاردةٍ وواردةٍ ذكرها المؤلفون القدامى والمحدثون والمعاصرون له عن الجمل . وأما الإنكليزي فشد الرحال إلى نجد واحتوى جملاً ثم قضى عاماً يراقب الجمل في بيته ويدوّن الملاحظات حتى استطاع أن يضع كتاباً أرضى به نفسه وعقله وأرضى الحقيقة والواقع .

لقد مرّ من حياتنا رَدْح طويلاً من الزمن كان فيه نفرٌ كثيرون منا يكتبون في الأدب والفلسفة كما كتب ذلك الفرنسي عن الجمل .

ثم مر وقت آخر غير قصير كان الدارسون منا في أثنائه يفعلون فعلَ الرجل الألماني . أما الآن فقد حان الوقت لأن يشتري الدرسُ منا قبل أن يبدأ بدراسة موضوعه جملاً .

إذا كان من طبيعة الفلسفه ومن طبيعة الأدب خاصه ألا يستطيع الباحث فيهما أن يحصر جميع جهوده في نطاق العلم ، فلا أقل من أن يستفيد من نتائج البحث العلمي حتى نستطيع أن نكتب من جمالي الخيال الذي استبدلنا بدراسة الأدب ودراسة الفلسفه زمناً طويلاً . إن هذا وحده يستطيع أن يضمن لنا رقابه فعالة على مقاييس الدراسة وعلى مستوى الاستعداد في الدارسين على معالجة الموضوعات . إننا نريد باحثين في الأدب والفلسفه لهم آلة البحث العلمي وتنظيم العقل العلمي ومنهاج العمل العلمي . غير أن هذا لا يتم إلا إذا أعددنا طلابنا على مثل ذلك . وأنا أرجو من أساتذة الجامعات إذا تقدّم إليهم طالب ثم وجدوا أنه لا يصلح لـ كلية الهندسة أو كلية الطب أو كلية الطبيعة والكيمياء ألا يقولوا له :

« لا تيأس ، يا بُني ، ادخل إلى كلية الآداب » .

الترجمة (ونقل الكلمة) من لغة إلى لغة

الترجمة^(*) كلمة أعرابية^(۱) وردت في اللغة الأكادية^(۲) وفي

(*) راجع هذه الكلمة واشتقاقها ومعانيها والاستشهاد عليه في مسودة المعجم الكبير (لمجمع اللغة العربية في القاهرة) المبلغة إلى الأعضاء في ۱۹۷۴/۸/۱۴ (في النسخة الواتصلة إلى) وذلك للمناقشة في الدورة الأربعين . راجع « ت ر ج م » (ص ۶۵ - ۶۶) .

(۱) إن اللغة العربية وأخواتها البابلية والأرامية والكنعانية والعبرية والحبشية وغيرهن يرجعون إلى أم واحدة كان علماء اللغة الغربيون قد سموها تلك الأم اللغة السامية : يزعمون بذلك أن أولاد نوح الثلاثة : ساماً وحاماماً ويافث تكلموا ثلاث أسر مختلفة من اللغات : لغات الأسرة السامية (في غربي آسيا) ولغات الأسرة الحامية (في أفريقيا) ولغات الأسرة اليافثية (في أوروبا) . وقد اعتمد أولئك العلماء في ذلك ما ورد في التوراة الموجودة بأيدي الناس (سفر التكوين ۱۱ : ۱ وما بعد) . إن الأخذ بهذه النظرية بعيد عن العلم وعن الواقع ، فليس من المعقول في شيء أن يتكلّم أبناء رجل واحد لغات ذات خصائص متباينة . وكان صديقي الدكتور زكي النقاش (ولد في بيروت ۱۸۹۶ م) قد اقترح أن يقول « اللغات الأعرابية » مكان « اللغات السامية » ، وهو على حق لأن أصل هذه اللغات من شبه جزيرة العرب . والأعراب أو أهل الbadia هم أهل اللغة الفصحى الصحيحة .

(۲) الأكادية (ويقولون أيضاً : الأكادية) دولة أعرابية عادمة (قديمة جداً) نشأت في جنوب العراق . وربما لاح لي أن هذه الدولة يجب أن تسمى « العقدية بالعين والقاف » ، لما في « الجذر » « ع ق د » من أسماء القبائل والأماكن والأراضي =

الأرامية وفسيلتها السُّريانية^(١) وفي العبرية والحبشية^(٢) ، ومعناها الأصلي : « تفسير الكلام »^(٣) . وفي القاموس المحيط (٤) : ٨٣) وفي المعجم الوسيط (ص ٨٣ أيضاً) وفي تاج العروس (٨ : ٣١٠) ولسان العرب (مادة : رجم) ترجم الكلام : فسره ووضّحه . وللترجمة معنيان آخران : سيرة فرد من الناس أو تاريخ

= الخصبة وبساتين التخييل مما يصلح أن يشتق منه اسم « بلد » أو دولة . ففي تاج العروس (طبعة الكويت) ، فالعقد (بفتح ففتح) قبيلة من بجيلة أو اليمن خرج منها رجال مشاهير . وينو عقيدة (بالتصغير) قريش . والعقديون (بالضم) جماعة من طيء مشهورين . وعقد : لجأ .

والعقدة (بالضم) : الولاية على البلد ، والمكان الكثير الشجر أو الكثير العشب ، وهو الحائط (البستان المسور) الكثير التخييل أو القرية الكثيرة التخييل وكل أرض مخصبة . وعقدة : قرية قرب يزد في طرف المفاازة (الباذية) . والعقد (بضم فتح) علم بين البصرة وضرية . وعقدة (بالضم) قرية في مصر . والأعقد البناء المعقود (المبني بناء مصمتاً بقناطر متينة مملوءة بالحجارة المثبتة ، كما تبني القلعة) . وعقد بالكاف مثل عقد بالقاف (لجأ) والمعكد (بفتح الميم وكسر الكاف) : المجلس . (٨ : ٣٩٥ - ٤٠٥) . وأكَد (اسم الدولة) مأخوذ من أجَد (أو أجاد ، إجاده) بكاف بدوية : اسم عاصمة تلك الدولة بناها شروكين (عند المحذدين من المؤلفين : سرجون) عاصمة لدولته . ولعل معناها المدينة « الجديدة » أو « المتينة » (راجع جدة في الحجاز) . - وهذا التردد بين أن تكون أكد بالهمزة أو بالعين راجع إلى أن هذه الكلمة الأغريقية كانت تكتب بالخط المسماري أو الإسفيني الذي كتبت به اللغة السوميرية (السومرية أو الشومرية) واللغة الآشورية ، وقد غابت منها العين ، فهل كانت العين موجودة في الأකدية ولكن لم يكن لها حرف ؟ يحسن أن يتولى علماء الأعرابيات الجواب على هذا السؤال .

(١) راجع اللباب للقرداхи (٢ : ٦٣١) وقد وردت صيغ كثيرة من جذر « ت رج م » .

(٢) راجع (في باب رجم ، وترجم)

Herbew and English Lexicon of the Old Testament , by Gesenius (Boston 1844) p.973 and 1128.

(٣) القاموس المحيط (في باب ترجم ، ٤ : ٨٣) ونَاج العروس (٨ : ٣١٠) : وفي لسان العرب (في باب رجم) .

حياته ثم نُقل الكلام من لغة إلى لغة .

وال Shawāhid علی المعنى الأول (التفسير للكلام والتوضیح) نمرّ به كثيراً في تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم ، في ذلك الدور الذي نقل العرب فيه العلوم والفلسفة من اللغات المختلفة . والمدرك الملموح في هذا المعنى هو أنَّ كثريين من النَّقلة لم يكونوا بارعين في اللغات التي نقلوا عنها خاصة ، فلم يكن نقلهم كاملاً دقيقاً ، بل كان عَرْضاً للأراء التي كانت في الكتاب الأصلي (أو ما نسميه أحياناً : نَقْلاً بِتَصْرِفٍ) . ودليلنا على ذلك أنَّ كثيراً من الكتب المنقولة أصلحها فيما بعد نَفْرُ أكثرُ علماءَ من نَقْلِها الأولين .

لتتأمل النص التالي :

يقول ابن خلدون^(١) : « والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة (صناعة الهندسة) هو كتاب الأصول أو الأركان (لإقلیدس) ، وقد كان أول ما تُرجم من كتب اليونانيين في المِلَّة (في الإسلام) أيام أبي جعفر المنصور . ونسخه مختلفة باختلاف المترجمين ، فمنها لحنين بن اسحاق ولثابت بن قرة وليوسف بن الحجاج » .

وفي كتاب الفهرست^(٢) أنَّ الحجاج بن يوسف بن مطر^(٣) نقل كتاب أصول الهندسة لإقلیدس نقلين (مرتين) النَّقل الأول يُعرف بالهاروني (نسبةً إلى هرون الرشيد وفي أيامه) ثم نَقْلاً ثانياً

(١) مقدمة ابن خلدون « دار الكتاب اللبناني » بيروت ١٩٦١ ص ٩٠٢ .

(٢) طبعة ليسيك ٢٦٥ .

(٣) الحجاج بن يوسف بن مطر (المطران) الحاسب الوراق من قدماء الناقلين .

يعرف بالمؤمني (نسبة إلى المؤمن بن هرون الرشيد وفي أيامه) ، وكان العلماء يعولون على النسخة المنقولة في أيام المؤمن . وكذلك نقل اسحاق بن حنين^(١) هذا الكتاب كله ثم أصلاح ثابت بن قرة^(٢) نسخة اسحاق هذه .

إذا نحن لم نرض أن نجزم بأن النقول المختلفة تقوم على أن ما تلا منها كان أقرب إلى الصحة مما سبق منها ، لم يكن لنا معدّى عن أن نجزم بأن النسخة التي عملها اسحاق بن حنين المتطلب (والذي عاش في الحقيقة على شهادة أبيه حنين بن اسحاق) كانت تتواء بأخطاء كثيرة مما حمل ثابت بن قرة الرياضي البارع على إصلاحها^(٣) .

وأما الترجمة بمعنى « سيرة رجل أو تاريخ حياته » فهي مدرك مولد متأخر النشأة (راجع المعجم الوسيط ٨٣) ، وهي لا تدخل في موضوع هذا المقال .

وأما « الترجمة » بمعنى نقل الكلام من لغة إلى لغة فهو موضوع هذا البحث .

مررت الإشارة إلى أنَّ الكلمة « ترجمة » أصيلة في اللغات الأعرابية ، فهي (كما جاء في « مسودة المعجم الكبير » المذكورة آنفاً : ترجمانو (بالجيم غير المعطشة كما في جمل ، والواو علامة

(١) اسحاق بن حنين (ت ٢٩٨ هـ - ٩١٠ م) ناقد . وكان مثل أبيه حنين بن اسحاق عارفاً باليونانية والسريانية والعربية . ويبدو أنه نقل أشياء كان أبوه قد نقلها ، وكان طيباً .

(٢) ثابت بن قرة الحراني (ت ٢٨٨ هـ - ٩٠١ م) ناقد بارع وعالم بالرياضيات والطب .

(٣) راجع أيضاً فيما تقدم مباشرة « تاريخ العلوم عند العرب » لـ (كاتب المقال) ، ص ١٢١ .

الرفع) ؛ وتأتي التاء فيها بالفتح أو بالضم) ؛ وكذلك تأتي الجيم فيها مفتوحة ومضمومة .. أما في الآرامية والسريانية (اللهجة الغربية من الآرامية) والأرامية اليهودية (التي انحرف إليها لسان اليهود حينما كان اليهود في الأسر البابلي) فهي ترجمانا (بفتح التاء في السريانية ، وضم التاء في الآرامية اليهودية ثم بإماملة الجيم فيهما) .

والراجح أن الكلمة انحدرت من الأكديّة إلى عرب الجاهلية (أو أنها رحلت مع الأكديين) ، وأنا أميل إلى أن أسمّيهم العُقَدِيْن^(١) ، من اليمن (جنوب بلاد العرب) إلى جنوب العراق . إن « الترجمان » في العربية تأتي بفتح التاء وضمّها وبضمّ الجيم . وتأتي أيضاً بفتح التاء والجيم . ومن الأدلة على أن كلمة « ترجمان » أصيلة في العربية أيضاً أنَّ العرب سَمَّوا بها . ففي القاموس المحيط (٤ : ٨٣) الترجمان (بفتح التاء وضمّ الجيم) ابن هريم (بالتصغير) بن أبي طَخْمَة (بالفتح) م (أي معروف) . وهنالك علاء الدين محمد بن محمود الترجماني المكي الخوارزمي (ت ٦٥٤ هـ - ١٢٥٧ م) ، له « يتيمة الدهر في فتاوى أهل العصر »^(٢) .

وكلمة « ترجمان » وردت في الشعر العربي مراراً ، في الشعر القديم وفي الشعر المُحدث . قال الراجز نَقَادَةُ الأَسْدِي^(٣) :

(١) راجع الحاشية الطويلة في مطلع هذا المقال .

(٢) بروكلمان ١ : ٤٧٤ ، الملحق ١ : ٦٥٤ .

(٣) راجع مسودة المعجم الكبير ، ثم لسان العرب (مادة : رجم) ونَاجُونَ العروس (القاهرة) ٨ : ٣١٠ .

... فهنَّ يلْفُطُنَّ بِهِ إِلْغَاطًا كالتَّرْجُمَانَ لِقَيِّ الْأَنْبَاطِ^(١) .
 وكذلك قال ابن الرومي يصف مغنية تعزف على العود (وهو يُشَبِّه العود بأنه طفل في حضن أمه)^(٢) :
 أمَّهُ ، دَهَرَهَا ، « تَرْجُمٌ » عَنْهُ وَهُوَ بَادِي الغَنِيَّةِ عَنْ « التَّرْجُمَانَ ».
 غَيْرَ أَنْ لِيْسَ يَنْطُقُ الدَّهَرَ إِلَّا بِالْتَّرْزَامِ مِنْ أَمَّهُ وَاحْتِضَانِهِ .
 ووردت كلمة « ترجمان » مفردة ومجموعة عند المتنبي^(٣) :
 * ملَاعِبُ جَنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ^(٤) .
 * تَجْمَعَ فِيهِ كُلَّ لِسْنٍ وَأَمْةٍ فَمَا يُفَهِّمُ الْحُدَادَ إِلَّا التَّرَاجُمُ^(٥) .
 والترجمة أو النقل من لغة إلى لغة ليست أمراً يسيراً : إنها
 أصعب من التأليف ، ففي التأليف يستطيع المؤلف أن يختار
 المعنى الذي يريده وأن يعبر عنه باللفظ الذي يختاره . أما في النقل
 فإن الناقل مقيد تقيداً شديداً بالنص الذي يكون أمامه .

وللنُّقل من لغة إلى لغة أربعة شروط متلازمة :
 - بِرَاءَةُ فِي الْلُّغَةِ الْمُنْقُولُ مِنْهَا ،

(١) اللُّغَطُ الْأَصْوَاتُ الْمُخْتَلَطَةُ الْمُبِهَمَةُ الَّتِي لَا تَفْهَمُ . الأَنْبَاطُ وَالنَّبِيطُ : أَخْلَاطُ مِنَ النَّاسِ
 غَيْرَ الْعَرَبِ (الصُّورَةُ الْلَّغُوَيَّةُ : تَرْجُمَانٌ يَنْقُلُ الْكَلَامَ بَيْنَ مُتَخَاطِبِيْنَ مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ لَا
 يَفْهَمُ السَّامِعُ الْعَرَبِيَّ مَا يَقُولُ التَّرْجُمَانُ وَلَا مَا يَقُولُ الْفَرِيقَانِ) .

(٢) دِيْوَانُ ابْنِ الرُّومِيِّ (اخْتِيَارُ كَامِلِ كِيلَانِي - الْقَاهِرَةُ) ٨٤ .

(٣) دِيْوَانُ المَتَنْبِيِّ (الْعَرْفُ الطَّيِّبُ لِلْبَازِجِيِّ) ٥٩٠ ثُمَّ ٤٠٤ .

(٤) الْجَنَّةُ : الْجَنُّ . ملَاعِبُ جَنَّةٍ (مَنَاطِقٌ كَثِيرَةٌ يَسْكُنُهَا جَمَاعَاتٌ مُخْتَلَفُو الْلُّغَاتِ كَأَنَّهُمْ
 جَنٌّ لَا يَفْهَمُونَ إِلَيْهِمْ مَا يَقُولُونَ . يَقَالُ فِي سُلَيْمَانَ بْنَ دَاوُدَ إِنَّهُ كَانَ يَعْرُفُ لُغَاتَ كَثِيرَةٍ
 وَيَعْرُفُ لُغَةَ الطَّيْوَرِ .

(٥) الْلُّسْنُ (بِالْكَسْرِ) الْلُّغَةُ . الْحُدَادُ : الْمُتَحَدِّثُونُ (وَلَا وَاحِدٌ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ) .

- براعةٌ في اللغة المنقول إليها ،
- معرفة بالموضوع المنقول ،
- ثقافة عامة في موضوعاتٍ مختلفة .

أما الشرطان الأولان (البراعة في اللغتين) فأمرُهما واضح لا يحتاج إلى تفصيل ولا إلى دفاع . وأمّا معرفة الموضوع فهو المِحَكَ الذي يظل الناقل أمامه متّهياً .

لما طُلب مني نقلُ مذَكراتِ أَيُوب خان (رئيس باكستان سابقاً) : « أصدقاء لا سادة » من الإنكليزية إلى العربية واستعرضت تلك المذَكرات داخلني شيء من الهيبة لأنَّ تلك المذَكرات تتطوّي على أمورٍ سياسية واقتصادية وعسكرية وقضائية واجتماعية وكلّها تتعلّق بالهند وبباكستان (والمصطلحات في هذه كلّها مختلفة عما قد أُفْنَاه نحن في البلاد العربية) . ولما حدث الإصرار على أن أتوّلى أنا هنا النقلَ قبلت بعد التفاهم على أن أرجع فيما لا أُدْرِيه إلى سفارة باكستان في بيروت . وكان رجوعي إلى السفارة (من طريق التلفون أو مباشرة) كثيراً . وكثيراً ما كنت أقف أمام فكرة أو أمام مصطلح لم يكن في السفارة من يَعْرِفُه فكانت السفارة تكتب إلى باكستان في استجلاء ذلك . ومع هذا كله فقد استدركَ علي الصديق اللواء الركن محمود شيث خطاب تعبيراً عسكرياً لم أُعْرِفَه (ولم يُقلْ لي في الأغلب) هو « حظيرة » لعدد قليل من الجنود .

ولما نقلت محاضرة جورج سارطون « الثقافة الغربية في رعاية الشرق الأوسط » ثم كتاب « الطريق إلى النجوم » (في

الفلك) كنت أحياناً أكتب إلى المؤلفين في استجلاء عدد من المشاكل في المعاني والمدارك وفي التعبير .

ومع هذا فإن الناقل لا يسلم من المواقف الحرجية حينما يريد إلا يكتفي بنقل الألفاظ وحدها ، ولكن يريد أن ينقل شعور المؤلف (في الآثار الأدبية خاصة) إلى القارئ في اللغة الثانية . لـما نقلت كتاب « الإسلام على مفترق الطرق » (لمحمد أسد) مرّ بي تعبير يمثل الخلاف بين أمرين كان المؤلف قد ضرب لهما مثلا بحصان الركوب وحصان الجر . إنَّ المثل المضروب بهذين النوعين من الخيل يفهمه القارئ الغربي (بالغين المعجمة) لأن هذين النوعين معروfan في أوروبا . أما نحن فنعلم الحصان للفروسيّة ، ولا نألف الحصان الضخم الذي يستخدم في غربي أوروبا خاصة للجر وللحمل . من أجل ذلك ضربت أنا المثل بالتجيب (الهجين من الإبل المعروف بسرعته) ثم بالبعير (الجمل المستخدم عندنا في الحمل . ثم وضعت حاشية أشرح فيها ما فعلت) .

وللنُّقل من لغة إلى لغة - منذ كان - طرائق عديدة أصلها طريقتان :

- الطريقة اللفظية ، وهي أن يجيء الناقل إلى كل جملة من النص الذي يريد نقله فيوضع فوق كل كلمة في النص الأصلي ما يقابلها في اللغة التي يريد أن ينقل ذلك النص إليها (وكثيراً ما يلجأ هذا الناقل اللفظي إلى القاموس يستخرج منه معانٍ الكلمات المطلوبة . وربما اكتفى بالمعنى المألوف في بيته . وكان يتشرط في هذا النقل اللفظي أن يكون عدد الكلمات في النص الجديد من

اللغة الثانية مثل عدد الكلمات في النص الأول) . وهذه الطريقة اللفظية يلجأ إليها واحد من ناقلين : ناقل غير ضليع من إحدى اللغتين أو منها كليهما فلا يثق بنفسه بل يلقي *تبععة* ما يختار من الكلمات على القاموس . وأما ثانٍ ذينك الناقلين فهو الذي *يُعهد* إليه بنقل *أثرِ سامي* كالكتب المقدسة والوثائق الرسمية .

- الطريقة المعنوية ، وهي أن يقرأ الناقل النص كله قبل أن يبدأ النقل حتى يستطيع أن يعرف منحى المؤلف الأصلي واتجاه تفكيره ونوع ألفاظه وصورة تراكيبيه . فإذا عاد الناقل ليبدأ عملهقرأ كل جملة تامة ثم أدارها في ذهنه حتى يوقن أنه قد فهم معناها ومرمها . بعدها يختار لها الألفاظ التي تعبر عن مقصد الكاتب لا عن تراكيبيه فقط ويسوق الجملة في اللباس العربي الموافق ، وليس عليه أن يكون عدد الكلمات في جملته مثل عددها في النص الأصلي أو أكثر أو أقل .

لما وضعت كتابي « عقريبة العرب في العلم والفلسفة » قال لي بعضهم : إن الفصل المتعلق بعلم الأنساب (المثلثات) في كتابي خير من الفصل الموجود في كتاب قدربي طوقان . فقلت له : إنني في فصل المثلثات الذي في كتابي قد اعتمدت على كتاب قدربي طوقان . وأين أنا في الرياضيات من قدربي طوقان . هو رياضي عقري ، وأنا عملي في التعليم كان قاصراً على الأدب والتاريخ والفلسفة . ولكني عملت جهدي في فهم الفصل الذي كان في كتاب قدربي طوقان ثم عبرت عنه تعبيراً واضحاً (أقول : تعبيراً واضحاً) . ولقد خبرت أشياء كثارةً من مثل ذلك حينما وضعت كتابي « تاريخ العلوم عند العرب » . لقد بدا لي أن العلماء

في معظمهم يعتقدون أن كل شيء يعرفونه هم يجب أن يعرفه كل أحد . فإذا عرَض أحدهم نظرية عَرَضها بأقل ما يمكن من الشرح ، وإذا هو أراد بسط مسألة أدار حلها في أقل عددٍ من الخطوات الممكنة . وربما أشار أحدهم إلى الفكرة أو إلى المعنى الغامض أو الواضح كما يشير أحدها إلى الشيء المأثور عنده وعند الذي يحدثه .

كنت إذا وقفت أمام شيء من مثل ذلك أفضت في الشرح بحسب الحاجة أو زدت في خطوات حل المسائل بحسب الحاجة أيضا .

وفي الترجمة أو نقل النصوص من لغة إلى ثانية طريقة أخرى فاسدة .

قد يقرأ رجل كتاباً بلغة أجنبية فيعجبه فيحب أن يكون هذا الكتاب في اللغة العربية (مثلاً) فيكون له في ذلك مجريان : - يبدأ قراءة هذا الكتاب فيأخذ الجمل التي تعجبه (أو التي يظن أنها أعجبته أو أنه فهمها) فيضعها في لغة من عنده قد تكون معبرة عن النص الأصلي وربما لم تكن . وبعدئذ إما أن يذكر على غلاف الكتاب أنه قد نقله أو يهمل ذلك . وفي أكثر الأحيان يحذف ذلك الرجل الجمل التي تكون « صعبة » .

حينما كنت تلميذاً في الجامعة الأميركية (في بيروت) درسنا عدداً من روايات شكسبير . وكانت رواية « مكبث » أصعب تلك الروايات فكنت أقف أمام جمل كثيرة فيها موقفاً لا مخرج منه . فخطر لي أن أشتري نسخة فرنسية من « مكبث » فأفهم منها تلك الجمل التي لم أفهمها في ثوبها الانكليزي . ولكن المفاجأة كانت

أن جميع الجمل التي غمض على معناها أو مرمها في النسخة الانكليزية كانت غائبة من النسخة الفرنسية .

- وأحياناً ينسى الناقل أنه ينقل عن لغة أجنبية لها حضارتها وعادات أهلها وطبيعة أرضها ومنحى التفكير فيها وخصائص تركيبها فيلجأ إلى خياله هو فيخرج ما ادعى أنه منقول عن لغة أجنبية وكأنه قد كتب ابتداء بلغة الناقل نفسه .

لما نشر مصطفى لطفي المفلوطي (ت ١٩٢٤ م) رواية « الشاعر أو سيرانو ده برجراك » (لمؤلفها أدمن روستان) بدا فيها سيرانو وهو يعاتب حبيبته روكسان وكأنه عنترة يخاطب عبلة . (ولقد كان عذر المفلوطي أنه لم يعرف اللغة الفرنسية ولا لغة أخرى غير العربية . فكانت الروايات تسرد له سرداً عادياً فيضعها هو في اللغة التي يراها مناسبة) .

ومن مثل هذا رواية « آلام الشاب فرتر » (للشاعر الألماني غوته) ، وهي تمتنز بأنها من الشر السهل (وأذكر أنها أول ما طالعته من الكتب في الألمانية لسهولة تراكيبيها وفصاحة ألفاظها) . وقد نقل هذه الرواية إلى العربية أحمد حسن الزيات^(١) بعنوان « آلام فرتر » بأسلوب مُتحم بالصناعة مُثقل بالتعمل (وأظن أن عذرها في ذلك أنه نقلها عن الفرنسية لا عن الألمانية) .

(١) أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ - ١٩٦٨ م) أديب مصرى تلقى علومه في الأزهر وفي الجامعة المصرية ثم درس الحقوق وعرف اللغة الفرنسية . وهو صاحب مجلة الرسالة (١٩٣٢ - ١٩٥٢ ؟) له : تاريخ الأدب العربي (وهو كتاب مدرسي موجز) - في أصول الأدب (مقالات في موضوعات تتعلق بالأدب العربي خاصة) - دفاع عن البلاغة . وقيمة أحمد حسن الزيات في مقالاته في « الرسالة » وفي الأثر الذي تركته هذه المجلة في العالم العربي .

وفي الآثار المنقوله مشكلة واضحة :

إذا وقع خطأ في نقل كتب العلم فإن إصلاح الأخطاء فيها يكون في العادة سهلاً . أما إذا كان الخطأ في كتب التاريخ والدين والفلسفة فإن إصلاح الخطأ الذي يقع فيها مستحيل .

وأحب ، فيما يلي ، أن آتي بنماذج من النقل - مما عانّته أنا - تفسيراً للملحوظات التي سبقت .

١ - في رواية « هملت » لشكسبير هذه الجملة التالية :

To be or not to be, that is the question.

ونسقها اللغوي : الكون أو لا الكون هذا هو السؤال . وربما تصرف بعضهم فيها فقال : « أن تكون أو أن لا تكون ، هذا هو السؤال » . حتى لقد أصبح هذا التعبير الأعرج الغامض واحداً من الشعارات التي يُنادى بها : تكون أو لا تكون » .

وليس هذا ما قصده شكسبير . أما مقصد شكسبير فلا يفهم إلا إذا نحن عرّفنا الموقف الذي اقتضى « الجهر » بهذه الجملة أو بهذا القول .

كان هملت الكبير ملكاً على الدنمارك ، وكان له ابن اسمه أيضاً هملت أرسله إلى إنكلترة ليتعلم فيها العلم أو عادات الملوك . في هذه الفترة أحببت أمراًًة الملك هملت أخا الملك هملت ثم قتلا الملك وجلس العشيق على العرش مكان الزوج . وأحبّ أنصار الملك هملت أن ينتقموا من الخائبين فأرسلوا إلى هملت الصغير أن يرجع إلى الدنمارك ثم حبّكوا مؤامرة لذلك .

وكانت عادة أم هملت الصغير وعشيقها التزهه في كل ليلة على سطح القصر فكانا يصعدان إليه من سلم معين . ثم إذا انتهت نزهتهما الليلية نزلا من سلم آخر معين . وكان ترتيب المؤامرة أن يقف هملت الصغير عند السلم الذي ينزل منه العاشقان بعد انتهاء التزهه ، وأن يتوزع المتأمرون الباقيون في الطرف الذي يصعد منه الملك الجديد وعشيقته أم هملت (إذ كانت الغاية أن يكون لهملت الصغير يد في المؤامرة ليصبح له حق في استعادة عرش أبيه) . ولكن في الليلة التي عيّنت لتنفيذ المؤامرة غير العاشقان خطوة سيرهما فصعدا من السلم الذي كانا ينزلان منه ، حيث يقف هملت الصغير .

أصبح هملت الصغير الآن في موقف شديد الضرر : لا يستطيع أن يستجده برفاقه المتأمرين ولا كان هو قادرًا على مقاومة الملك الجديد والملكة إذا هما رأياه في موقفه هناك . . .

حيثئذ صرخ هملت الصغير قائلا :

To be or not to be, that is the question.

« القضية قضية حياة أو موت » .

ولا وجه للجملة الشوهاء : أكون أو لا أكون ، هذا هو السؤال .

٢ - في عام ١٩٣٨ نقل فيليكس فارس^(١) كتاباً للفيلسوف الألماني نيتше وأرسل نسخة « للنقد والتقرير » في مجلة

(١) فيليكس فارس (١٨٨٢ هـ - ١٩٣٩) أديب وخطيب لبناني عاش في مصر ، أكثر آثاره نقول وقصص ، له رسالة المنبر إلى الشرق العربي (محاضرات) - اعترافات فى العصر (مقتولة عن الفريد دي موسى) - هكذا تكلم زرادشت .

الألماني^(١) . قرأتُ الكتاب وعارضته بالأصل فوُجِدَت عدداً من الأخطاء أولاً في عنوان الكتاب . عنوان الكتاب في الألمانية :

Also Sprach Zarathustra.

فجعل فيليكس فارس العنوان بالعربية : « هكذا تكلم زرادشت ». وبما أن الأخطاء كانت كثيرة ، فقد كتبت النقد ثم بعثت به إلى فيليكس فارس وقلت له أن يرى رأيه في الأخطاء المذكورة . وله أن يختار بعد ذلك نشر هذا « النقد » كما هو أو أن يطلب إغفال نشره .

وكان فيليكس فارساً نبيلاً فكتب إليّ يقول : لقد عرض الأمر على صديق له فرنسي يعرف اللغة الألمانية ، فتبين أن الأخطاء في النسخة العربية قد أتت من الترجمة الإفرنجية . ونشرت النقد تماماً^(٢) .

أما العنوان فيجب أن يكون : « كذلك قال زرادشت » (لا : هكذا تكلم زرادشت) . ومن الأخطاء أن فيليكس فارس استعراض عن الأسلوب السهل في كتاب نيته بأسلوب منمق (وقيمة نيته إنما هي في تفكيره البعيد في التعبير السهل ، لا في التعبير الفخم عن الأفكار الغامضة) . وثالثة أن نيته يعارض^(٣) شخصية المسيح

(١) مجلة (١٩٣٨ - ١٩٤١ ، بيروت) كانت تبحث في الثقافة . أصدرتها بالتعاون مع نفر من الزملاء .

(٢) الألماني ، السنة الأولى ، العدد ٢٣ (١٩٣٩ / ٢ / ٣ م) ص ٢٩ . راجع أيضاً نقداً لهذا الكتاب لخليل هنداوي (ت ١٩٧٨ م ؟) ، في الألماني ، السنة الأولى ، العدد ٤٥ (٧ / ٣٩) ص ٦ .

(٣) عارض الرجل الجبل : سار معه ، جعل الشيء موازياً لشيء آخر (أما المعارضة بمعنى المناقضة فتعبير سياسي متأخر) .

في الإنجيل بشخصية زرادشت إلا في واحدة هي أن زرادشت لا يعطف على الضعاف (بخلاف المسيح) . وهذه الخاصة مفقودة في النسخة العربية (لأنه يعز على فيليكس فارس أن يقرّ بصواب رأي نি�تشه في رفض العطف على الضعاف ، وهو أساس من أساس الدعوة النصرانية في الإنجيل - ولعل هذه الخاصة كانت مفقودة في النسخة الفرنسية) . ثم رابعة هي أن اعتقاد نيتشه في سواد الشعب كاعتقاد المتنبي : « وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم » . يرى نيتشه قوماً بلغ من جهلهم إلى أن يظنوا أنهم أسعد الناس لأنهم لم يعرفوا حالاً خيراً من حالهم فتراه يغير هؤلاء بقوله إنهم في غبطة تستدر الرحمة . والنسخة العربية فيها « غرور يستحق الإشراق » . (ص ٦)

* * *

ونقل كتب العلم على العلماء هين لأن العالم ينقل كتاباً يعرف موضوعاتها ومصطلحاتها ولا يتكلف في القول : إنه يريد نقل المعاني في أبسط صورها . أما نقل الأدب فإنه صعب ، لأن الأدب الجيد يقوم على متانة التعبير وعلى الصور البلاغية من تشابيه واستعارات وكنایات ، وهذه تختلف في اللغات المختلفة اختلافاً كبيراً .

إن القمر عندنا أبيض جميل فَرَح ، وفي الإنكليزية أصفر شاحب . ثم هو مؤنث في الإنكليزية والفرنسية ومذكر في العربية والألمانية . والشمس يعكس ذلك مذكرة في الإنكليزية والفرنسية ومؤنثة في العربية والألمانية . فإجراء التشابه والاستعارات في

الشمس والقمر لا يمكن أن يكون واحدا في هذه اللغات . والحمار والكلب من صفات المدح في اليونانية والإإنكليزية . والذم في الإنكليزية إنما هو في التشبيه بالكلبة وبالجحش (ولد الحمار : الحمار الصغير) . ونحن نتشاءم بالبومة . والألمان يعدون البومة من علامات الفأل فيضع أحدهم عند بابه صورة بومة كما يضع قوم من الناس عندنا حدوة حصان فوق أبوابهم .

فإذا قام أحد بنقل نصوص من الأدب من لغة إلى لغة فعلية أن يتضمن لكل ذلك وإلا فقد عمله التأثير المطلوب من القارئ .

وأكثر ما يتبدى هذا في أمثال الأمم :

* هم يقولون مثلاً : العامل المخطيء يلقي اللوم على أدواته . - وشاعرنا يقول « إذا أساء صنيعاً عاتبَ القدراً » .

* وهم يقولون : العامل في كل الصناعات لا يتقن صناعة .
ونحن نقول : « كثير الكارات قليل البارات » .

* هم يقولون : الشجرة تعرف من أثمارها ، ونحن نقول : « يقرأ الكتاب من عنوانه » .

٣ - وليس كل الشعر يُعبر نفسه للنقل . ذلك لأن لكل لغة عبقريةً وموسيقى . فنقل الكلمات أحياناً لا يؤدي إلى نقل المعاني ولا إلى نقل الأثر النفسي من القائل إلى السامع .

في الشاهنامه للفردوسي شاعر الفرس الأكبر بيتٌ هو :
زهر كونه أزمرغ وأز جاريابي خرد كرد ويك يك بياور بجاي

وترجمته الحرفية : من كل نوع من الطيور ومن ذوات الأربع
صَنَعَ أطعمة وكان يجلبها واحداً واحداً إلى الخوان .

وهذا البيت الفارسي لا يستقيم في بيت عربي واحد ، بل
تحتاج إلى بيت ونصف بيت ، مع شيء من التصرف أيضاً .

من كل طير وذوات الأربع
طها طعاماً وغداً يأتي به
إلى الخوان واحداً وواحداً

ولكن هذا الكلام منظوم على بحر الرجز ، وليس شعراً في
اللغة العربية . إن هذا البيت من الشعر في اللغة الفارسية لا يُعبر
نفسه للنقل إلى اللغة العربية ، ولكن لعله يغير نفسه للنقل إلى لغة
غير عربية .

ومثل ذلك قول شكسبير :

When icicles hang by the wall
And Dick the shepherd blows his nail,
And Tom bears logs into the hall,
And milk comes frozen home in pail;

حينما تتدلى المقرنصات بجانب الجدار
و« ديك » الراعي ينفخ ظفره
و« توم » يحمل الخشب إلى القاعة
ويصل اللبن الحليب جاماً في عليه . . .

فإننا إذا سمعنا هذا الكلام ظنناه رُؤيا من السحر لا أشطراً من

الشعر ولا نكاد نعلم منه أن شكسبير يريد أن يصف شدة البرد في بعض أيام الشتاء .

وكذلك إذا سمعنا أفرد دي موسيه يقول (في الفرنسية)

Après avoir souffert, il faut souffrir encore

Il faut aimer sans cesse après avoir aimé.

وبعد أن تألمت يجب أن تتألم أيضا ،
يجب أن تحب بلا انقطاع بعد أن تكون قد أحبت
أو يقول :

Le mal dont j'ai souffert s'est enfui comme un rêve.

Je n'en puis comparer de lointain souvenir

Qu'à ces brouillards légers que l'aurore soulève

Et qu'avec la rosée on voit s'envanouir.

إن الشر^(١) الذي تألمت منه قد هرب كأنه حلم .

ولا أستطيع أنأشبه الذكرى البعيدة
إلا بذلك الضباب الخفيف الذي يرفعه الفجر
وإلا بالندى (حينما) يُرى وهو يتلاشى .

فإننا ندرك أن الشطرين الأولين يصعب نظمهما شعراً عربياً
لخلائهما من صورة شعرية ثم لا قتصرهما على موسيقى لفظية اتفق

(١) إن كلمة *mal* تعني في أكثر الأحيان : المرض والأذى أو الألم ، ولا أعتقد أن الشاعر قد قصد هنا بهذه الكلمة معنى الشر ، بدليل ما ورد في بقية القصيدة وعنوانها : ليلة تشرين .

هنا أنها من طبيعة اللغة الفرنسية وليس في طبيعة اللغة العربية .
أما الأشطر الأربعه التالية فإنها تعير نفسها للشعر العربي لأن في كل
شطر منها استعارةً نستطيع أن نُخرج منها صورة شعرية في اللغة
العربية (وفي غير اللغة العربية أيضاً) إذا اجتمعت فيها آلة النظم .
وقد قال أبو العلاء المعربي (قبل ألفريد دي موسيه) بنحو ألف
عام :

هربَ النومُ عن عيونِي فيها هَرَبَ الأمانِ عن فؤادِ الجبانِ
إن الكلمات ، بلا ريب ، مختلفة . ولكن الصورة الشعرية
والأثر النفسي هنا يشبهان ذينك هناك .

وكذلك في أشعار الأمم كلها أبيات لا تعير نفسها للنظم
الجميل في لغات أخرى بعامل الموسيقى اللفظية التي تتألف من
كلمات كل لغة . أما إذا ضممت الأشعار صوراً بلاغية واضحة فإنها
حينئذ تدخل في الوزن في كل لغة من تلقاء نفسها وتتبدي جميلة
في كل لغة كما تبدو الفتاة الجميلة في كل ثوب . من هذا
النوع الأخير مطلع قصيدة للشاعر الألماني فون أرنست :

Der Gott der Eisen wachsen liess

Der wollte keine Knechte.

اتفق يوماً أن مررت به فتصور في ذهني سريعاً :
والذي أنبت الحديد من الأز ض أبي أن يكون في الأرض عبدٌ .
ثم اتفق أن قرأتُ في « لزوميات المَعْرِي » بيّاناً (لم أكن قد
قرأته من قبل) :

وَاللَّهُ إِذْ خَلَقَ الْمَعَادِنَ عَالَمٌ إِنَّ الْجِدَادَ الْبَيْضَ مِنْهَا تُجْعَلُ.

هنا أيضاً تجد الصورة الشعرية التي تحمل منحى التفكير في الأبيات الثلاثة واحدةً ولكن الكلمات تختلف في الأبيات الثلاثة قليلاً أو كثيراً . إن الشعر ليس في اللفظ وحده (كما يقول ابن خلدون) ولا هو في المعنى وحده (كما يقول ابن رشيق) ، ولكنه في الصورة البلاغية (الشعرية) كما يقول ضياء الدين بن الأثير .

والشعر الجيد هو الذي يتعاون فيه اللفظ والمعنى على إبراز الصورة البلاغية بروزاً واضحاً . وعند نقل مثل هذا الشعر من لغة إلى لغة يجوز للشاعر الناقل أن يضع معنىًّا جزئياً مكان معنىًّا جزئيًّا ، ولفظةً معينة مكان لفظةٍ معينة ، ولكن الصورة المقصودة يجب أن تبقى واحدة مع الـ هزة الشعرية التي يجيء بها الشعر الجيد .

للشاعرة الإنكليزية أنا لائتيشيا باربولد (١٧٤٣ - ١٨٢٥ م)

أبيات هي :

Life! I know not what thou art,
But know that thou and I must part;
And when, or how, or where we met
I own to me's a secret yet.

Life! we've been long together,
Through pleasant and through cloudy weather;
'Tis hard to part when friends are dear-
Perhaps 'twill cost a sigh a tear;

- Then steal away, give little warning,
 Choose thine own time;
 Say not good-night- but in some brithiter clime
 Bid me good- morning.

نقلتها إلى العربية فجاءت كما يلي ، ولكن بتصرف بدل
 عدداً من كلماتها ، إذ عَدَلْتُ في تلك الكلمات عن مؤدّاها
 الاجتماعي في اللغة الانكليزية إلى مؤدّاها الاجتماعي في اللغة
 العربية . من ذلك مثلاً مطلع هذه الأبيات فقد قلت فيه : « يا
 نفس » في مكان « يا حياة » ، لأنّ العرب لا ينادون الحياة في
 الالتفات والتجريد (مخاطبة الإنسان لذاته أو لشخص مجرد من
 ذاته) ، بل يخاطبون النفس . لقد قلت :

إيه يا نفس ، لست أعلم شيئاً
 عنك إلا بأننا لافتراء

أين كنا ؟ وأين كان التلاقي ؟
 ذاك سرّ ما زال ، بعد ، خفيّاً
 (ودهورٌ إثرَ الدهور تَوَالى)

* * *

نحن كنا مع الصبا أتراباً
 في نعيم من الحياة وضيق
 قد يضيّم الصديق فَقَدُ الصديق
 يُدْرِفُ الدمعَ لَوْعَةً واحتساباً
 حينما تُزمع النفوسُ ارتحالاً

* * *

فانسلی خفیة بلا إنذار
حينما ترغبين ، يا نفس ، هجرا
أنت ، يا نفس ، باختيارك أدرى
لا تبني والليل في أکفهار
وَدَعْيَنِي إِذَا النَّهَارَ تَعَالَى

وربما جاءت الأبيات طويلة فيتصرف الناقل في اختصار
معانيها ، ما دام المقصود من الشعر أن يُلقي أثراً في النفس لا أن
يُحصي كلمات الأبيات :

من ذلك مثلا هذه الأبيات لشكسبير :

Come away, coma away, death,
And in sad cypress let me be laid;

Fly away, fly away breath;
I am slain by a fair cruel maid.

My shroud of white, stuck all with yew,
O prepare it!

My part of death, no one so true
Did share it

Not a flower, not a flower sweet
On my black coffin let there be strown;
Not a friend, not a friend greet

My poor corpse, where my bones shall be thrown:
A thousand thousand sighs to save,

Let me, oh, where
Sad true lover never find my grave
To weep there.

إن المقطع الأول يستحيل نقله إلى العربية في شطره الثاني وشطره الخامس وهو ما عمدة الصورة الشعرية في هذا المقطع فجمعت المقطع كله في بيت واحد .

أنا إن أخفت الجمام' فؤادي
لا تدع زهرة على النعش تُلقى
لا ولا صاحباً يُحِيَ رُفاتي
الْفَقِنِي حيث لا يراني مُحِبٌ
وخلعت الحياة عن مِنكبيا
قد كساها الربيع زهواً وريماً
حسبه ما بكى وقد كنت حياً
عاثرة في الهوى فيبكى علياً

وحيثما أقول إن الشعر لا يعبر نفسه للنقل فأنا أعني شيئاً واضحاً معيناً . حينما أنقل أنا قطعة من الشعر لشكسبير تبطل هذه القطعة في ثوبها العربي الجديد أن تكون لشكسبير إن المعاني وحدها تبقى لشكسبير ، ولكن الشعر - اللباس اللغطي الذي يجعل من الكلام شعراً - يكون دائماً شعر الناقل لا شعر المنقول عنه . إن رباعيات عمر الخيام ، مثلاً قد نقلت إلى لغاتٍ كثيرة نقولاً مختلفة . ولهذه الرباعيات في اللغة العربية نقول لأحمد حامد الصرف وأحمد الصافي التنجي وأحمد رامي ولوديع البستاني ولغيرهم . والفرق بين هذه النقول مختلفة باختلاف مقدرة أصحابها ، ولذلك فهي تمثلهم هم ولا تمثل عمر الخيام إلا بما بقي فيها من المعاني الخاصة بعمر الخيام . ولو كانت تلك النقول تمثل عمر الخيام لكان كلها تعبرأً واحداً على مستوىً واحداً من

الصِّحةُ والدِقَّةُ والأَثْرُ في النَّفْسِ . ومعَ أَنَّ الصرافِ الصَّافِي قد نقلَا رباعياتِ الخِيَامِ عنِ الفارسيةِ بينما ودَعَ البَسْتَانِيَ قد نقلَها عنِ الإِنْكِلِيزِيَّةِ بعَدَ أَنْ كَانَ فِي تَزَجِيرِ الدَّدِ قد نقلَها عنِ الْفَارِسِيَّةِ، فإنَّا نجُدُ هَذَا الْفَرْقَ بَيْنَ تَرْجُمَتِي الصرافِ الصَّافِي وَتَرْجُمَةِ البَسْتَانِيَ . إنَّ تَرْجُمَةَ الصَّافِيِّ وَالصَّرَافِ أَدْقٌ وَأَكْثَرُ صِلَّةً بِالْأَصْلِ ، وَلَكِنَّ الْقَارِئِيِّ الْعَادِي يَجِدُ تَرْجُمَةَ البَسْتَانِيَ أَهُونَ وَأَعْذَبَ فِي الْقِرَاءَةِ . وَلَعِلَّ هَذَا الْقَارِئِيِّ الْعَادِي يُحِسِّنُ رُوحَ الْخِيَامِ فِي عَدْدٍ مِنَ الرباعياتِ مِنْ نَقْلِيِّ الصرافِ الصَّافِيِّ أَكْثَرَ مِمَّا يُحِسِّنُ رُوحَ الْخِيَامِ فِي عَدْدٍ آخَرَ مِنْ نَقْلِيِّ الصرافِ الصَّافِيِّ (١) .

لِنَأْخُذْ مَثَلاً وَاحِداً مِنَ رباعياتِ الْخِيَامِ (والرِّباعِيَّةُ أَرْبَعَةُ أَشْطَرِ) :

لِعَمِرِ الْخِيَامِ رِباعِيَّةُ نَقْلِهَا أَحْمَدُ الصَّافِيِّ النَّجَفِيِّ نَقْلًا حَرْفِيًّا
صَحِيحًا كَمَا يَلِي (٢) :

أَتَمَنِي دِيَوَانَ شِعْرٍ وَنِصْفًا
مِنْ رَغِيفٍ وَكُورَزٍ صَهْبَاءَ حَانِ
وَجَلْوَسًا مَعَ الْحَبِيبِ بَقْفَرِ
ذَاكَ خَيْرًا مِنْ مُلْكِ ذَي سُلْطَانِ

وَنَقْلِهَا أَحْمَدُ رَامِيَ فَجَاءَتْ عَنْهُ كَمَا يَلِي (٣) :

(١) لأَحْمَد حَامِد الصَّرَافِ تَرْجُمَة لِرباعياتِ الْخِيَامِ (١٩٣١ م) لِيسَ بَيْنَ يَدِي نسخَةِ مِنْهَا الْآنَ .

(٢) بِلَا اسْمٍ لِمَكَانِ الطَّبِيعِ وَلَا لِتَارِيخِهِ . وَيَبْدُو أَنَّ هَذِهِ التَّرْجُمَةَ كَانَتْ قَدْ اَنْتَهَتْ فِي سَنَةِ ١٣٤٥ للهِجَرَةِ (١٩٢٩ م) . راجِعُ صِ ١٢١ .

(٣) النَّاشرُ مَكْتَبَةُ غَرِيبِ (القَاهِرَةِ) ١٩٦٩ م ، صِ ٩٤ .

زجاجةُ الخمرِ ونصفُ الرغيفْ
أَحَبَّ لِي إِنْ كُنْتَ لِي مُؤْسِأً
وقد نقلها محمد الـباعي خمسية^(٤) :

واخْلُ بِي نَحْسُو شِرَاباً عَتَقاً ثُمَّ نَلَهُو بِنَشِيدٍ نُمَقَا
وَرَغِيفٍ تَحْتَ ظِلَّ أُورْقاً وَأَشَدُّ بِالْأَلْحَانِ يَرْتَدُ الْخَلَا
جَنَّةَ رَاقَ بِهَا الْحُسْنُ وَرَاغُ

أَمَا وَدِيعُ الْبَسْتَانِي فَجَعَلَهَا سُبْعَاعِيَّةً^(٥) .

وَمُقَامِي غَصْنٌ ظَلِيلٌ بِقَفْرٍ
وَرَغِيفَانِ مَعْ زَجاجَةِ خَمْرٍ
كُلَّ زَادِي ؛ وَالْأَهْلُ دِيوَانُ شَعْرٍ
وَحَبِيبٌ يَهْوَاهُ قَلْبِيَ الْمُعْنَى
بِشَجَّيٍّ يُذَيِّنِي يَتَغَنَّى :
هَكَذَا أَسْكُنُ الْقِفَارَ نَعِيْمَاً ،
وَأَرَى هَذِهِ الْقَصُورَ خَرَابَاً

في الأصل الفارسي للرباعية المنقوله هنا (نصف ناني: نصف رغيف) ، وقد نقلها أحمد الصافي النجفي وقال أيضا «نصف رغيف». ومثله فعل أحمد رامي . أما محمد السباعي فقال «ورغيف». وأما بديع البستاني فقال : «ورغيفان» . وهذا كله يدل على أن اللفظة لا تصنع الشعر ولا التركيب النحوي يصنعه ، وإنما يصنع الشعر الصورة البلاغية . فأي هؤلاء النقلة

(٤) المكتبة التجارية الكبرى (مصر) ، بلا تاريخ للطبع . ص ٤١ .

(٥) دار المعارف بمصر ١٩٦٩ م ص ٥٣ .

الأربعة قد مثل الخيام ؟ أنا أرى أن كل واحد من هؤلاء قد مثل نفسه وأسلوب نفسه وخيال نفسه . ولكن فضلهم في أنهم نقلوا لنا « المعاني التي أراد الخيام أن يطْرُقَها » .

غير أن هذا لا يمنع من أن يكون نفر من هؤلاء قد اقترب بنا من روح الخيام مرة بعد مرة تقليداً لا تمثيلاً . والدليل البات الجازم في ذلك أن الثابت للخيام نحو مئة رباعية . ثم جعل نفر من الشعراء الفرس يُنْظِّمون رباعيات وينسبونها إلى الخيام . وقد انجرف أحمد الصافي النجفي في تيار هؤلاء وطوى ترجمته على ثلاثة وواحدة وخمسين رباعية نسبها إلى عمر الخيام ، فكيف يمكن أن نقول إن ترجمة أحمد الصافي النجفي لرباعية منسوبة إلى عمر الخيام يمكن أن تمثل عمر الخيام ؟

إن قراءة الأدب لا تجوز إلا في لغته الأصلية . ولا تحدث الهزة في العاطفة إلا إذا قرأ الإنسان النص الأدبي في لغته . أما النقول فتنقل إلينا المعاني المُفَرَّدة والاتجاه الفكري العام . وإذا لم يكن الإنسان عارفاً بلغة ، فلا عليه أن يقرأ شيئاً من أدب تلك اللغة بلغته هو .

في أيام دراستي في ألمانيا زرت باريس زورتين طويلتين . وفي إحدى الزورتين ضمّني مع نفر من الطلاب أمثالي مجلس . ولكنّ اثنين من الطلاب دخلا في جدال في أي الشاعرين أحسن شعراً : فكتور هيغرو (شاعر فرنسي) أو غونه (شاعر ألمانية) . ثم بدا لأحدهما أن يُدخلني فيما كانا فيه فقال لي : « وما رأيك في ذلك ؟ » فسألته : « هل تَعْرِفُ الألمانية ؟ » فقال : « لا » . فقلت له حينئذ : « فيم تتجادلان ، إذن؟ » .

الفهرس الجانبي لأمثلة المثل

م = مكرّر
ح = في الحاشية

- ابن الأثير - ضياء الدين . ٣٠٠
- ابن باجه ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ .
- ابن حزم ١٣ .
- ابن حيوس ٢٤٣ .
- ابن خلدون ١٩٢ ، ٢٦٢ م ، ٢٧١ ،
- ابن المدبر ٢٠٢ .
- ابن المعزّ ١٣٩ وما بعد .
- ابن الخطاط ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ م ، ٢٤٧ .
- ابن دريد ١٣ .
- ابن هشام (صاحب السيرة) ١٠٠ .
- ابن رشد ١٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،
- أبو تمام ١١ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ . ٢٦٨
- ، ٢٢٤ ، ٢٠٩ ، ٢٠٣ ، ١٠٨
- ابن رشيق ٣٠٠ .
- ابن الرومي ، ٢٠٢ ، ٢٠٩ ، ٢٤١ ،
- ، ٢٤٠ م ، ٢٢٨ ، ٢٢٦ ، ٢٢٥
- ، ٢٤٥ . ٢٨٦
- أبو سنان الخفاجي ٢٤٢ .
- أبو سينا ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ .
- أبو طفيل ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ .
- أبو جعفر الطرسوسي ٣٣ .
- أبو جعفر = قريع .
- أبو جعفر المنصور ٢٨٣ .
- أبو دهبل ١٩٦ .
- ابن عين ، ٢٢٧ .

- الأعشى - ميمون بن قيس ٩٦ م
 ١٧١ ، ١٨٦ ، ١٨٧ م
 أعشى همدان ٢١٥
 أغيسيلاؤس ٢١٣ م
 أفلاطون ٢١٣ م ، ٢١٦ ، ٢٦٨ م
 أقليدس ٢٨٣ م
 أكستوفانس ٢٦٣
 ألفونسو (العاشر) الحكيم ١٥٩ م
 أليزابث الأولى ٢٧٦
 أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان
 . ١٩٥
 أم عمرو ٩٧
 أم هملت ، راجع ٢٩٢ - ٢٩٣
 أم يعلى = زينب
 أمرؤ القيس ٩٥ م ، ١٠٠ ، ٩٦ ،
 ، ١٨١ ، ١٤٢ - ١٤٠ ، ١٢٤
 ، ١٩١ ، ١٨٨ ، ١٨٦ - ١٨٤
 ، ٢٣٩ - ٢٣٨ ، ٢٢٠ ، ١٩٢
 . ٢٧١ - ٢٧٠ ، ٢٥٩ - ٢٥٨
 . ٩٧
 الأمين العبّاسي ٢٣٦
 أمية بن أبي الصلت ٦١ م
 أنبذقليس ٢٦٣
 أنف الناقة = جعفر بن قريع
 . أنكلمن ١٦٠ ح
 أياس بن أوس بن عتيك ١٢٨
 أيوب خان ٢٨٧
 أبو العتاهية ٢٠٢ ، ٢٢٢
 أبو العلاء المعرّي ٢٥٥ م ، ٢٩٩ -
 . ٣٠٠
 أبو محجن الثقفي ٩٤ ، ١٠٠
 أبو مسلم الخراساني ٢١٤ - ٢١٥
 أبو نواس ١٤٥ ، ١٨٢ ، ٢٠٣ ،
 ، ٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٥
 ، ٢٢٢ - ٢٢٠ ، ٢١٨ - ٢١٤
 ، ٢٣٦ ، ٢٣٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٦
 . ٢٣٧ ، ٢٤٥
 الأبوردي ٢٣٠ - ٢٣٢
 الأثري - محمد بهجة ٥٥ - ٥٦
 أحد ١٢٠
 أحد بن الحسين = المتنبي
 أحد شوقي ١٣ ، ١٤١ م
 الأخطل ١٩٧ ، ٢٠٠
 الأخشن ٦٢
 أخوان الصفا ٢١٣ ، ٢٩٤
 أدورد الثامن ٢٥١
 الأرجاني ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
 ، ٢٤٣ ، ٢٤٥
 أسطيو ، أسطوطاليس ٨ ، ٢٦٦ م
 اسحاق بن حنين ٢٨٣ ، ٢٨٤ م
 أسد - محمد ٢٨٨
 اسماعيل بن يسار ١٩٥

- باربولد - لائتشيا ٣٠٢ - ٣٠٠ ح .
 البارودي - محمود سامي ١١ ، ٢٢٩ ح .
 الجاحظ ٣٣ م ، ٢١٤ - ٢١٥ .
 جرداق - منصور ١٤٤ ح .
 جرير ١٩٧ ، ٢٠٠ .
 جعفر بن قريع ٦٢ ، ٦٤ .
 جحيل بشيّة ١٩٩ ، ٢٣٧ .
 جولييت ٢٨ .
 الجوهري (صاحب الصحاح) ١١٢ م .
 حاتم الطائي ٩٩ .
 الحارث الأصغر ٢١٢ .
 الحارث الأعرج ٢١٢ .
 الحارث الأكبر ٢١٢ .
 الحارث بن حلزة ١٦٧ .
 الحجاج بن يوسف الثقفي ٢١٥ ح م .
 الحجاج بن يوسف بن مطر ٢٨٣ م .
 حجر (والد امرئ القيس) ٢٥٩ .
 الحريري (صاحب المقامات) ١٧ .
 حريث (شاعر أموي) ١٩٦ .
 حسان بن ثابت ١٣٦ م .
 حسان بن ثابت ١٢٧ ، ١٢٨ م .
 الحسين (والد المتّبّي) ٦٢ - ٦٤ .
 الحسين الضحاك الخليج ٦٢ .
 حسين - محمد كامل ٥٦ .
 الحسين بن مطير ١٨٣ .
 الخطيبة ٦٢ .
 الحكم بن يغوث المنقري ١٣٧ م .
 حمزة الأصفهاني ٢١٤ م .
 حميد بن ثور ١٩٤ - ١٩٥ .
- البيّاع - عبد الواحد بن نصر ٦٢ .
 البحترى ٩٣ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٦ ، ٢١٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٤٠ ، ٢٣٣ ، ٢٦٢ .
 بديع الزمان المذانى ١٧ .
 برميذس ٢٦٣ .
 البستاني - وديع ٣٠٣ - ٣٠٥ .
 بشر بن أبي خازم ٩٩ ، ٧٩ ، ١٠٠ م ، ٢٤٠ .
 بشار بن برد ٢٠٣ .
 بكر بن خارجة ٢٠٧ .
 تأبّط شرّا ١٦ ، ٢١٢ .
 الترجان بن هريم ٢٨٥ .
 الترجانى - محمد بن محمود ٢٨٥ .
 التهامي ٢٢٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ - ٢٤٤ .
 التوبّي - جبران ١١ ح .
 ثابت بن قرة ٢٨٣ ، ٢٨٤ م .
 ثربانتس ١٦٢ ح .
 الثريا بنت عليّ بن عبد الله ١٤٢ - ١٤٣ .
 الشعالي (صاحب فقه اللغة) ٥٧ ، ٥٨ .

- حبيراء = عائشة (بنت أبي بكر) .
 زرقاء اليمامة ١٣٥ - ١٣٦ .
 زهير بن أبي سلمى ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠ .
 الزويني ١٠٠ .
 الزيات - أَحْمَدُ حَسْنٍ ٢٩٠ - ٢٩١ .
 زياد بن حمل ٩٨ ح .
 زينب أم يعلى ٢١٠ م .
 سارطون - جورج ٢٨٧ .
 سام (بن نوح) ٨ ح .
 السباعي - محمد ٣٠٥ .
 سبط بن التعاويني ٢٢٥ ، ٢٢٨ - ٢٢٩ .
 السري الرفاء ٢١٩ - ٢٢٠ ، ٢٢٨ - ٢٣٩ .
 سعيد بن حميد ٢١١ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ - ٢٢٣ .
 سعيد بن عثمان بن عفان ٢٧٧ .
 سقراط ٢٧٨ م .
 سليمان بن داود ٢٨٦ ح .
 سمبسون - بي ٢٥١ .
 سنان بن أبي حارثة ٩٤ .
 سهيل بن عبد العزيز بن مروان ١٤٢ - ١٤٣ .
 سويد بن أبي كاهل ١٨٥ .
 سيبويه ١٠٨ .
 سيرانوبي برجراك ٢٩١ .
 سيف الدولة ٦٣ .
 شتاينر ١٦٠ ح م .
- حبيبي = عائشة (بنت أبي بكر) .
 الحوفي - أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ١٢ - ١٣ .
 حي بن يقطان ٢٦٥ .
 خالد بن عبد الله القسري ٢١٥ م .
 الخرق أخت طرفة ١٠٠ ، ٢٦٠ - ٢٦١ .
 خطاب - محمود شيش ٢٨٧ .
 الخليع = الحسين الضحاك .
 الخليل بن أحمد ١١٢ .
 دك ٢٩٧ م .
 دنانير ٢٢٢ .
 دوزي ١٦٠ ح .
 دي موسية - الفريد ٢٩٣ ح ، ٢٩٨ - ٢٩٩ .
 ذو الرمة ١٩٨ - ١٩٩ .
 ذو يزن ٢٤٨ م .
 رامي - أحمد ٣٠٣ - ٣٠٥ .
 رسول الله = محمد رسول الله .
 رسول الله (صالح) في بني ثمود ١٠٧ .
 رؤبة بن العجاج ٥١ .
 روستان - أدمنون ٢٩١ .
 روکسان ٢٩١ .
 روميو ٢٨ .
 ريتشارلي ٨٣ .
 الزبير بن دحان ٢١١ .
 زرادشت ٢٩٣ - ٢٩٥ .

- العباس بن الأحنف ٢١٨ - ٢١٩ .
- عبد الله بن رواحة ١٩١ .
- عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع ٢٠٨ .
- عبد الله بن المقفع ٢٧٦ .
- عبد الحميد الكاتب ٢٧٦ .
- عبد الرحمن بن الأشعث ٢١٥ ح .
- عبد الرحمن بن حسان بن ثابت م ١٨٣ .
- عبد الرحمن بن محمد بن مروان ٢١٢ .
- عبد الملك بن مروان ٦٤ م .
- عبد الواحد بن نصر = الببغاء .
- (عبدان السقاء) ٣٠ ، ٣١ ، ٦٢ - ٦٤ .
- عبدو ٤٥ ، ١١٧ .
- علبة ٢٦٦ ، ٢٩١ .
- عبيد بن الأبرص ٣١ ، ٩٦ ، ١٠٠ .
- عبيدة ١٨٧ - ١٨٨ ، ١٩١ ، ٢٥٩ م .
- عتيك (جد اياس بن اوس) ١٢٨ .
- عروة بن الورد ٩٩ ، ١٠٠ م .
- عرب ٢٠٩ .
- عطارد ٨٢ .
- عفاراة ٩٦ .
- العقاد - عباس محمود ٥٦ .
- علام - مهدي ٥٥ - ٥٦ .
- علقمة الفحل ١٠٠ .
- عمارة اليمني ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٤٥ .
- عمر ٤٥ .
- الشجيري - هبة الله بن علي ١٠٠ .
- الشريف الرضي ٢٢٥ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٣٩ ، م ٢٣٥ ، م ٢٢٣ .
- شكسبير ١٣٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ - ٣٠٢ ، ٢٩٧ ، ٢٩٣ .
- الشماخ ٩٨ .
- الشنفري ٩٧ .
- شوقي = أحمد شوقي الصافي النجفي - أحمد ٣٠٣ - ٣٠٦ .
- صياغة - سعيد ١١ ح .
- الصراف - أحمد حامد ٣٠٣ - ٣٠٤ .
- صردَرَ ٢٢٧ - ٢٢٥ ، ٢٤٤ ، ٢٤٣ .
- الضحاك = الخليع الضحاك (أحد بنى الأشهل) ١٢٨ .
- الطبرى ١٢٩ .
- طرفة بن العبد ٣٣ ، ٦٢ ، ٩٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ - ١٩٠ .
- عربي ٢٦١ .
- الطغرائي ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ - ٢٣٦ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ .
- طفيل الغنوي ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٠ .
- طوقان - قدرى ٢٨٩ م .
- عائشة ٤٩ .
- العامري = مجرون ليل العمارية = ليل (محبوبة مجرون ليل) .

- عمر بن الخطاب ١٢٩ ، ١٩٤ م ، فارس - فيليكس ٢٩٣ - ٢٩٤ .
 فاطمة (عنزة) في شعر امرئ القيس ١٩٨ .
 عمر الخيام ٣٠٦ - ٣٠٣ . ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٤٠ .
 عمر بن أبي ربيعة ١٣ ، ١٤٢ - الفردوسي ٢٩٦ - ٢٩٧ .
 الفرزدق ١٣ ، ١٩٠ - ١٩١ ، ٢٣١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٧ .
 عمرو ٤٥ ، ٩٩ ، ١١٦ ، ١١٧ .
 عمرو بن الأهتم ١٦ ، ١٢٩ .
 عمرو بن درماء ٩٥ .
 عمرو = طرفة
 عمرو بن كلثوم ١٨٣ ، ٢٠٢ .
 عمرو بن مامة ٢٦٥ .
 عمرو بن هند ٣٣ ، ٩٦ ، ٢٥٩ .
 عنان - محمد عبد الله ٢٢٢ م .
 عنترة ٢٦ ، ٣١ ، ٣٥ ، ١٠٠ .
 قريع (من بني سعد بن زيد منة) ١٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨٢ ، ١٢١ .
 قنوب بن أم صاحب التميمي ١٠٨ م .
 قنوب بن مالك ١٢٧ .
 قيس بن عاصم ١٢٩ م .
 قيس بن الملوح = مجذون ليل ٢١٢ .
 كثير عنزة ٢٣٧ .
 كريتياس ٢٦٣ .
 الكسائي ١١٢ .
 كسيب - خليل ١١ ح .
 كيلاني - كامل ٢٨٦ ح .
 ليبد ٣٣ ، ٩٥ ، ٩٨ .
 غيسينيوس ٢٨٢ ح .
 الفارابي ٢٦٤ م ، ٢٦٦ م ، ٢٦٨ م .
 عنزة = فاطمة (في شعر امرئ القيس)

- مسلم بن الوليد ٢٠٣ - ٢٠٤ . ليل ٢٤٥ .
- مسهر بن النعمان ٩٥ . ماربة بنت أرقم بن ظالم ٢١٦ ح .
- ال المسيح ١٣٣ ، ٢٩٤ - ٢٩٥ . المازني - ابراهيم عبد القادر ٢٦٩ .
- المطعم بن الحكم بن يغوث ١٣٩ م . مالك بن الريب ١٩٩ ، ٢٧٧ -
- معاوية بن أبي سفيان ٢٧٧ . ٢٧٨ .
- معاوية بن مالك ٩٤ . المؤمن ٦٤ م ، ٢٨٤ م .
- المعري = أبو العلاء ٣٢ - ٣٣ ، ٢٥٩ - ٢٦٠ .
- معن بن أوس ١٨٩ . المتنبي ٣٠ - ٣١ ، ٦٣ م ، ٢٠١ ،
- المقعن الكندي ١١٣ - ١١٤ . المكعبر ٣٣ ، ٢٥٩ - ٢٦٠ . ٢٢٨
- المكتسي - أحمد ١٦١ . المقنع ٢٤٣ ، ٢٤١ ، ٢٣١ ، ٢٤٧ ، ٢٤٥
- المنصور = أبو جعفر ٢٨٦ .
- المفلوطى - مصطفى لطفي ٢٩١ م . المتنخل ١٩١ .
- المهدي العباسي ٢٢٢ ، ٢٣٦ . التوكّل العباسى ٢٠٢ ، ٢٢٣ .
- المهندس - زكي ١٢٠ . مجنون ليل ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
- مهيار الديلمي ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ . محمد رسول الله ١٢٧ - ١٢٩ ،
- ، ٢٤٣ ، ٢٤١ ، ٢٣٩ ، ٢٣٧ . ١٨٦ ، ٢٦٣ م .
- ، ٢٤٨ - ٢٤٦ . محمد بن بشير الخارجي ١٩٩ - ٢٠٠ .
- مينندث بيدال ١٦١ ح ، ١٧٥ ح م . محمد بن محمود = الترجانى .
- التابقة الجعدي ٢٢١ . المرار بن المنقد العدوى ١٣ ، ١٨٣ -
- التابقة الذيباني ٩٤ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ٢١٢ . ١٨٤ .
- النبي = محمد رسول الله . المرتضى الزبيدي ١١٢ م .
- نصيب ٢٢٢ . مردم - خليل ٢٢٩ ح .
- نقادة الأسدى ٢٨٥ - ٢٨٦ . المرقش الأصغر ٩٧ ، ١٨٥ .
- النقاش - زكي ٢٨١ . المرقش الأكبر ١٨٤ ، ١٩٠ .
- مسكين الدارمي ٢٠٢ .

- نوفون ١٦٠ ح .
 نيشه ٢٩٤ - ٢٩٥ .
 نيكل - ع . ر : ١٠ - ١٢ .
 الهاشمي العباسى ٢٣٦ .
 الهدلي - جندي (؟) ٩٦ .
 هرون الرشيد ٢٠٤ - ٢٠٥ ، ٢٢٣ ، ٢٠٥ - ٢٢٣ ، ٢٢٨
 هشام بن عبد الملك ١٩٥ .
 هكسلى - الدوس (؟) ١٣ .
 هملت الصغير ٢٩٢ - ٢٩٣ .
 هملت الكبير ٢٩٢ - ٢٩٣ .
 هند = عمرو بن هند
 هنداوى - خليل ٢٩٤ م .
 هنرى الثامن ٢٥١ ، ٢٧٦ .
- هوميروس ٨ ، ١٣٩ .
 هيغرو - فيكتور ٣٠٦ .
 والبة بن الحباب ٢٠٢ .
 وضاح اليمن ١٩٦ .
 الوليد بن عبد الملك ١٩٥ .
 اليازجي - ناصيف (أو إبراهيم)
 ٢٨٦ ح .
 يافث بن نوح ٨ ح .
 يامبليخوس ٢٦٣ .
 يربوع بن مالك ١٢٩ .
 يزيد بن معاوية ١٨٣ م .
 يود - ياقب ١٦١ ح .
 يوسف بن الحجاج ٢٨٣ .
 يوسف الصيقل ٢٢٣ .



رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس